سلسلة م/ علوم إنسانية

الشاذلي بورُونيّة
محمّد طاهر

قرطاج البونيّة
تاريخ حضارة



مركز النشر الجامعي

الشاذلي بورونيّة محمّد الطّاهر

قرطاج البونيّة

تاريخ حضارة



مركز النشر الجامعي

1999

مقدمة

دفعنا لتأليف هذا الكتاب إيمان راسخ بأهمية تأثير حضارة قرطاج لا فقط في تاريخ البلاد التونسية بل وفي تاريخ البحر الأبيض المتوسط. ولقد أنسنا عند المهتمين بهذه الفترة رغبة في أن يوضع على ذمتهم مؤلف يسد فراغا في المكتبة العربية بحكم افتقارها حتى اليوم إلى مرجع باللسان العربي، إذا ما استثنينا بعض المحاولات القليلة الجادّة.

ولمّا كان الاتجاه اليوم ينحو إلى تدريس تاريخ هذه الحضارة باللغة العربية فقد سعينا إلى أن تكون عبارة الكتاب على سهولتها تجربة لتطويع لغتنا للتعبير التاريخي الدقيق. ويعي القارئ أن ذلك لم يكن بالأمر الهين لذلك لا بد لنا أن نعترف أننا لقينا صعابا كثيرة في اختيار المصطلحات عند وضع هذا التأليف. واضطررنا في مناسبات عديدة لتبني المصطلح كما ورد في لغته الأصلية ولكننا شفعناه عند الاقتضاء بتعريف عنينا أن يجمع بين الدقة والإيجاز. ونرجو أن يكون في هذا المجهود الذي بذل ما يشجع المختصين على الإيمان بقدرة اللغة العربية على التكيف للتدليل على المعاني العلمية غير أن سعينا هذا لا يغني بأي شكل من الأشكال عن النظر في ما كتب باللغات الأخرى.

بعد مقاربة أولى لتاريخ هذه الحضارة وما كتب حولها منذ القرن الماضي لن يجد القارئ صعوبة كبيرة في التفطن إلى وجود تآليف عامة سلطت الأضواء على حضارة قرطاج من كلّ الجوانب وقد نحت الدراسات لتحقيق ذلك منحيين اثنين:

– منحى أوّل دأب أصحابه على دراسة تاريخ الحضارة البونية ضمن إطار دراستهم لحضارة الفينيقيين عامة ويتم نتيجة لذلك التمييز بين

فينيقي الشرق وفينيقي الغرب وتغطي دراسة الحضارة القرطاجية عندها مجموعة من الفصول تبوّب عادة في آخر المؤلف.

– منحى ثان ركّز أصحابه على دراسة الحضارة البونية في إطار حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي مع التشديد عند الاقتضاء على الجذور الشرقية لهذه الحضارة وهو تمشي لا غنى عنه لفهم خصوصيات تاريخ قرطاج خاصة بالنسبة لبعض الجوانب كالمؤسسات والحياة الدينية وغيرها. من هنا نتبين أن محاولتنا المتواضعة إنما تتنزل في الواقع ضمن محاولات عديدة سبقت، ألفت في لغات عديدة وستتلوها دون شك كتابات أخرى على ضوء ما ستحققه المعرفة التاريخية من تقدم لكن وبالرغم من هذا المعطى الأخير يجب القول أن بعض الدراسات شكلت محطات مضيئة في تاريخ هذا الاختصاص بقطع النظر عن قدم تواريخ صدور البعض منها على الأقل وذلك بحكم إسهاماتها الواضحة في إلقاء أسس تقليد علمي سليم في التعامل مع تاريخ القرطاجيين. كما لا يفوتنا في هذا السياق أن ننوّه بجهود التدريس والبحث المنجزة باللغة العربية والتي قام بها الأساتذة محمد حسين فنطر ونبيل قلّالة وأحمد الفرجاوي بالنسبة للتاريخ البوني والأستاذ عمار المحجوبي بالنسبة للتاريخ الروماني.

وفي الواقع لم يكن غياب تآليف باللغة العربية في هذا الاختصاص الوازع الوحيد الذي حثّنا على صياغة هذا الكتاب، بل أن يقينا عميقا بأهمية ما حققه البحث التاريخي على امتداد الفترة الأخيرة من تقدم قد رسّخ في أذهاننا مشروعية العمل الذي نعرض ثماره على قرائنا، فقد شملت جهود البحث كامل أرجاء الإمبراطورية القرطاجية تقريبا ونذكر منها بالخصوص الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج والتنقيبات الأثرية التي عرفتها مواقع عديدة من البلاد التونسية ككركوان وقليبية ومنطقتي الساحل والشمال الغربي (دقة، بلاريجيا، شمتو...).

أمّا خارج بلادنا فقد أثمرت الحفريات التي أنجزتها مختلف البعثات الإيطالية في كلّ من مالطة وصقلية (موتيي بالخصوص) وسردينيا (مواقع تاروس، مونتي سيراي، سلكيس...) نتائج ممتازة تذكر بالأخرى التي طالت المواقع الفينيقية - البونية بجنوب شبه الجزيرة الايبيرية (توسكانوس، المنكّب ...) بفضل الجهود المشتركة الألمانية ـ الإسبانية دون أن ننسى بطبيعة الحال ما قدمه البحث الأثري من إضافات بفضل الحفريات المنجزة في مواقع لم تكن خاضعة للسيطرة البونية ولكن ربطتها بقرطاج علاقات اقتصادية وطيدة كمساليا وشبه الجزيرة الإيطالية وبلاد الإغريق الشرقية (أثينا - كورنثة) وهو ما سمح لنا اليوم بتقديم رؤية أكثر دقة عن هذه الحضارة وذلك ببعديها:

- الداخلي: إذ يمكن لنا اليوم أن نجزم أن معرفتنا لجوانب عديدة من حضارة قرطاج كانت حتى تواريخ قريبة أما مبهمة تماما أو محل جدل كبير بين المختصين توضحت نسبيا. ولا يمكن لنا في هذه المقدمة أن نعدّد كلّ الأمثلة المجسدة لهذا الحكم ولكن يكفي التذكير بما حملته الحفريات الأخيرة من نتائج تخص التمدين بمختلف مكوّناته في كلّ من قرطاج وكركوان وموتيي (الأحياء السكنية، الأنهج، الأسوار، الورشات الحرفية، المقابر...) وهو ما سمح بإجراء المقارنات والمقاربات بهدف تقديم رؤية أوضح لهذا الجانب من هذه الحضارة كما يمكن أن نذكّر أيضا بالاكتشافات الهامة التي تمس عالم الموتى وخاصة الأثاث الجنائزي، يضاف إلى ذلك قضية تأسيس قرطاج التي شغلت المختصين طويلا...

- الخارجي: اقتصرت معرفتنا بتاريخ هذه الحضارة ولفترة طويلة على الصراعات العسكرية التي وضعتها وجها لوجه ضد الإغريق في مرحلة أولى وضد الرومان في مرحلة لاحقة وذلك بحكم الإضاءات المشوهة التي تقدمها مصادرنا الأدبية والتي لم تهتم بقرطاج إلا من هذه الزاوية العسكرية تقريبا غير أن هذه النظرية الأحادية أمكن لنا اليوم

تعديلها بفضل اللقى الأثرية التي تسمح اليوم بتلمّس أوجه أخرى لا تقل أهمية عن الجانب العسكري ونعني بها المبادلات الاقتصادية وهو ما وفّر للمختصين فرصة لتنزيل تاريخ هذه القوة في إطاره المتوسطي ولكن بكل أبعاده العسكرية والاقتصادية والثقافية. وطبيعي أن تتراءى لنا اليوم صورة قرطاج بمظهر يختلف عما تعوّدت تقديمه الأبحاث الأولى. وأمكن لنا استجلاء أوجه التأثير الذي مارسته على الحضارات المجاورة ومدى تأثير هذه الحضارات بدورها على الحضارة القرطاجية. وهو ما أكسب قرطاج هوية متفردة ذلك أنها جمعت بين التأثيرات الموروثة عن البلاد الفينيقية بحكم شرقية المهد الذي انحدرت منه، والتأثيرات التي اكتسبتها من الثقافات المجاورة لينصهر كلّ ذلك في ثقافة أثّرتْ في تاريخ المتوسّط وأثرته، فابتعدنا بذلك عن صورة قرطاج المتسلّطة والتي لم يكن يربطها بوسطها الإفريقي سوى الضريبة التي كانت تستخلصها عنوة من السكان الأصليين لنتحدث عن تلاقح وتأثيرات متبادلة ساعدت الحفريات المنجزة في الشمال الغربي من البلاد التونسية في الكشف عن بعض مظاهرها.

لكل هذه الأسباب أردنا لمؤلفنا هذا أن يكون مؤلفا وافيا قدر الإمكان قريب التناول يسهل استيعابه يجمع بين الاعتماد على أحدث المراجع الأجنبية ودقة المادة محاولين تتبع آخر ما انتهى إليه البحث العلمي في تاريخ هذه الحضارة ولتيسير استغلال هذا المرجع بدا من الصائب تقسيم هذا المجهود على جزئين.

– جزء أوّل : يجمع بين فصوله هاجس محاولة كتابة تاريخ قرطاج الداخلي، لكننا ارتأينا ان لا سبيل لذلك دون التمهيد بجانبين اثنين، يسعى الأوّل لتبصير القارئ بطبيعة المصادر المعتمدة في كتابة تاريخ قرطاج عامة حتى يفهم أنه بالرغم من التقدم الحاصل في هذا الاختصاص تظل بعض الجوانب مجهولة تماما أو تكاد بحكم فقر المادة المصدرية التي بحوزتنا. ولذلك تتضارب الآراء وتتعدد الفرضيات في شأن نفس النقطة.

آمنا أيضا وأسوة بالعديد ممن تقدمونا، بأن لا مجال لفهم حضارة قرطاج ما لم نعرض في فصل مستقل للتوسعات الفينيقية في غرب المتوسط لما سيكون لذلك من انعكاسات على تتبع تطور الأحداث في مرحلة لاحقة (بروز قرطاج في الفضاء المتوسّطي وتزعمها للمستعمرات الفينيقية في الجزء الغربي من المتوسط والصراع مع الإغريق...) ثمّ أفردنا بعد ذلك ثلاثة فصول لتناول:

– تأسيس قرطاج وفيه سعينا إلى الإلمام بمختلف جوانب هذا الموضوع ونعني بذلك المصادر الأدبية وقد وقع الاهتمام بها من زاويتين اثنتين: زاوية أولى تسعى لقراءة الأسطورة الواردة لدى البعض من مصادرنا قراءة نقدية في علاقة مع الذهنية التي ابتدعتها معتمدين في ذلك أحدث ما كتب في هذا الشأن، وزاوية ثانية وترتبط بشكل وثيق بالجانب الثاني والمتعلق بأقدم ما عثر عليه التنقيب الأثري وقد قصدنا طبعا قضية تاريخ عملية التأسيس نفسها.

– الإطار الحضري هو الباب الرابع من هذا الجزء. وقد سعينا فيه للاستفادة بالدرجة الأولى من النتائج التي توصلت إليها مختلف البعثات المشاركة في الحملة العالمية لانقاذ موقع قرطاج، وهي إضافة تشكل بإجماع كلّ الدراسات منعرجا حاسما في تاريخ الدراسات البونية، ذلك أنّه أمكن اليوم رصد تطوّر التمدين على أرض العاصمة القرطاجية على امتداد الفترة الممتدة من أواسط القرن الثامن وربما قبل ذلك بقليل حتى تاريخ تحطيم المدينة. وتوضّحت بالتالي الرؤية بالنسبة لاستفهامات كنّا لا نملك إجابات جازمة في شأنها، كمسألة تحديد موضع المدينة العتيقة والموانئ وغيرها. وبسبب غزارة ما نشر حول هذا الجانب على امتداد العشرين سنة الأخيرة، لم يمكن من همّنا سرد الحقائق العلمية في صورة نتائج مجردة مبتورة، ولكنّنا حاولنا دعم المعلومات بمجموعة من التصميمات

استقيناها خاصة من أعمال من تولوا القيام بهذه الحفريات وذلك بهدف تقديم رؤية تزاوج بين التبسيط والدقّة.

– كما سعينا من خلال الباب المخصص لدراسة تاريخ المؤسسات القرطاجية لتقديم عمل يلقي مزيدا من الأضواء على هذا الجانب من حضارة البونيين، وهو جانب حظي للتذكير بإعجاب عديد الكُتّاب القدامى واعتبر بالتالي من أبرز الدعائم المؤسّسة لقوة قرطاج محاولين استثمار مختلف الإشارات الواردة في المصادر الأدبية والإضافات التي تحقّقت بفضل النصوص النقائشية، ذلك أنّه تسنّى لنا الوقوف بحكم تجربتنا المتواضعة على ما يعترض الدّارس عامّة والطالب خاصّة من عقبات في الفهم عملنا قدر جهدنا على إزالتها وهي عقبات ترجع إلى افتقاد المادة المصدرية للدقّة. وهو ما أثّر سلبا على الدراسات المحدثة فتضاربت الرؤى وتعددت الفرضيات وعسر نتيجة كلّ ذلك الإلمام الصحيح بهذا الجانب من الحضارة القرطاجية.

– لم تشكّل ندرة المصادر الصعوبة الوحيدة التي واجهناها عند مقاربتنا للباب المخصص لدراسة إشكالية علاقة قرطاج بمجالها الإفريقي، إذ اصطدمنا بالإضافة إلى ذلك بسلسلة من الأحكام المسبقة ذاعت طويلا عند التعرض لطبيعة الصلات بين قرطاج والسكان الأصليين، إذ تعوّدت جلّ الدراسات المعاصرةأن تقدّم لنا البونيين بصورة "المستغلّين العاملين على استنزاف العنصر المحلّي" ولكن قراءة متمعّنة في تقارير الحفريات الأخيرة دفعتنا لمراجعة هذه الأحكام وحثّتنا بالتّالي على تناول هذه المسألة من منظور مغاير يسعى إلى أن يأخذ بعين الاعتبار التأثيرات الحضارية دون أن يعني ذلك بالضرورة إنكارا لبقية الجوانب الأخرى من هذه العلاقة.

– بالنسبة للفصل السابع والمخصص لدراسة المجتمع والإقتصاد القرطاجيين، وجب التأكيد على أن إلمامنا بأبرز سمات هذا الجانب ظلّ محدودا وذلك على امتداد فترة طويلة بحكم فقر المادّة المصدرية الأدبية

من جهة والإنعكاسات السلبية للحفريات الأولى المنجزة على أرض العاصمة البونية من جهة ثانية. غير أنّ الفترة الأخيرة طبعت بتزايد عدد اللقى وخاصة الفخارية منها في مواقع عديدة من الإمبراطورية القرطاجية وخارجها، وهو ما سمح للدارسين بتبيّن وجود خطوط مبادلات هامة تربط قرطاج بمختلف هذه المناطق وتوضّحت رؤيتنا نسبيا لجوانب من التاريخ الإقتصادي لهذه الحضارة خاصة وأنّ مصادرنا تجمع على القول بأنّ التجارة مثّلت عمدة الإقتصاد البوني.

أمّا بالنسبة للنشاط الفلاحي فقد مثّلت المعلومات الواردة لدى كلّ من ديودوروس الصقلّي وبوليبيوس عند تعرّضهما لحملتي طاغية سرقوسة آغاتوكلاس والقنصل الرومانى ريجولوس على إفريقيا أبرز ما إعتمدناه في صياغة هذا الفصل. وبديهيّ أن نفرد حيّزا خاصاً بماجون الذي لقّب "بأب علم الزراعة" فقد كانت موسوعته الفلاحيّة من أبرز غنائم الحرب التي انتقاها الرّومان وقاموا بترجمتها إلى اللاّتينيّة سنة سقوط قرطاج.

يصطدم المهتم بتاريخ المجتمع القرطاجي مرّة أخرى بفقر مصادرنا، وذلك على نقيض بعض الحضارات الأخرى، كالحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية. غير أنّ الجهود التي بذلها الباحثون المعاصرون مؤخرا لاستنطاق مختلف أنواع المصادر، وخاصة النقائشية منها، سمحت بتوسيع دائرة معارفنا حول بعض الفئات الإجتماعية التي لم تستقطب اهتمام الكتاب الكلاسيكيين كالعبيد والأجانب القاطنين بقرطاج وغيرهم وهو ما عملنا قدر جهدنا على إفادة القارئ به.

– أخيرا وعلى امتداد الفصل الثامن من هذا الجزء، سعينا إلى تسليط بعض الأضواء على الحياة الدينية في قرطاج متبعين دوما نفس التمشي، إذ عملنا في البداية على إبراز الصعوبات التي تواجه المهتمّ بهذا الميدان والمتأتية أساسا من افتقارنا لمصادر أدبية بونية مباشرة من شأنها إضاءة هذا الجانب من تاريخ هذه الحضارة.

من هذا المنطلق وبحكم لجوء المختصين إلى المصادر الإغريقية والرّومانية، طُبعت عديد الدراسات المعاصرة بنوع من النّزوع نحو إسقاط واقع حضارات غربية على واقع الحضارة البونية متناسية أنّ "النزعة المحافظة" لدى القرطاجيين إنّما تتجلّى بالدرجة الأولى من خلال تمسّكهم على، ما نرجّح، بمعتقداتهم ذات الجذور الشرقية.

بعد هذه التوطئة المنهجية عملنا على مدّ القارئ بآخر ما توصّل إليه المؤرّخون الموضوعيون بشأن أشهر آلهة قرطاج محجمين قدر الإمكان على تقديم تأويلات مجازفة مثيرين في الآن نفسه قضية تحتلّ اليوم حيّزا بارزا في الدراسات البونية ولقد عنينا بالتّأكيد مسألة "القرابين البشرية"، فيما خصّصنا الصفحات الأخيرة من هذا الفصل لدراسة القرار المتعلق بإدماج الإلهتين دميتار وكوري داخل مجمع الآلهة القرطاجية لما لهذا الإجراء المتفرّد من أهمية يستمدّها بالأساس من طابعه الاستثنائي.

– جزء ثان: سنسعى من خلاله لدراسة علاقات قرطاج ببقية القوى المتوسطية. فبحكم غزارة المادّة الأدبية والاضافات التي تقدّمها المصادر الأثرية، أيقنّا أن المطروح على مؤلفنا هذا هو تقديم قراءة نقدية لهذه المصادر عامة ومصادر التاريخ العسكري بالدرجة الأولى لأنّها كيّفت بشكل لافت للانتباه الكثير من القراءات المعاصرة بشكل يختزل العلاقات بين قرطاج من جهة والاغريق والرومان من جهة أخرى على شاكلة سرد لتاريخ المواجهات العسكرية لذلك تطغى على مؤلفات الكتاب القدامى، وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الدراسات الحديثة الأحكام القيمية على غرار ما يتضح من محاولة تحميل قرطاج دائما المسؤولية في اندلاع الصراعات فتبدو بالضرورة بمظهر القوة المعادية الناكثة للمعاهدات.

من هذا المنطلق يتعين من وجهة نظرنا تناول المسألة من زاوية تأخذ بعين الاعتبار التطور التاريخي لمختلف الأطراف الفاعلة في تاريخ المتوسط الغربي وهو ما سمح بتبيّن أوجه أخرى للعلاقات بين هذه القوى

وهو ما سنسعى لإبرازه من خلال إفرادنا الفصل الأوّل من الجـزء الثـاني لدراسة أوجه التعايش والصراع بين القرطاجيين والإغريق والتي تزامنـت مع حصول تقارب واضح بين قرطاج وروما امتدّ من أواخر القرن السادس حتى بداية القرن الثالث كما تعكس ذلك بجلاء المعـاهدات المبرمـة بيـن الجانبين والموجهة في كثير من الأحيان ضد الإغريق.

غير أن تراجع هؤلاء سيعطي منعرجا جديدا للروابط بين الطرفيـن وهي روابط تطورت تدريجيا نحو ما تطلق عليه مصادرنا تسمية "الحـروب البونية" وهي مواجهات طبعت تاريخ المتوسط وسمحت فـي الآن نفسـه بإلقاء مزيد من الأضواء على أطراف أخرى كانت حتى هذا التاريخ إلى حدّ ما خارج دائرة الضوء نذكر من بينها الايبيريين والغـاليين والنوميديين الذين أسّسوا لكيان جديد ورث جزءا من مجال كـان يقـع تحـت التـأثير القرطاجي، فأصبحت نوميديا بذلك طرفا فاعلا في تاريخ المتوسط وهو مـا وفّر لروما مبرّرا استراتيجيا للتدخل مجدّدا في شمال إفريقيا في إطار مـا يصطلح على تسميته بالحرب البونية الثالثة. وبالرغم من سـقوطها ظـل تأثير قرطاج قائما بل انه امتدّ إلى عمق العـهد الإمـبراطوري الرومـاني المتقدّم.

لكل هذه الاعتبارات ارتأينا للجزء الثاني من هذا المؤلـف تخطيطـا يعتمد المحاور الكبرى التالية:

I – قرطاج والاغريق بين الصراع والتعايش

II – العلاقات القرطاجية – الرومانية قبل اندلاع الحرب البونيـة الأولى.

III – المواجهة الأولى بين روما وقرطاج: الأطوار والنتائج.

IV – مرحلة ما بين الحربين وأسباب "حرب حنبعل".

V – الحرب البونية الثانية أو "حرب حنبعل".

VI – روما. قرطاج. نوميديا 201 – 146 ق.م.

VII – الحضارة البونية الجديدة وامتداد التأثيرات القرطاجية بعد 146 ق.م.

هي ذي الهواجس التي قادتنا لوضع هذا الكتاب والأهداف التي سعينا لبلوغها، لكنّ لابد أن نشير بوضوح أنّنا لا نزعم أنّنا أسّسنا لتصوّر جديد مغاير جذريا لما نشر حتى الآن ولكنّنا نحسب أنّنا رسمنا من خلال هذه الصفحات خطة غايتها الأساسية التزاوج بين العلم والدقّة من جهة والتبسيط من جهة ثانية. وتوخينا لتحقيق ذلك قدر جهدنا الموضوعية والأمانة العلمية ولا يتسنّى لعمل مهما كانت طبيعته أن يبلغ الكمال لذلك نعتقد أنّ في عملنا ما يتطلّب الاستدراك والتنقيح ونحن ننتظر أن نتلقى من ملاحظات النقّاد ما ننتفع به في تقويم خطّتنا ومزيد الإلمام بتاريخ هذه الحضارة.

الفصل الأوّل

مصادر تاريخ قرطاج*

تتّفق مقدّمات الدّراسات المعاصرة لتاريخ قرطاج حول إشكاليّة المصادر المباشرة لدراسة مختلف أوجه الحضارة البونيّة. فلئن أقحم الفينيقيون غرب المتوسّط في دائرة الحضارات التاريخيّة بإدخالهم الكتابة إلى هذه المنطقة فإنّ دراسة تاريخ قرطاج من خلال المصادر الأدبية تقتصر أو تكاد على المصادر غير المباشرة وتحديدا الإغريقيّة واللاّتينيّة. وهو ما يمثّل في حدّ ذاته مفارقة يمكن أن تفضي إلى التساؤل حول "إمكانيّة كتابة تاريخ قرطاج" أو أن تذكي التّصورات الرّوائية والأدبيّة بشأن حضارة طبعت تاريخ المتوسّط القديم وبقيت معالم ذاكرتها حاضرة رغم احتراق مكتبات عاصمتها وإتلاف مدوّناتها خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار الامتدادات اللّغويّة والثقافيّة البونيّة في أواخر الفترة الرّومانيّة وإقرار القديس أوغسطينوس بأنّ "المؤلّفات البونيّة كانت تنطوي على أمور جيّدة ومفعمة بالحكمة".

إنّ التأكيد على طبيعة المصادر المعتمدة وتوزّعها الكمّي والنّوعي والمحدّدات الظرفيّة لتناولها لتاريخ قرطاج يساعد على تبين حدود التأويل والاستنتاج في الاعتماد عليها لا سيما إذا تعلّق الأمر بمصادر غير مباشرة. لكن قبل البحث في خصائصها يجدر بنا التساؤل عمّا بقي من الكتابات القرطاجيّة المباشرة.

---

* نودّ لفت انتباه القارئ إلى أننا سعينا إلى الالتزام بنقل المقابل العربيّ لأسماء الأعلام والمواقع طبقا لنطقها في لغتها الأصلية مع مراعاة ما شاع منها في المصادر العربية (أرسطو، هيرودوت، قرطاج، المنكب Almunecar...). والحرص على تجنّب ثقل بعضها على اللسان العربي عند الاقتضاء (كرنليوس نيبوس عوضا عن قرنليوس نيبوس وسيرتا عوضا عن قيرطا...).

بقيت بعض النصوص القرطاجيّة – البونية في صيغة ترجمات إغريقيّة ولاتينيّة فإلى أيّ مدى احتفظت هذه الترجمات بمحتوى النص الأصلي وما هو هامش تأويله باعتباره نصّا "مباشرا"؟ وتمثّل النّقائش البونيّة مقابل ذلك مصادر مباشرة ويتحدّد مدى الاعتماد عليها حسب المحاور التي تتناولها كما أنّ النقائش البونيّة الحديثة والنّقائش اللّوبيّة – البونيّة – أي المزدوجة النّصّ – يمكن أن تدرج في إطار مقاربة مدى امتداد تأثير الحضارة البونيّة إثر سقوط قرطاج.

أمّا المعطيات الأثريّة، سواء منها المعالم الحضريّة أو المقابر ومحتوياتها أو الخزف والمنتجات الفنيّة ذات الأغراض المختلفة، فهي تمثّل مصدرا رئيسيا لصياغة تصوّر متكامل عن تاريخ قرطاج، فهي أساسيّة لملء الفراغ النّاتج عن نقص في المصادر المكتوبة المباشرة أو محدوديّتها أو غيابها كليّا، وهو الحال إلى حدّ ما بالنسبة إلى الحضارة البونيّة، لذا فإنّ الحفريات الأثريّة في المجالات الحضريّة والمسح الأثري للمجال الرّيفي، يمثّلان السّبيل الأمثل لتعميق المعرفة بخصائص هذه الحضارة وتاريخها. وعموما فإنّ الاستنتاجات المتكاملة هي تلك التي تعتمد في الآن نفسه على المادّة الأدبيّة – التاريخيّة والنّقائش وخلاصة البحث الأثري.

I – المصادر الأدبيّة

ينطبق اصطلاح المصادر الأدبيّة – التاريخيّة على الوثائق المكتوبة أي المدوّنة باختلاف محاورها وصيغها، ولعلّ محتوى المصادر الأدبيّة يعكس نوعا من التعميم الذي يُفَسَّرُ بسياق الكتابة ذات التّوجّه الشمولىّ أو الموسوعيّ للمؤلّفات القديمة التي تختلف عن التّخصّص في التاريخ الاقتصادي أو السّياسي والاجتماعي بمفهومه المعاصر علاوة على إمكانيات الجمع بين المعلومات الجغرافيّة والاثنوغرافيا والتاريخ في نفس الأثر. لذا فإنّنا نجد المعطيات التاريخيّة التي تعني الحضارة القرطاجيّة والبونيّة موزّعة على مصادر إغريقيّة

ولاتينيّة ذات أغراض متنوّعة تشمل التاريخ السّياسي والعسكري والتراجم والجغرافيا والدراسة المقارنة للمؤسّسات والنّظم السّياسية، علاوة على ما تبقّى من المقتطفات المأخوذة عن مصادر فقدت أهمّ أجزائها.

لكنّ قبل استعراض هذه المصادر يجدر بنا التساؤل عن سبب افتقارنا للمصادر القرطاجيّة الأدبيّة والتّاريخيّة المباشرة وعمّا تبقّى منها.

1 – ماذا بقي من مكتبات قرطاج ومن الأدب البوني؟

يطغى على هذه المسألة الافتراض، لكن تتوفر لدينا مبررات البحث فيها اعتبارا لما نعرفه عن حضارة قرطاج وإشعاعها في شمال إفريقيا وإسبانيا وصقليّة وسردينيا وغرب المتوسّط عموما. فلا يمكن أن نشكّ في وجود أدب بونيّ ثريّ وممّا يدعم هذا الافتراض الإحالات المختلفة في المصادر اللاّتينيّة على كتب التاريخ أو الكتب البونيّة وقد ذُكرت بصيغ: *punica historia, historia poenorum, punici libri*. وتدلّنا رواية بلينيوس الأكبر في مؤلّفه "التاريخ الطبيعي" عن مآل مكتبات قرطاج حيث يذكر أنّ "مجلس شيوخ [روما] أهدى بعد السّيطرة على قرطاج مكتباتها للملوك الأفارقة [النوميديين] لكنّه قرّر بصفة استثنائيّة [الاحتفاظ] بكتب ماجون الثمانية والعشرين وترجمتها إلى اللاّتينيّة".

ولئن فقد نصّ الترجمة اللاتينيّة للموسوعة الفلاحيّة لعالم الزّراعة القرطاجي ماجون، وقد أنجزت سنة 146 ق.م. تماما مثل الترجمة الإغريقيّة التي تمّت سنة 88 ق.م، فإنّنا نجد إحالات صريحة على هذا الأثر لدى بلينيوس الأكبر وعلماء الزّراعة اللاّتينيين خاصّة تارنتيوس وارّو (116–27 ق.م) (Terentius Varro) وموديراتوس كولوملاّ (القرن I م) (L.J.Moderatus Columella) والملاحظ أنّ كولوملاّ يذكر ماجون ويعتمده ويشير أيضا إلى كتب الفلاحة المدوّنة باللّغة البونيّة لمؤلّفين أفارقة من ضمنهم عبد ملقرت، لكنّنا لا نملك تنصيصا على هذه الكتابات ومدى اعتمادها من قبل اللاحقين. وهذا هو

الحال أيضا بالنسبة إلى المؤلّفات البونيّة التي احتفظ بها الملوك النّوميديون. فقد وظّفت في كتابات هيمبسال (Hiempsal) وهو اسم لملكين نوميديين هيمبسال ابن مكيبسا (118-116 ق.م.) وهيمبسال ابن قاودا (80-60 ق.م) واختلفت الدّراسات المعاصرة في تحديد من ذَكَر المؤرّخ اللاّتيني سلّوستيوس منهما. وقد تولّى سلّوستيوس إدارة مقاطعة إفريقيا الجديدة (Africa Nova) التي امتدّت على الجزء الشرقي من نوميديا، خلال السّنة الأولى من إحداثها على يد يوليوس قيصر أي سنة (46-45 ق.م) وألّف تاريخ "حرب يوغرطة" ويقول ذاكرا مصادره: "سألخّص ما ترجم من كتب بونيّة منسوبة للملك هيمبسال"، ونظرا إلى أهميّة اللّغة البونيّة في الأوساط النّوميديّة فيجب ألاّ نستبعد توخي هيمبسال التدوين باللّغة البونيّة علاوة على فرضيّة امتلاكه لكتابات قرطاجيين.

أمّا يوبا الثاني (Juba II) الذي نصّبه أغسطس حاكما لموريطانيا (25ق.م - 23م) - وهو ابن يوبا الأوّل حاكم نوميديا الذي كان ضمن خصوم يوليوس قيصر سنة 46 ق.م - فيعتبره بلوتارخوس (Plutarque) "أفضل مؤرّخ من بين الملوك" ويرى بلينيوس الأكبر أنّه "عرف بعلمه أكثر ممّا عرف بملكه" وقد كتب بالإغريقية ولئن فقدت آثاره العديدة، فقد ذكرها بعض المؤرّخين القدامى ومن بين هؤلاء أميانوس مركلينوس (Ammien Marcellin) (حوالي 330-400م) وهو أصيل القسم الشرقيّ من الأمبراطورية ولد بأنطاكيا (Antioche) وكتب تاريخا باللاتينية وقد أبرز أنّ الملك يوبا الثاني "استعمل كُتبا بُونيّة عند دراسته لمنابع نهر النّيل".

وهكذا فإنّ الشّهادات تدعّم وجود أدب بوني متنوّع الاهتمامات ولكنّها لا تسمح للمؤرخ بتجاوز حدود هذا الاستنتاج إلاّ عند توفّر إحالات صريحة لمؤلّفين قرطاجيين كما هو الحال بالنّسبة إلى موسوعة ماجون الفلاحيّة.

ونمتلك إضافة إلى المصادر المشار إليها، نصيّن بونيين بقيا في صيغة ترجمة إغريقيّة وهما نص رحلة حنّون الماجوني ومعاهدة حنّبعل البرقي وفليبوس الخامس المقدوني المُبرمة سنة 215 ق.م في غضون الحرب الثانية بين

روما وقرطاج. ومن المرجّح أن تكون هذه المعاهدة قد صيغت في نصّ بوني قبل أن تترجم إلى الإغريقية، وقد وصلتنا من خلال رواية بوليبيوس .(VII, 9,1-9)

أمّا رحلة حنّون البحريّة فهي مطابقة في أغلب أجزائها لأدب الرّحلة ممّا أثار جدلا حول هامش الاقتباس أو الترجمة في النّص الإغريقي ومدى مطابقته للأصل البوني ومن المرجّح أن تكون العناصر الرّئيسية للترجمة وخاصة الجزء الأوّل من نصّ الرّحلة مطابقة للنّقيشة البونيّة التي خلّدتها ووضعت في معبد بعل حمّون (كرنوس Cronos). وحفظ نصّ الرحلة في مخطوط من القرن التاسع م. يعرف بمخطوط هايدلبرغ (Manuscrit de Hildelberg, Palatinus: 398, Fol.55r-56r) وذلك تحت عنوان "رحلة حنّون، ملك القرطاجيين على سواحل لوبيا في ما وراء أعمدة هرقل". ونشر نصّ الرحلة في طبعة معاصرة لأوّل مرّة سنة 1533. وكان موضوع بحث أنجزه الرحّالة الفرنسي ل.أ.دي بوقنفيل (Louis Antoine DE BOUGAINVILLE) سنة 1759 بعنوان "حول اكتشافات ومستوطنات حنون أميرال قرطاج على سواحل افريقيا".

وتسمح لنا بعض المعطيات المصدريّة بمقاربة الأوضاع المعرفيّة والفكريّة في قرطاج والتساؤل عن مدى أهميّة التأثيرات الإغريقيّة ـ الهلنستيّة وعن إمكانية وجود مؤلّفات فلسفيّة قرطاجيّة؟.

يذكر إمبليخوس (Jambilique) (285–330م) وهو من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة، المدرسة الفيثاغورية بقرطاج والفلاسفة الأربعة الذين تداولوا على إدارتها وهم ملتيداس (Miltiade) وأنثان (Anthen) وهوديوس (Hodios) وليكرتوس (Léocrite) وبناء على ما يقترحه ج.ش.بيكار (G.Ch. Picard) ففي صورة ما إذا كان آخرهم معاصرا لسقوط المدينة، فإنّ وجود هذه المدرسة بقرطاج يمكن أن يؤرّخ بأواخر القرن الثالث ق.م، أي بمرحلة تأكّد التأثيرات الهيلينستية في قرطاج، علما بأن مدارس الفلسفة

الفيثاغورية كانت مؤثرة في اليونان الكبرى سواء بجنوب إيطاليا أو بصقلية.

ويستند البحث في هذه المسألة إلى الإلمام باللّغة الإغريقيّة في الأوساط القرطاجيّة وإلى وجود فلاسفة ومعلّمين إغريق بالعاصمة البونيّة. وقد أبرزت تراجم حنبعل البرقي دور سوسيلوس الإسبرطي (Sosylos) وسيلنوس الصقلي (Silénos) في تربيته وتلقينه الأدب الإغريقي، وهما من بين الإغريق الذين لازموا القائد القرطاجي أثناء الحرب الثانية ضدّ روما وأرّخوا لحملاته.

وتمثّل سيرة عزربعل أبرز أبعاد الحركيّة الفكريّة والتعليميّة بقرطاج فقد ذكره ديوجان اللآيرسي (Diogène Laerce) في حياة الفلاسفة مبرزا أنّه انتقل إلى أثينا سنة 163 ق.م. حيث دخل بعد ثلاث سنوات الأكاديمية الجديدة وتابع دروس قرنياس (213–129 ق.م) (Carnéade) الذي تولّى تكوينه وقام عزربعل بالتّعليق على أفكار معلّمه ودروسه في أربعين كتابا وأصبح سنة 127 ق.م. خليفته على رأس الأكاديمية الجديدة وعرف باسم اغريقي، كليتوماكوس (Clitomachos). ووجّه الفيلسوف القرطاجي خطاب مواساة لمواطنيه سنة 146 ق.م. لكنّه توجّه أيضا للرّومان حيث أهدى كتبا لقنصل سنة 149 ق.م. سنسورنوس (L.Censorinus) وللشاعر اللاّتيني قايوس لوكليوس (C.Lucilius) كما امتدح وحامل سفيبيو الإيميلي سنة 140 ق.م. وما يهمنا هو تعداد كتابات عزربعل – كليتوماكوس بالدرجة الأولى. أمّا عن موقفه من الرّومان فإنّه يؤكّد توجّها بدأ يسود في الأوساط الإغريقيّة، وقد عبّر عنه معاصره بوليبيوس الذي أصبح منظّرا ومدافعا عن القانون والنظام الرّومانيين.

وتواصل الاهتمام بكتابات عزربعل – كليتوماكوس فقد ذكره ماركوس توليوس قيقرو (M.T.Cicero) في الكتابين الثالث والخامس من المؤلّف الذي أنهاه سنة 44 ق.م. محاورات في توسكولوم (Tusculanes). ويفرد له مكانا

ضمن الفلاسفة الذين عاشوا في المنفى وأبرز هؤلاء في القائمة التي قدّمها هم أرسطو، ثيوفراست، زينون، كرنيداس، كليتوماكوس، فيلون وبناتيوس.

وهكذا فإنّ تنوّع المصادر والكتابات القرطاجيّة الذي نستنتجه من إحالات أو مجرد إشارات غير مباشرة تؤكّد الانطباع السائد حول فقدان رصيد هامّ من المصادر البونيّة المتنوّعة المحاور.

وقد وفرت الحفريات المنجزة بمنطقة قرطاج-درمش الأثرية 3247 قطعة فخّاريّة صغيرة الحجم ودائريّة الشكل يحمل كلّ منها ختما يُجسّم عناصر زينة أو آلهة مصريّة وفينيقيّة وبونيّة وتعتمد هذه الأختام الفخّاريّة في عمليّة تسفير وثائق الأرشيف والكتابات المدوّنة على ورق البردي وتوجد مجموعة أخرى من هذه الأختام الفخارية وهي محفوظة في متحف قرطاج مما يجعل عددها الجملي يتجاوز 3600 قطعة.

وإجمالا فإنّ كرنليوس نيبوس ينبّهنا مجدّدا إلى أهميّة الكتابات البونية المفقودة ففي خاتمة ترجمة حنّبعل (XXII, 13,2) يذكر ما يلي: "إنّ هذا الرّجل الذي تجاذبت نشاطه حروب هامة، وجد متّسعا من الوقت للاهتمام بالآداب، وترك لنا كتبا [رسائل؟] مؤلّفة باللّغة الاغريقية...":

"Atque hic tantus vir tantisque bellis districtus nonnihil temporis tribuit litteris. Namque aliquot eius libri sunt. Graeco sermone confecti. ."

لكن مهما كانت أهميّة هذه القرائن فإنّ محدوديّة المصادر المباشرة في كتابة تاريخ قرطاج تبقى قائمة الذّات وتحتّم اعتماد النّصوص الإغريقية اللاتينية.

1 – المصادر الإغريقيّة – اللاّتينيّة

يتمثّل القاسم المشترك بين هذه المصادر في الاهتمام بتاريخ قرطاج من حيث علاقته بروما أو بالأطراف الإغريقية خاصة في اليونان الكبرى،

وكذلك من منطلق المقارنة، فالتعرّض إلى الأوضاع الدّاخليّة في قرطاج يتمّ لمجرّد إبراز وتفسير علاقاتها مع الأطراف المشار إليها.

وعموما فإنّه من الصعب إصدار تقييم عام للمصادر الأدبيّة التي تظل متفاوتة في محتواها المعرفي في ما يتعلّق بالتاريخ العسكري والسّياسي وبعض مظاهر الحضارة البونيّة. وتتباين هذه المصادر أيضا باعتبار موقعها زمنيّا من الأحداث المدروسة وبناء على هذه العناصر التقييميّة يمكن إبداء جملة من الملاحظات تنطبق على مجمل المؤلّفات الإغريقيّة واللاّتينيّة المعتمدة في كتابة تاريخ قرطاج.

تمّ التعرّض لقرطاج باعتبارها طرفا عسكريا في مجابهة الإغريق في مرحلة أولى ثمّ الرومان في مرحلة ثانية. وانحصر اهتمام المؤرّخين في إبراز أسباب الحروب وملابساتها ونتائجها فوفّروا بشأنها معلومات شديدة التنوّع والثراء والتناسق وأبرز من أهتمّ بهذا الجانب بوليبيوس (Polybe) وديودوروس الصقلّي (Diodore de Sicile) وتيتوس ليويوس (Tite Live). وتتخلّل روايات هؤلاء لمراحل الصّراع العسكريّ معلومات هامّة تعني الجانبين السّياسي والاقتصادي كتلك التي أوردها بوليبيوس والمتعلّقة بالمؤسسات والنظام السياسي القرطاجي ووصف المشهد الزراعي للوطن القبلي على هامش استعراضه لحملة القائد الرّوماني ريجلوس على المجال القرطاجي أثناء الحرب الأولى. ونحن مدينون أيضا للمولفين الثلاثة المذكورين بمعرفة المعاهدات بين قرطاج وروما أو الوصف المماثل الذي قدمه ديودوروس الصقلّي عند تدوينه لحملة حاكم سرقوسة ـ آغاتوكلاس على نفس المنطقة – أي الوطن القبلي – في أواخر القرن الرابع ق.م. إضافة إلى وصف الظهير الزّراعي لقرطاج الذي قدّمه آبيانوس الاسكندري (Appien d'Alexandrie) عندما تناول حصار قرطاج أثناء الحرب الثالثة ضدّ روما. فمعلومات هذه المصادر لا تخلو إذن من الأهمية لكنّ هذه الملاحظة لا تغنينا عن بعض المآخذ المتعلّقة بالمنهجية مثل التقديرات

العددية المبالغ فيها أو طبيعة الأحكام التي تصدرهـــا فـــي تحديـــد أســـباب الحروب.

ويعبّر مؤلفو هذه المصادر عن وجهة النّظر الإغريقيـــة والرّومانيـــة التي تتعامل مع قرطاج كخصم سياسي وعسكري يتحمّل مســـؤولية خـــرق المعاهدات المبرمة ويوفّر مبرّرات النّزاعات العسكريّة. وقد تشـــبعت هـــذه المصادر بالأحكام القيميّة الأخلاقيّة التي تدخل في بـــاب الدّعايـــة المداوئـــة لقرطاج. ومن ذلك استعمال نعت "البوني" في بعض التراكيب مثـــل (*fides punica*) للتعبير عن انعدام الثقة وقد تمّ ترويج هذا التعبير من قبل كلّ مـــن الشاعر اللاّتيني إنيوس كوانتـــوس (Ennius Quintus) (239 – 169 ق.م) وفابيوس بيكتور(Quintus Fabius Pictor) الذي شارك في الحرب الثانيـــة ضدّ قرطاج وهو أوّل مؤلّف حوليات رومانيّة بالإغريقيّة ولئن لم يبق أثـــره فقد اعتمده المؤرّخون اللاّحقون الرّومان تماما مثل الإغريق الذيـــن كتبـــوا خلال المرحلة الإمبراطوريّة من وجهة نظر رومانية.

وهيّأت هذه النّزعة أيضا المجال لعديد الإسقاطات نتيجـــة المعرفـــة المحدودة بخصائص حضارة قرطاج. تفتقـــر هـــذه المصـــادر للبحـــث فـــي خصوصيات واقع قرطاج ومدى اختلافه عن كلّ من روما والمـــدن – الـــدول الإغريقيّة، فتسحب الاصطلاحات السّياسيّة والعسكريّة اللاّتينيّة والإغريقيّة الدّالـــة على الوظائف والمؤسّسات على نظيراتها في قرطاج رغم انعدام التّطابق بينـــهما أو وجود تشابه لا غير في أحيان أخرى.

ونجد في تقييم الدّيانة أو الحضـــــارة البونيّـــة محـــدّدات المركزيّـــة الحضاريّة وسحب أحكام أخلاقيّة سلبيّة لا تأخذ بالاختلاف، إذ بقيت قرطـــاج على هذا المستوى أقرب إلى أصولها الشرقيّة الفينيقيّة.

تمثل المصادر المعاصرة للأحداث التي تناولتها بـــالدرس اســـتثناء، فأغلب المؤلّفات التي تعنينا دوّنت إثر سقوط قرطاج واعتمد أصحابها علـــى

سابقيهم. وأقدم المؤلّفين الذين أشاروا إلى قرطاج أثناء القرنين الخامس والرابع ق.م. مثل هيرودوت ثمّ أرسطو اهتمّوا بجوانب محدّدة عسكريّة وسياسيّة وأولى الحوليات اللاّتينيّة التي تذكر قرطاج تعود إلى القرنين الثالث والثاني ق.م. ولم يمنع ذلك المؤرّخين اللاّحقين من تدوين حوليات ومؤلّفات جامعة تطرّقت إلى تأسيس قرطاج وإلى تاريخها منذ أواسط القرن السادس ق.م. حتّى سقوطها، فالنّقل والانتحال والاهتمام بمراحل سابقة كلّما توفرت إمكانيّة دراستها هو أحد أهمّ مميّزات الكتابة التاريخيّة إلى حدود العصر الحديث. وكثيرا ما يقترن ذلك بإدماج عناصر أسطورية وتاريخيّة بالنسبة إلى الفترات الغامضة وينطبق ذلك على تاريخ روما خلال المرحلة الملكية وأهمّ مراحل الجمهوريّة، لكنّنا نلاحظ تأثر مصادر المرحلة المتأخّرة التي دوّنت في ظروف الحروب بين قرطاج وروما. وخاصة إثر سقوط قرطاج وتأكّد مركزيّة روما في البحر المتوسّط - بمقتضيات الظرفيّة الجديدة وانسجام المؤرّخين الرّومان والأغريق معها فضلا عن منطلقات كتابة التاريخ "الوطني" الرّوماني خلال العهد الامبراطوري التي عمقت صعوبة النّقل عن المؤرّخين السّابقين دون مبالغة وتضخيم ومواقف مسبقة.

وتقتضي مجمل هذه الاعتبارات التوسّل بمنهج نقدي في التعامل مع مختلف المصادر المذكورة، وهي مصادر لا غنى عنها في كتابة تاريخ قرطاج أو ما يمكن كتابته حتى يكون أقرب للموضوعيّة. ولعلّ مراعاة بعض المصادر لضوابط منهجيّة يُيَسّرُ مهمّة الباحث في مقارنة منطلقات المؤرّخين القدامى ومدى تأثّرهم بعلاقات الصراع بين قرطاج وروما. فتاريخ بوليبيوس مثلا وهو أهمّ مصادرنا أقرب إلى المدرسة التاريخيّة الإغريقية الكلاسيكية ولمنهج توقيديداس (Thucydide) منه للحوليات والتاريخ الملحمي الرّوماني. كما تُقدّم قرطاج في العديد من المصادر الإغريقيّة كطرف قائم الذات في تاريخ المتوسّط القديم فلها المقوّمات السّياسية لأكثر النّماذج تقدّما. ونجد لدى مؤرّخين لاتينيين وأبرزهم كرنليوس نيبوس (Cornelius Nepos) تناولا

إيجابيا لتاريخ قرطاج وأعلامها السّياسيين لا أثر فيه للدعاية الرّومانية المناهضة لقرطاج. لذلك فإنّ المواقف التعميميّة من المصادر الأجنبية يمكن أن تنقلب إلى خطأ لابدّ من تفاديه للاستفادة والتقييم المنهجي لمجمل المصادر.

تتوزع الفصول والمقاطع والفقرات والإشارات الوجيزة التي تذكر قرطاج البونيّة على حوالي أربعين مصدرا وتمثّل دراسات المترجمين والمحقّقين لكلّ منها أهم منطلق لتقييمها، إضافة إلى الدّراسات التقييمية لمنهجية أبرز المؤرّخين وتبقى مراجعة ستيفان قزال (St.Gsell) للمصادر المذكورة على هامش دراسته "التاريخ القديم لشمال إفريقيا" أساسيّة سواء في استقراء المصادر وتحليلها أو في تبين المحاور التي تناولتها من تاريخ قرطاج والمجال البوني ونوميديا.

واعتبارا لاعتمادنا على مختلف المصادر التي تعني كلّ فصل من الفصول المدروسة وتقديمنا لها فإنّنا نقتصر هنا على ذكر أهمّ المؤلّفين وكتاباتهم بناء على تنوّع مادّتها وعمق تناولها لجوانب من تاريخ قرطاج.

- هيرودوت: (حوالي 484 – 420 ق.م) التاريخ

هو أصيل هلكرنسوس (Halicarnasse) في السّاحل الجنوبي الغربي لآسيا الصّغرى ورد كتابه "التاريخ" في تسعة أجزاء، خصص الأربعة الأولى منها للشعوب غير الإغريقيّة وتحديدا الفرس والشعوب التي ارتبطت في مرحلة ما بالإمبراطورية الفارسيّة التي نشأت مع قورش الأكبر (558 – 530) ق.م (Cyrus le Grand) وتطورت مع داريوس (Darius) وكسرى (Xerxes). وإذا استثنينا إشارات وجيزة إلى المجابهات الأولى بين القرطاجيين وإغريق صقلية، فإنّ أهمّ ما يعنينا لدى هيرودوت هو "النصوص المتعلّقة بشمال إفريقيا" الواردة في الكتاب الرّابع والتي قام س.قزال بدراستها ونشرها. ففي الكتاب المذكور تطرّق هيرودوت للحملات الفارسيّة على شرق لوبيا (Libye) في فترة داريوس، فقدم معلومات تهم

منطقة قورينية والاستيطان الإغريقي بها، ثمّ استعرض عن طريق الراوية خصائص المنطقة الواقعة غربا أي سرت الكبرى والصّغرى وظهيرها وذكر عددا من القبائل مبرزا نمط عيشها وتقاليدها كما تطرق إلى اللّوبيين بالقسم السّاحلي من البيزاكيوم (Byzacium) – أي منطقة الساحل – وجزيرتي جربة و قرقنة. وعموما فإنّ مصدرنا يسمح بمراجعة روايات أساسية لإحدى مناطق تأثير قرطاج خلال القرن الخامس ق.م. كما اهتمّ في الكتاب السابع من تاريخه بأولى المجابهات بين القرطاجيين وإغريق صقلية سنة 480 ق.م.

أمّا عن تقييم "تاريخ" هيرودوت فإنّه يمرّ حتما بتفسير الدّوافع التي حملت قيقرو (Cicero) ومعاصريه يضفون عليه لقب "أب التاريخ"؟ ويعود ذلك أساسا لانفراده في كتابة تاريخ الحروب الميديّة بمنهجية جديدة إلى حدّ ما في التحقيق والفهم ورصد أسباب الحدث وأبعاده والملاحظ أنّ المرادف الإغريقي لمؤلّف "التاريخ" (*Historia*) يعني "التحقيقات" المدوّنة.

ويقرّ الدارسون والمحققون لهيرودوت وأثره أنّه بقي قريبا من شعراء الملاحم والمؤلفين الإيونيين السّابقين – ونعرف منهم هيكاتيوس الميلي (Hécatée de Milet) – في إبراز التاريخ البطولي أو رصد المعارف الجغرافية لكنهم يتفقون في تثمين منهج هيرودوت في إبراز مصادر معلوماته، سواء تلك التي استقاها عن طريق المعاينة أو الرّواية كما يؤكّد ذلك في الكتاب الثاني المخصّص لوصف مصر: "استعرضت إلى هذا الحدّ ما علمته بالمعاينة وانقل الآن ما استمعت إليه من روايات الكهنة المصريين". وإذا اعتبرنا أهمية المادة المعرفية التي تولّى المؤلّف تجميعها فإنّنا نقدر بذلك حجم إضافات هيرودوت للكتابة التاريخية.

- أرسطو - (384 - 322 ق.م) - كتاب السياسة

إنّ ما يعنينا في ترجمة أرسطو ينحصر في مؤلّفاته السياسيّة وأهميّة معايشته لمختلف أنظمة الحكم، أي المدينة - الدّولة الدّيمقراطية في آخر مراحلها وأنظمة حكم الطّغاة (*La tyrannie*) ثم المركزيّة المقدونية النّاشئة وعلاقته الوطيدة بها ورسائله أو محتوى تعليمه للإسكندر المقدوني.

لكن علاوة على المعايشة والارتباط العملي بهذه الأنظمة فإنّ فلسفة أرسطو السّياسية ودراسته للدساتير وأنظمة الحكم اقترنت بدراسة شاملة "للأنظمة الدّستوريّة" التي تحتوي كما يذكر المؤرخون والمحقّقون على 158 دستورا للمدن - الدول الإغريقيّة لم يبق لنا منها سوى "دستور أثينا" الذي أكتشف مخطوطه في نسخة ضمن برديات بالفيوم سنة 1890، ممّا أكّد الحيّز الذي خصّصه أرسطو لدراسة أنظمة الحكم والمعروف عبر مؤلّف "السّياسة" وهو دراسة مقارنة للنّظم السّياسية في ثمانية كتب تهمّ المدن - الدّول الإغريقية، لكنه أقحم في مقارنته قرطاج وأبرز خصائص مؤسّساتها ونظام الحكم بها في سياق المقارنة بين إسبرطة وكريت من جهة والعاصمة البونيّة من جهة ثانية فقد اعتبرها تأخذ بنظام المدينة - الدّولة ومهما كانت أبعاد المفاضلة وتقييم أرسطو لمؤسسات قرطاج ودستورها فإنّ هذه المقارنة تعدّ استثناء في المرجعية القيمية الإغريقيّة التي تفصل بين الهليني وغير الهليني أو "البربري" بمعنى الخارج عن الحيز الثقافي واللّغوي لبلاد اليونان.

- بوليبيوس (Polybe) (حوالي 200- 120 ق.م.) التاريخ

ينتمي إلى وسط أرستقراطي من أركاديا (Arcadie) بالبلبنيزوس التي انضمّت للكنفدراليّة الآخائية (Confédération achéenne) وهي آخر أشكال التحالف الإغريقي التي جابهت التوسع الرّوماني. وكان لعائلته مهامّ سياسيّة وعسكريّة في الكنفدراليّة وتولى بوليبيوس نفسه منصب قائد الخيّالة

لكن هزيمة بيدنا (Pydna) سنة 168 ق.م.، التي تمثل نهاية ما يعرف بالحرب المقدونيّة الثالثة، أدت إلى سقوط مقدونيا فنقل ألف أسير إغريقي إلى روما حسب ما تذكر المصادر، وكان بوليبيوس من ضمنهم. وقد أسعفه الارتباط بعائلة سقيبيو (Les Scipions) ذات النفوذ السياسي والعسكري حيث تولّى تكوين سقيبيو الإميلي (Scipion Emilien) الذي أصبح بمثابة حاميه واتخذه مستشارا. إلاّ أنّ اهتمامه انصبّ على كتابة تاريخ روما ولختار لذلك مرحلة ما بين 220 و168 ق.م.، أي المرحلة الممتدّة من الحرب الثانية بين روما وقرطاج وحرب مقدونيا الثالثة، التي تمكنت إثرها روما من تأكيد هيمنتها على أهمّ قوى البحر المتوسّط. ويعلن المؤلّف غرض بحثه وهو دراسة الطريقة والنظام السّياسي اللذين مكّنا روما من إحراز هذا التّفوّق.

وقد تجاوز بوليبيوس المرحلة الزّمنيّة التي ضبطها في المقدّمة، فتطرّق إلى المراحل الأولى من تاريخ الجمهورية الرّومانيّة، ممّا يفسّر استعراضه لعلاقتها بقرطاج والمعاهدات ثمّ للحرب الأولى بينهما. كما اهتمّ بالحرب الثالثة وسقوط قرطاج خاصّة وأنّه عاين حصارها في سنته الأخيرة حيث كان برفقة القنصل سقيبيو الإميلي قائد القوات الرّومانية. وإلى جانب المعاينة ونقل الشهادات الشفويّة، يعلن المؤلّف اطّلاعه على الوثائق مثل نصوص المعاهدات أو نقيشة معبد هيرا بكروتونا (Crotone) جنوب إيطاليا والتي أمر حنبعل بصياغتها لتدوين حملات المرحلة الإيطالية من حربه ضدّ روما. كما اعتمد على مؤلّفات سابقيه مثل فابيوس بيكتور (Fabius Pictor)، وهو روماني ألّف حوليات في التاريخ الرّوماني بالإغريقيّة واللاّتينيّة خلال النّصف الثاني من القرن الثالث ق.م وهو بذلك من أهمّ مؤلّفي المصادر القريبة من أحداث الحرب الأولى بين قرطاج وروما، تماما مثل فيلينوس الأقرجنتي (Philinos d'Agrigente) وهو مؤرّخ إغريقي من صقليّة. وخلافا لسابقه فإنّ هذا الأخير أقرب إلى وجهة النظر القرطاجية ويرفض بوليبيوس لنفس السبب المشار إليه

كتابات سوسيلوس الإسبرطي وسيلنوس الصقلّي. لكنّنا لا نجزم بعدم اعتماده على هذين المؤلفين لمجرّد تباينه مع قراءتهما لأحداث حرب حنبعل لا سيما أنّنا نلاحظ صدى سيلينوس لدى مؤلّفي حوليات لاحقين.

ويمكن أن نتفهّم هذا التّعامل الانتقائي مع المصادر فبوليبيوس، أسير روما، اهتمّ بالبحث في أسباب نجاحها المطلق ولا يخفي انبهاره بنظام حكمها ومؤسّساتها، وهي في نظره أساس تبيّن أوضاع الدّول. على ان عمل بوليبيوس موجّه إلى الإغريق والنخبة الرّومانية التي تتقن الإغريقيّة فهو أبعد من أن يكون تاريخا ملحميا رومانيا بل يعتبر المؤلّف تاريخه "عمليّا" يستند إلى البحث في أسباب الأحداث إذ "لا يطرأ شيء ممكن أو غير ممكن دون سبب". ويميّز بين الأسباب الحقيقية أو العميقة (*aitia*) والمبرّرات أو الأسباب المباشرة (*prophaseis*) ثمّ بدايات الأحداث (*archai*). ولعلّنا نجد في الجزء الأوّل من تاريخ بوليبيوس تفسيرا لتوسيع المرحلة التي اعتزم دراستها حيث يستبعد "إمكانيّة الوصول لتصوّر شامل ودقيق عبر تواريخ جزئية... فالتاريخ مفيد وبنّاء بقدر ما يمكّننا من الإلمام بالأحداث في ترابطها وتشابهها واختلافها". وهكذا يبدو بوليبيوس الوريث الحقيقي لتوقيديداس (حوالي 460 – 400 ق.م) مؤلّف تاريخ "حرب البلبنيزوس" بين أثينا وإسبرطة التي امتدت من 431 إلى 404 ق.م. وعايش المؤلف الحدث وكانت له مشاركة محدودة فيه. ويعلن في مستهل كتابه تباينه مع كتابات سابقيه وأبرزهم هيرودوت: "لن نولي اهتماما بالشعراء الذين ضخّموا أحداث الأزمنة البعيدة لأغراض فنية أو الخطباء الذين يَنشدون إمتاع سامعيهم أكثر من البحث عن الحقيقة في كتابتهم للتاريخ فالأحداث التي يتكلّمون عنها غير قابلة للتثبت". وانسجاما مع هذا التصور اختار مرحلة عايش أحداثها ونبّه إلى صعوبة البحث في الأزمنة العتيقة والمراحل الملحمية. وهو ما أشرنا إليه لدى بوليبيوس الذي سعي إلى ضبط حدود زمنية لبحثه مع التركيز على مرحلة تفوق روما على بقية قوى المتوسط

واستقصاء أسباب ذلك، معلنا أهمها أي دستور روما ونظامها السياسي. وهو لا يتباين في ذلك مع سلفه الذي احتل العامل السياسي العسكري في قراءته للأحداث طابعا محددا فهيمنة أثينا بعد الحروب الميدية هي مصدر قوتها وسبب ضعفها في نفس الوقت، فموارد إمبراطوريتها جعلت الديمقراطية ممكنة داخل المدينة – الدولة من جهة لكن خلقت لها أعداء داخل الإمبراطورية وخارجها من جهة ثانية.

وتناول بوليبيوس مرحلة تاريخية اقتضت اعتماد مصادر متنوعة منها كتابات سابقيه التي اهتمت بصقلية وغرب المتوسط. ويتضح تعامله الانتقائي مع هذه الكتابات بأن انفرد بموقف نقدي تجاه تاريخ تيمايوس الطاورميني (Timée de Taormine) الذي كتب في أواخر القرن الرّابع والنصف الأوّل من القرن الثالث ق.م. "تاريخ صقلية وغرب المتوسط منذ البدايات حتى الحرب الأولى بين قرطاج وروما"، وأولى اهتماما بعلاقات الإغريق مع مختلف شعوب المنطقة. وكان تيمايوس أوّل الإغريق الذين درسوا أصول روما وتطورها واعتمد مادة وثائقية متنوعة في حجم المرحلة التي أهتم بها. وتسمح المقتطفات المتبقية من تاريخه بتقدير مدى اعتماد اللاّحقين عليه. ولهذا السبب فإنّ أهم مآخذ المحققين التي توجه لبوليبيوس هو اعتماده لتاريخ تيمايوس لكنه يذكره في مواضع نقدية مثل سوء تقديره لبعض الأحداث أو محدودية معارفه الجغرافية.

وهكذا، نظرا إلى الأهميّة الكميّة للمعطيات المتعلّقة بقرطاج والاعتبارات المنهجيّة المذكورة فإنّ بوليبيوس يمثّل مصدرا رئيسيّا في دراسة الحرب الأولى وانعكاساتها ويبقى المصدر الرّئيسي لدراسة حرب المرتزقة كما نعتمده في دراسة الحرب الثانية ومؤسسات قرطاج ونظامها السّياسي فهو مكمّل لأرسطو من هذه الوجهة. وقد برز صدى دراسته للحرب الثالثة في مؤلفات لاحقيه وخاصة أبيانوس حيث لم يبق من الأربعين كتابا من تاريخ بوليبيوس سوى الكتب الخمسة الأولى (V-I) وبقيت مقاطع هامّة من الكتاب السّادس إلى الثامن

عشر (XVIII-VI) لكن ابتداء من الكتاب التاسع عشر (XIX) لا نحتفظ إلاّ بمقاطع محدودة.

- كرنليوس نيبوس (Cornelius Nepos) (حوالي 100 - 24 ق.م)
"سير مشاهير الرّجال"

يعتبر من أوائل المهتمين بأدب التّراجم من بين المؤرّخين اللاّتينيين، ألّف تاريخا جامعا في ثلاثة كتب وتراجم للمؤرّخين الإغريق القدامى إلاّ أنّها مفقودة تماما مثل أغلب الكتب الستّة عشر من المصدر الذي يعنينا وهو "سير مشاهير الرجال" (De viris illustribus) وبقي منها الكتاب الثالث مكتملا وقد خصّصه المؤلّف لسير "القادة المتميّزين في الأمم الأجنبيّة" وتحديدا أشهر قادة الإغريق وملوك الفرس ومقدونيا وخلفاء الإسكندر إضافة إلى ترجمة لعبد ملقرت البرقي وابنه حنّبعل وقد أفرد له حيّزا هامّا وقدّمه في صورة إيجابية، تختلف عن تلك التي نجدها لدى غيره من المؤرخين.

- ديودروس الصّقلّي (Diodore de Sicile) (90 - 20 ق.م.)
"المكتبة التاريخيّة"

ألّف هذا المؤرّخ الإغريقيّ تاريخا جامعا عنونه "المكتبة التاريخية" في أربعين كتابا، يبدأ بالحضارات الأولى وينتهي بحملة يوليوس قيصر على جالّيا (Gallia) سنة 59 ق. وبقي من تاريخ ديودروس خمسة عشر كتابا ومقتطفات من بعض الكتب التي اندثرت لدى مؤلّفين لاحقين.

ويمدّنا هذا المصدر بمعلومات عن حضور قرطاج بصقلية وعلاقتها بالإغريق وخاصة سرقوسة في فترة حكم الطاغية آغاتوكلاس وحملته على المجال الإفريقي لقرطاج سنة 310 ق.م.

واعتمد ديودوروس النقل عن مؤرّخين سابقين وتوخّى المفاضلة بينهم دون تبرير منطلقاتها. كما يعكس منهجه أوجه تراجع في الكتابة التاريخيّة،

حيث يدمج ما يسمّيه الأزمنة الأسطوريّة والمراحل التاريخية في الكتب الثلاثة الأولى من مؤلّفه.

– تيتيوس ليويوس (Titius Livius) (59 ق.م – 17م) "التاريخ الرّوماني"

اهتمّ في البداية بالأدب والخطابة والفلسفة وتحديدا المدرسة الرّواقيّة (L'école stoïcienne) وكتب محاورات في الأخلاق قبل أن يتفرّغ ابتداء من سنة 25 ق.م. لكتابة تاريخ جامع لروما منذ نشأتها حتى السّنة التّاسعة ق.م. (*Ab Urbe condita libri*) في مائة واثنين وأربعين كتابا بقي منها خمسة وثلاثون ومقتطفات من بقيّة الكتب. واحتفظ بالبعض منها في صيغة مختصرات (*Periochae*).

وقد كتب تيتيوس ليويوس في بداية العهد الإمبراطوري، لكنه عرف باستقلاليته وميوله للنظام الجمهوري، ويشترك مع المفكّرين الإغريق في الرّبط بين العقل والفضيلة. ويرى في القيم التّقليديّة الرّومانية سبب نجاح روما وتفوّقها. ويعبّر المؤلّف بوضوح عن اعتزازه "بتدوين منجزات شعب هو سيّد العالم". لكن خيار كتابة تاريخ وطني اتسم بالانتقائية والحبك الخطابي والتّرامي وهي المآخذ التي وجهت لتاريخ تيتيوس ليويوس كلّما تعلّق الأمر بمواطن مُبالغة أو تحيّز مُعلن. كما يُلاحظ غياب الفضول الجغرافي والاثنغرافي لديه خلافا لما نلمسه لدى سابقيه من المؤرّخين الإغريق مثل بوليبيوس خصوصا لأنّه اعتمد عليه كثيرا، إضافة إلى مؤلفي الحوليات الرومان مثل فابيوس بيكتور (Fabius Pictor)، أو كلاوديوس كودريقريوس (Claudius Quadrigarius) وفليريوس أنتياس (Valerius Antias) اللّذين دوّنا حوليات خلال النّصف الأوّل من القرن الأوّل ق.م. واعتمدا الأسلوب الخطابي في كتابة التاريخ وهو اختيار مُنسجم مع ثقافة الرّومان وتحديدا الفئات التي تعتمد المعرفة الشفوية، فهم يولون أهميّة قصوى للشكل الأدبي، كما يرجّح أن يكون تيتيوس ليويوس قد اطّلع على

الصّياغة الخطابيّة لتاريخ الحرب الثانية في سبعة أجزاء. لكايليوس أنتيبتار Caelius Antipater والتي دوّنها في نهاية القرن الثاني ق.م. واعتمد فيها على سيلنوس السّرقوسي. وتجدر الإشارة أيضا إلى ناويوس قايوس (Neavius Gnaeus) (270 – 190 ق.م.) كمصدر محتمل لمؤلّفنا وهو شاعر من كمبانيا (Campanie) شارك في الحرب الأولى ضدّ قرطاج ودوّن لها في صيغة شعر ملحمي. أمّا بوليبيوس فهو من أبرز مصادره مثلما يتّضح من تقارب المعلومات التي تهم نفس الحدث في تاريخ كلّ منهما. ويمثل تاريخ تيتيوس ليويوس أهمّ مصادر المعاهدات القرطاجيّة ـ الرّمانيّة، وبصفة خاصّة الحرب الثانية التي أرّخ لها في تسعة كتب (من الكتاب XXI إلى XXX). واستعرض أحداث الحرب الأولى والتوسّع القرطاجي في إيبيريا في ثنايا الكتب الممتدّة من XVI إلى XX.

أمّا المعلومات التي تخصّ الحرب الثالثة والتي اهتمّ بها ابتداء من الجزء التاسع والأربعين فقد بقيت ملخّصاتها (*Periochae*). ويرجّح أن يكون المؤرّخ الإغريقي أبيانوس قد اعتمد النّص الأصلي خلال القرن IIم.

– **أبيانوس (Appien d'Alexandrie) (أواخر القرن الأوّل م — القرن الثاني م) التاريخ الروماني**

تولى أبيانوس وظائف قضائية في روما وهو من إغريق الإسكندرية. كتب بالإغريقية تاريخ التوسّعات الرّومانيّة في أربعة وعشرين كتابا منذ بدايتها إلى بداية حكم الإمبراطور فسبازيانوس (Vespasien) (69م) ونُشر حوالي 160م.

وقد ورد تاريخ أبيانوس في شكل كتب مصنّفة حسب المناطق الجغرافية والشعوب التي شملها التوسّع الروماني. بقيت من هذا المصدر تسعة كتب كاملة. وفي الكتابين المخصّصين لإيبيريا ولوبيا استعرض المؤلّف حيثيات الحرب الثانية في إيبيريا ومعطيات تهمّ نوميديا وقرطاج خلال القرن

الثاني ق.م. لذلك نجد في كتاب آبيانوس ما فقد من تاريخ بوليبيوس وتيتيوس ليويوس.

– يوستينوس (Marcus Junius Justinus) (القرن الثاني م) "ملخّص التاريخ العالمي"

هو مؤرّخ لاتيني يرجّح أنّه عاش خلال القرن الثاني م. وكتب في فترة الأباطرة الأنطونيين قام بتلخيص التّاريخ العالمي، المعروف بالتاريخ الفيليبّي (*Historiae Philippicae*) لتروقوس بومبيوس (Trogue Pompée) وهو أصيل فازيو (*Vasio*) بمقاطعة جالّيا النّاربونية (*Gallia Narbonensis*) ومعاصر للإمبراطور أغسطس (27 ق.م – 14م).

ويفسّر عنوان التلخيص بأهميّة الأجزاء المخصّصة لفلبوس II المقدوني وخلفائه أو أن يكون مستوحى من خطب ديموستناس (Démosthène) الموجّهة ضدّ فلبوس الثاني والتي تحمل نفس العنوان. ولا ينال التلخيص والإيجاز من أهميّة هذا المصدر الذي يمدّنا بالرّواية الأكثر اكتمالا لتأسيس قرطاج وبداية التّوسع القرطاجي في فترة القادة الماجونيين. وتجدر الإشارة إلى سياق الاستطراد الذي أورد فيه المؤلف تأسيس قرطاج وهو تحديدا تناوله لحملات الاسكندر المقدوني على فينيقيا وعلى مدينة صور. وينطبق الأمر على بقية العناصر التي تهمّ قرطاج وهي التي تتضمّن مقابلة بين تاريخ الإغريق والقرطاجيين في غرب المتوسط. ولم يخصّص حيّزا للحروب البونية، لذلك يعتبر المحققون أن أهم مصادره في تناول تاريخ قرطاج هو تاريخ صقلية وغرب المتوسّط. لتيمايوس الطاورميني المشار إليه آنفا.

لقد اقتصرنا في هذا العنصر على تقديم أبرز المصادر بناء على مدى أهمية اعتمادها معرفيا ومنهجيا في كتابة تاريخ قرطاج، لكن وجب التنبيه إلى قيمة بعض الإشارات الوجيزة في مصادر فضلنا تقديمها في ثنايا عملنا هذا، من ذلك مثلا الشاعر اللاّتيني أفيانوس (Rufus Festus Avienus)

(النصف الثاني من القرن الرّابع م) الذي مدنــا بصياغــة لرحلــة خميلــك البحرية أو ديون كسيوس (Dion Cassius) وهو مؤرخ إغريقي كتب تاريخ روما أثناء حكم الأباطرة السويريين عارضا فيه ترجمة لحنبعل.

ومن المصادر التي اهتمّت بنفس الموضوع النصّ الشــعري لســيليوس إيتاليكوس (26-101م) (Silius Italicus) الذي انتخب قنصلا سنة 68م. قـــدّم صياغة شعرية للحروب البونية (Punica) اعتمادا على تاريخ تيتيوس ليويـوس، فاحتفظ بمقدّماته وترتيبه الزّمني، لكن توظيف الخيال الشعري للنّص التـــاريخي دفعه إلى الجمع بين قادة الحرب والآلهة ونظرا إلى تأثّره بالشاعر ورجيليـــوس فقد عمد إلى محاكاة أسلوبه.

وتجدر الإشارة أيضا إلى النّص المسرحي المعـــروف "بالقرطــاجي" أو "البونـــيّ الصّغـــير" (*Le Poenulus*) للمؤلّــف المســـرحي بلاوتـــوس (254-184 ق.م) (Titus Maccius Plautus). وقد اعتمد بصفـــة خاصّـــة اقتباس مؤلفات الكوميديا الجديدة الإغريقية التي سادت خلال القرنين الرّابـــع والثّالث ق.م مع توخّي تصرّف يراعي عادات الرّومان وخصائص واقعـهم. وعرف هذا التعبير المسرحي في روما "بالمسرح ذي الديكـــور الإغريقـــي *fabulae palliatae*". ويعلن بلاوتوس في مقدّمة نصّه أنّ الأصل الإغريقي يحمل عنوان القرطاجيّ "*Carchedonius*" ويختلف النّقاد في نســـبته إلـــى ميناندروس (342-292 ق.م) (Menandros) أو ألكسيس (375-275 ق.م) (Alexis) وهما من أبرز كُتّاب الكوميديا الجديدة الإغريق، ومن جهة ثانيـــة يرجّح أن يكون الاقتباس اللاّتيني قد دُوّن وعرض فـــي حـــدود 189 ق.م. وتتضمن المسرحية سبعة فصـــول ويتلخّـــص موضوعـــها فـــي تعـــرّض قرطاجيين ينتميان إلى عائلة ثريّة إلى اختطاف الابن الوحيد لأحدهما الـــذي توفّي بسبب ذلك، ثمّ فقد الآخر، وهو ابن عمّه، ابنتيه ومربيّتهما. وقد بيـــع الطّفل إلى شيخ في روما، تبناه وجعل منه وريثه الوحيد، وكان لهذا الشـــيخ سفرات إلى قرطاج وعلاقة صداقة بحنّون الـــذي قـــدم بحثـــا عـــن ابنتيـــه

ومربيتهما علما بأن مشتريهنّ انتقل إلى كاليدون (*Calydon*) موطن الشيخ الذي اشترى ابن أخيه ممّا جعل حنّون يلتقي المفقودين جميعا. ومن البديهي أن غرضنا يتجاوز تقييم الحبك المسرحي، فقد أثار هذا المصدر اهتمام المؤرّخين بحضور قرطاج والقرطاجيين في نصوص مسرحيّة إغريقية ولاتينية وفضلا عن ضرورة تقييم صورة القرطاجي التي تقدمها فإن المصدر الذي يعنينا تضمّن مقاطع مثيرة باللّغة البونيّة ورَدت على لسان حنّون "الذي يفهم كلّ اللّغات لكنّه يُبدي عكس ذلك".

إضافة إلى مجمل المصادر المذكورة تقتصر بعض الكتابات القديمة ذات الأغراض المختلفة على تلميحات عرضيّة أو مقاطع استطرادية ومقارنة لا يمكن التغاضي عن توظيفها والاستفادة منها.

نودّ في خاتمة هذا العنصر التأكيد على جدوى الإشارة إلى المصادر المفقودة وهو ما يفيدنا على الأقلّ في رصد مدى الإهتمام بتاريخ وحضارة قرطاج ونذكر في هذا السّياق كتاب "تاريخ القرطاجيّين" للأمبراطور كلاوديوس ولا تتجاوز معرفتنا به ما ورد في رواية سويتونيوس (Gaius Suetonius) في كتابه حياة القياصرة (*De vita Caesarum*) المعروف أيضا بحياة القياصرة الإثني عشر. فقد ذكر في الكتاب الخامس بالفصل الثاني والأربعين من ترجمة الأمبراطور كلاوديوس الذي حكم بين 41 و54م أنّ هذا الأخير دوّن كتابين باللّغة الإغريقيّة: "تاريخ التّريانيّين" (والمقصود الأترسكيّين) و"تاريخ القرطاجيّين" في ثمانية كتب. وتقديرا لهذين العملين أنشئ بالأسكندريّة متحف جديد يحمل إسم الأمبراطور وبرمجت به خلال أيّام محددة من السنة حصص قراءة "لتاريخ القرطاجيّين" من طرف قرّاء يتواترون الإلقاء أمّا "تاريخ الأترسكيّين" فكان يقدّم في المتحف القديم.

II – المصـــادر الأثريـــة

تكتسي المصادر الأثرية أهمية خاصة في دراسة تاريخ الحضـــارات القديمة باعتبارها معين معلومات لا غنى للدارس عنه. وتزداد أهميتها فـــي ما يتعلّق بحضارة قرطاج بالذات بسبب فقداننا للمصـــادر الأدبيـــة البونيـــة المباشرة. وبالرغم من إجماع كلّ الدراسات المعاصرة على هذا الحكم فإننـــا نظل على يقين أن من واجبنا في بداية هذا العرض التذكـــير ولـــو بإيجـــاز بسلسلة ملاحظات منهجية يتحتّم في رأينا اعتمادها عند التعـــامل مـــع هـــذا الصنف من الوثائق.

بديهي أن يتفطن كلّ مهتمّ بالمسألة إلى أنّ الأمـــر يتعلّـــق بمصـــادر صامتة يستوجب استنطاقها حذرا شديدا وموضوعية فائقة وهو مـــا يقودنـــا للقول بضرورة تجنب "التجني" على اللقى الأثرية وذلك بإطلاق الاستنتاجات الاعتباطية التي لا تجد سندا تاريخيا قويّا يدعمها وللتدليل على ذلـــك تكفـــي الإشارة إلى هذا الكمّ الهائل من الخزف المعدّ لنقل أنواع مختلفة من البضائع والمكتشف في أنحاء شتّى من الإمبراطورية القرطاجية والذي يـــدلّ علـــى وجود مبادلات تجارية نشيطة ولكن تظل جوانب كثيرة مـــن تـــاريخ هـــذه المبادلات محاطة بهالـــة كثيفـــة مـــن الغمـــوض دون أن تكـــون للبـــاحث الموضوعي القدرة على تقديم إجابات جازمة إذ يعسر عليه الإلمـــام دائمـــا بنوعية البضائع المتبادلة (خاصة إذا ما تعلق الأمر بمـــواد قابلـــة للتلـــف) وبتنظيم عملية التبادل (بيد من كـــانت هـــذه التجـــارة؟ كيـــف كـــان يتـــمّ تمويلها؟...). ويمكن أن نسحب نفس هذه الملاحظات على جوانب أخـــرى عديدة من حضارة قرطاج كالحياة الدينية والمجتمع وغيرها...

من جهة أخرى نلفت انتباه القارئ إلى أننا لن نمده بكـــل الإحـــالات المتعلّقة بما وقع إنجازه من دراسات اعتمدت كليا أو جزئيا على مـــا قدّمـــه التنقيب الأثري من نتائج بسبب ضخامة عدد المنشورات وتنوعها وفضلنـــا

إعطاءه نبذة عن أهم الحفريات مع الإحالة إلى أمّهات الكتب والمراجع حيث يتسنّى له أن يتوسّع أكثر.

لا يمكن الخوض في قضية الحفريات الأثرية التي أقيمت على أرض العاصمة البونية دون العودة ولو بإيجاز إلى تاريخ بداية إقامتها نظرا للانعكاسات الجسيمة التي ستكون لها لاحقا على طبيعة الدراسات الأثرية في هذا الاختصاص.

استهوى موقع قرطاج منذ القرن الماضي المولعين بتاريخ الحضارات القديمة على اختلاف مشاربهم ويجب الاعتراف منذ البداية أن "الروّاد الأوائل" كانوا يفتقرون في معظمهم إلى التكوين الضروري للتعامل مع هذه النوعية من الوثائق بالرغم من وجود بعض الإستثناءات. وقد طغت النزعة التجارية على الأهداف العلمية الصرفة لذلك تنعدم تقارير الحفريات إلاّ في ما ندر. ويمكن القول أن أعمال قنصل الدانمارك فالب (Falbe) شكلت أحد أبرز الإستثناءات ذلك أنه توصل طيلة السنين الممتدة بين 1822 و1833 إلى ضبط أوّل خارطة أثرية لموقع قرطاج وشكل إنجازه لما يسمى اليوم اصطلاحا مخطط فالب (Plan de Falbe) عمدة الدراسات اللاحقة حتى نهاية القرن الماضي وهو إنجاز لازال يحتوي إلى يومنا هذا على عديد الملاحظات المفيدة.

تسببت معظم الحفريات المقامة على امتداد هذه الفترة في إلحاق أضرار مادية فادحة بآثار قرطاج وبحكم افتقار "هؤلاء الرّواد" إلى التكوين الصحيح تسربت إلى كتاباتهم بالضرورة أخطاء كثيرة تتجلّى بالأساس من خلال الخلط الواضح الذي وقعوا فيه بنسبتهم لكثير من اللقى إلى الفترة البونية بينما هي ترقى في الواقع إلى الفترة الرومانية وللتذكير نشير إلى أن أوّل من عثر فعلا على شواهد عن حضارة قرطاج هو سانت ماري (E.P. de Sainte-Marie) وذلك عندما نجح في الكشف عما يقارب 2000 نصب بوني تم العثور عليها في غير موقعها الأصلي.

شكلت سنة 1880 منعرجا هاما على حدّ تعبير ج.ش.بيكار (G.C.Picard) إذ نجح محمد بن مصطفى خزندار في أن يحصل من الباي على "امتياز" احتكار اللقى الأثرية وبذلك نجح في أن يجمع داخل قصره الكائن بضاحية منّوبة عددا كبيرا منها ونذكر منها على سبيل المثال أنصاب "الغرفة" والموزعة اليوم بين متاحف باردو والمتحف البريطاني ومتحف فيانا.

في سنة 1875 كلف الكاردينال لافيجري (Lavigerie) الأب دولاتر (Delattre) بمهمّة التنقيب الأثري في قرطاج ويتعرض الموقع على يده إلى "مجزرة" جديدة على الرغم من أهمية ما قام به إذ يعود إليه الفضل في اكتشاف المقابر البونية التي ظلت لفترة طويلة مصدرنا الأثري الوحيد تقريبا لكتابة تاريخ قرطاج.

بعد مضي خمس سنوات فقط أي سنة 1880 أصبح متحف قرطاج (لافيجري سابقا) يعدّ 6347 قطعة أثرية.

يمكن القول أن تعيين ب. قوكلار (P.Gauckler) كمدير لمصلحة الآثار المحدثة سنة 1882 قد شكل المحطة البارزة الموالية في تاريخ التنقيب الأثري ويعتبر جل المهتمين أن هذا الباحث يعتبر أحد أبرز وجوه هذا الاختصاص في تلك الفترة إذ اختلفت الأساليب التي اعتمدها جذريا عن أساليب أسلافه (وخاصة الأب دولاتر) ويمكن تبين هذا الاختلاف خاصة من خلال العناية التي كان يوليها لكل اللقى الأثرية دون تمييز والتي كان يخصّها بوصف دقيق هذا فضلا عن أنه درج على نشر تقرير سنوي عن الحفريات التي كان ينجزها تحت عنوان Marche du service des Antiquités. ويعتبر مؤلفه "*Les nécropoles puniques de Carthage*" أحد أبرز المؤلفات المعتمدة حتى اليوم بالرغم من بعض الهنات والغموض بحكم وفاة ب.قوكلار قبل إنهاء هذا المؤلف.

تواصل إشراف ب.قوكلار على مصلحة الآثار حتى سنة 1906 تاريخ رحيله عن البلاد التونسية وخلفه في هذا المنصب أ.مرلان A.Merlin الذي أنجز بمعيّة ل.دارپيي L.Drappier حفريات المقبرة البونية "أرض الخرايب" ونشرا تقرير هذه الحفرية ضمن سلسلة تحمل اسم "Notes et documents".

وحملت سنة 1921 أحد أبرز الاكتشافات الأثرية في تاريخ موقع قرطاج وقد عنينا معبد التوفات "Tophet" الكائن بضاحية صلامبو اليوم وتولّى الإشراف على الحفريات كلّ من ل.بوانسو (L.Poinssot) والذي كان قد خلف أ.مرلان على رأس إدارة الآثار و. ر. لنتيي (R.Lantier) ونشر تقرير هذه الحفرية الأولى في Revue de l'Histoire des Religions لسنة 1923 ثم عهد بمهمّة التنقيب إلى بعثة مشتركة فرنسية ـ أمريكية بإدارة كلّ من كلساي (Kelsey) والأب شابو (Chabot).

تواصلت الحفريات بعد ذلك على أرض قرطاج ونكتفي في هذا الموضع من الدراسة بتعداد أشهر من أشرف عليها كبيار سنتاس (P.Cintas) و.د.هاردن (D.Harden) و.ك.بيكار (C.Picard) وم.بينار (M.Pinard) وج.فيرون (J.Ferron) وم.ح فنطر وف.شلبي وغيرهم وصولا إلى الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج والتي سنتعرّض لها بالتفصيل في فصل لاحق.

وكان من الطبيعي أن تؤتي هذه الحفريات أكلها فتعدّدت الدراسات وغطّت مختلف أوجه الحضارة المادية القرطاجية فتطور بفضلها إلمامنا بتاريخ قرطاج ونخص من بينها:

الخزف:

يصطدم الدارس لهذا الجانب من الحضارة المادية القرطاجية بإشكالية كبيرة تتمثل في صعوبة إسناد تواريخ دقيقة للقى الفخارية البونية ويعود ذلك

بالدرجة الأولى إلى تواصل استعمال أنماط خزفية على امتداد فترات طويلة.

من هنا تولّدت صعوبة إنشاء ما يمكن أن نطلق عليه تسمية سلاسل يتنزل استعمالها في إطار زمني محدّد ودقيق لذلك يلاحظ القارئ اعتماد الباحثين المختصين في الحضارة البونية على اللقى الإغريقية المستوردة لتأريخ ما يتم العثور عليه من آثار (قبور، سكن، أسوار...)، لكن من المفيد الإشارة إلى ميلاد اتجاه جديد في الدراسات الحديثة يسعى ولو بصورة بطيئة ومحتشمة إلى اعتماد اللقى الفخارية البونية كمقياس للتأريخ وذلك على إثر الجهود المبذولة على امتداد السنوات الأخيرة لتصنيف الخزف البوني تصنيفا يقارب الدقّة وقد ساعدت على الدفع في هذا الاتجاه الحفريات المقامة حديثا في مواقع مختلفة من الإمبراطورية القرطاجية نذكر منها على سبيل المثال الحفريات المشتركة الألمانية ـ الإسبانية بجنوب شبه الجزيرة الايبيرية والحفريات الإيطالية في كلّ من مالطة وصقلية وسردينيا والوطن القبلي وشمال غرب البلاد التونسية... بالإضافة طبعا لما قدمته إسهامات مختلف البعثات الدولية المشاركة في الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج من نتائج.

أثمرت هذه الجهود رؤية تنحو أكثر فأكثر نحو الوضوح وبدأ المختصون في مراجعة التواريخ التي قدمها ب.سنتاس في مؤلفه القيّم "*La céramique punique*" وترتّبت عن كلّ ذلك معرفة أدق بهذا الجانب من حضارة قرطاج والعكس ذلك إيجابا على إلمامنا بتاريخ المبادلات البونية عبر المتوسط وتحتل أعمال ج.ب.مورال J.P.Morel وخ.رامون J.Ramon وأ.م.بيزي A.M.Bisi وف.شلبي وم.قرا M.Gras وب.بارتولوني P.Bartoloni وأ.شياسكا A.Ciasca مكانة متميزة في هذا المجال.

الأنصاب

هي إحدى أكثر نوعيات اللقى انتشارا ويستأثر موقع قرطاج بـأوفر عدد منها تم الكشف عنها خاصة في معبد التوفات Tophet بالإضافة إلى ما عثر عليه في معابد أخرى تقع في صقلية وسردينيا ومالطة وشمال غـرب البلاد التونسية وسيرتا Cirta (قسنطينة) وتعتبر الأنصاب مصدر معلومـات على قدر كبير من الأهمية ذلك أنه بالإضافة للنصوص المرافقة لعدد كبـير منها نجد مجموعة من الرسوم تنير للدارس جوانب مبهمة من تاريخ قرطاج لم تعرض لها المصادر الأدبية ويمكن أن نستدل في هذا السياق بهذه الرسوم المجسمة لأدوات استخدمها القرطاجيون فـي أغـراض عديـدة كالفلاحـة والحرف وغيرها لكن يظل تأويل بعض الرسوم المجردة محل جدل كبـير بين المختصين مثال ذلك الرسوم المنسوبة اصطلاحا إلى الإلهة القرطاجيـة تانيت والهلال والأقراص وغيرها من الأشكال الهندسية.

الحلي القرطاجية

أثارت هذه النوعية من المعثورات انتباه علماء الآثار منـذ انطـلاق عمليات التنقيب بحكم درجـة الإتقـان والجـودة التـي بلغـها الحرفيـون القرطاجيون فخصوها في تقاريرهم بوصف دقيق تدعمه في معظم الحـالات وثائق إضافية مجسـدة كالرسـوم والصـور وتظـل أعمـال ب.كيـلار B.Quillard أبرز الدراسات الأثرية في هذا المجال.

البلور

برع القرطاجيون في هذه الصناعة وقد قدمت الحفريات الأثرية أدلـة قاطعة على ذلك ويمكن للمهتم أن يجد دراسة مستفيضة عن هذه النوعية من الإنتاج البوني في أعمال م.سيفريد (Seefried.) بالإضافة إلى مـا يمكـن العثور عليه من ملاحظات قيمة في بعض المنشورات الخاصة نذكـر مـن

بينها على سبيل المثال المؤلّف الضخم الصادر بمناسبة المعرض الذي نظم في مدينة البندقية الإيطالية عن حضارة الفينيقيين.

البرنز

أحكم القرطاجيون صناعة البرنز كما تدل على ذلك اللقى المكتشفة ونذكر من بينها المرايا المحفوظة في المتاحف وكذلك شفرات البرنز التي حظيت بعناية فائقة من الدارسين فخصّوها بدراسات كثيرة ركّزت بالدرجة الأولى على الرسوم التي تحملها وهي رسوم ذات قيمة رمزية ساعدت المحاولات المبذولة لفكها على فهم جوانب خفيّة من الحياة الدينية والمعتقدات.

العاج

كشف التنقيب الأثري عن لقى كثيرة صنعت من مادة العاج وقد أولت الدراسات أهمية خاصة للأمشاط العاجية التي استخرجت من القبور القرطاجية ويمكن أن نوجه عناية القارئ إلى العمل القيّم الذي أفردته لها الباحثة الإيطالية أ.م.بيزي في مجلة أفريكا. (Africa, II, 1967-1968 pp.11-73)

التمائم والجعلان

تعتبر التمائم المجلوبة من مصر أو المتأثّرة بالفن المصري من أهمّ ما يرافق الميت في قبره وقد كشفت الحفريات عن أعداد هائلة منها في مناطق عديدة من الإمبراطورية القرطاجية سواء داخل القبور أو المعابد.

ونتيجة لذلك خصّها المهتمّون بالأهمية التي تستحق وهي أهميّة نستمدّها من اعتبارين اثنين يرتبط الأوّل بالجانب الديني وقد قصدنا بذلك مساهمة هذه النوعية من الوثائق في إلقاء مزيد من الأضواء على الروابط التي حافظت عليها قرطاج مع شرق المتوسط على مستوى المعتقدات فيما يرتبط الثاني بالحياة الاقتصادية إذ أن الكشف عن هذا العدد الهام من هذه اللقى يطرح بالضرورة إشكالية وجود مبادلات تجارية بين القطبين: قرطاج

من جهة والبلاد المصرية من جهة ثانية. فبرزت نتيجة لذلك تساؤلات عديدة نعرض لها في الفصل المخصص لدراسة الاقتصاد القرطاجي وتختزل عادة في محاولة الإجابة عن مجموع الأسئلة التالية: من كان يتحكّم في هذه المبادلات؟ من أين كان يمرّ الخط التجاري الرابط بين المنطقتين؟ ويعتبر عمل ج.فركوتار J.Vercoutter الصادر منذ أواسط الأربعينات علامة مضيئة في دراسة تاريخ هذه النوعية من الوثائق دعمته على امتداد الفترة الأخيرة أبحاث كلّ من أ.أكوارو A.Acquaro ور.د.برنات (RD.Barnett) وما. ندلسون (C.Mendelson) وج.بوردمان (J/Boardman) وو.كوليكان (W.Culican) وت. الرديسي.

التمدين

تنامت معرفتنا لهذا الجانب بصورة ملحوظة على امتداد السنوات الأخيرة بفضل الحفريات المقامة في ثلاث مواقع على الأقل ولقد قصدنا موقع قرطاج الذي سنخصه بدراسة مستفيضة في فصل لاحق وموقع كركوان بالوطن القبلي وموقع موتيي في أقصى غرب جزيرة صقلية.

تحتل مدينة كركوان في هذا الإطار مكانة متميزة باعتبار أن الحفريات كشفت عن مدينة بونية مكتملة المعالم (الأنهج ، الأسوار، المعابد، الدور...) نجت من المخاطر التي عانت وتعاني منها بقية المواقع البونية وكل المواقع الأثرية بصورة عامة يضاف إلى ذلك ما يمكن استقراؤه بالنسبة لبعض المكونات العمرانية بفضل الحفريات المنجزة في مواقع أخرى عديدة مثل:

– الأسوار (رأس الدرك، ايريكس Eryx، شمال غرب البلاد التونسية، منطقة بنزرت...

– الموانئ (قرطاج ، موتيي، المهدية...)

– المعابد: وخاصة معابد التوفات وهي فضاءات مقدّسة ذات طابع خاص إذ يتعلق الأمر بمعابد غير مسقوفة حيث كان القرطاجيون، إذا ما

وتقنا بشهادة الكتاب القدامى، يقدّمون القرابين البشرية ويجـــدر التذكــير أن الحفريات لم تكشف عن فضاءات مماثلة في الشرق الفينيقي فيما تمّ العثـــور عليها في كلّ من قرطاج وهدرمتوم (سوســـــة) وموتيـــي ونــــورا (Nora) وسلكيس (Sulcis) وتاروس Tharros ومونتي سيراي (Monte Sirai)...

وقد شكلت هذه النوعية من الفضاءات المقدّسة بالخصوص موضـــــع اهتمام عديد الدارسين (انظر البيبليوغرافيا).

"مدن الأموات"

ظلت المقابر كما أشرنا إلى ذلك مصدر معلوماتنا الوحيد تقريبـــا عـــن حضارة قرطاج لذلك حضيت بعنايـــة فائقـــة فتعـــدّدت الكتابـــات وتنوعـــت الاهتمامات مشتدة بالدرجة الأولى على ما تحويه القبور من أثـــاث جنـــائزي غير ان بعض الدراسات الأخرى سعت إلى تصنيف القبور نفسها معتمدة فـــي ذلك مقياس الشكل الهندسي وطريقة البناء... ومن أبرز مراجعنـــا يمكـــن أن نشير إلى الصفحات وضعها س.قزال في مؤلفه الشهير *HAAN* وبالتحديد فـــي الجـــزء الرابـــع ص. 426 حتـــى 469 ومؤلـــف ب.مـــــنتاس *Manuel d'Archéologie Punique* الجزء الأوّل ص. 429 حتى 443 والجزء الثـــاني ص. 239 حتى 387 غير أن المرجع الأساسي المعتمد اليـــوم يظـــل عمـــل هــ. بنيشـــو – صفـــر *Les tombes puniques de* H.Benichou-Safar) (*Carthage. Topographie, structures, inscriptions et rites funéraires* الصادر بباريس سنة 1982.

III – المصادر النقائشية

على امتداد السنوات الأخيرة اكتسبت النقائش البونية أهمية لا يمكـــن للمهتم بتاريخ قرطاج تجاهلها بحكم مساهمتها في إثراء معرفتنا التاريخيـــة بهذه الحضارة لكن وكما هو الشأن بالنسبة للمصادر الأثرية لازالت الأبحاث

في هذا الميدان تصطدم بسلسلة من العراقيل وتشكو بالتـــالي مـــن هنـــات يستحسن أن نشير إليها ولو بإيجاز.

– من الضروري أن يعي القارئ وكما أبرز ذلـــك البـــاحث م.سنيســـر (M.Sznycer) أن "المتطفلين" على هذا الميدان من غير المختصيـــن كثـــيرون وهم لا يحذقون في معظم الأحيان إلا اللغة العبرية القديمة ونتيجة لذلك نلاحـــظ أن اهتمامهم بالحضارة الفينيقية – البونية يتنزل في إطار محاولتهم تقديم إجابـــات عن مسائل غامضة ترتبط أصلا بالكتاب المقدّس لليهود أي التوراة ومـــن هـــذا المنطلق لا يتردّدون في تقديم فرضيات بعيدة جدّا عن المنطـــق ويعـــزى ذلـــك لافتقارهم إلى أبسط القواعد المنهجية وأدنى قدر من التكوين التاريخي.

– تعتبر هذه الأعمال الرديئة أحد الأسباب الرئيسية التي أدّت ببعـــض المختصّين من علماء الآثار خاصة إلى امتهان هذه النوعية مـــن المصـــادر وغض النظر عمّا يمكن التوصل إليه من نتائج باعتمادها يضاف إلى ذلك – وهو السبب الثاني – رتابة النصوص النقائشية القرطاجية وخاصة النذريـــة منها والتي تكاد تقتصر في أغلب الأحيان على ذكر أسماء الآلهة التي قُـــدّمَ لها النذر متبوعة باسم صاحبه وسلالته ثم عبارة الاختتـــام والتـــي يمكـــن تعريبها كالتالي لأنه (الإله) سمع صوته: (قوله) ويباركـــه وهـــي عبـــارة لا نجدها في كلّ النصوص.

– زيادة على هذه الصعوبات يمكن التوقّف عنـــد نوعيـــة أخـــرى مـــن العراقيل تتعلق بطبيعة اللغة الفينيقية – البونية نفسها ذلك أنها لغة سامية تكتـــب بدون رسم الحركات وهو ما يعطي هامشا كبيرا للتأويل يضاف إلى ذلـــك أنـــها لغة تم فكّ رموزها وفهم ما تيسّر من معانيها باعتماد المقارنات والمقاربات مـــع لغات سامية أخرى معروفة كاللغة العبرية القديمة من هنا يصطـــدم البـــاحثون الموضوعيون بصعوبة فهم الكثير من الألفاظ والعبـــارات وينصـــح م.سنيســـر بالإمساك تماما عن تقديم أجوبة مجازفة ويعتبر ذلك أفضل من تقديم فرضيـــات لا يدعمها المنطق ولا تستند إلى حجج تاريخية يمكن الوثوق بصحتها.

بالرغم من كلّ هذه النقائص والعراقيل يبقى الحكم الذي أطلقناه عند بداية حديثنا عن المصادر النقائشية حكما مشروعا خاصة إذا ما تأملنا في ما تقدمه النصوص النقائشية من إسهامات تهمّ جوانب كثيرة من حضارة قرطاج كالتمدين والمؤسسات السياسية والقضائية والدينية ويمكن أن نستدل على ذلك بذكر أسماء الخطط والمهن الرائجة في قرطاج (الأشفاط، رب الكهنة، الكهنة، المكلفون بالجباية، المحاسبون، البناؤون...) وهي إشارات تزداد أهميتها إذا ما علمنا أن هذه النصوص وبقطع النظر عن محتواها هي النصوص المباشرة الوحيدة التي بلغتنا بعد تلف مكتبات قرطاج.

في ما يتعلّق بأبرز الدراسات في هذا الميدان وكما هو الشأن بالنسبة للمصادر الأثرية لا يتّسع المجال لمدّ القارئ بجرد مفصل للأعمال المنجزة لذلك فضّلنا اتباع نفس التمشي السابق مركزين على الدراسات الأساسية وللأمانة العلمية نشير إلى أنّنا اتّبعنا نفس التصور الذي اعتمدته م.سنيسر في تقارير المؤتمرات الدولية الثلاث الأولى للدراسات الفينيقية والبونية الصادرة في روما سنتي 1983 و1991 وفي تونس سنة 1995.

* المعاجم والفهارس

في البداية لم يكن بحوزة المهتمين بتاريخ الفينيقيين والبونيين سوى فهارس صادرة منذ القرن التاسع عشر ولكلّ من م.ليفي (M.Levy) *Phönizisches Wortbuch* 1894 وأبلوك (Bloch) 1891 *Phönizisches Glossar* وخاصة عمل المختص المعروف م.ليدبارسكي (M.Lidzbarski) الصادر سنة 1894 – *Handbuch Epigraphik graphitischen* صفحات 204 – 288.

في سنة 1936 صدر عمل جيّد في نفس التوجه لـهاريس(Z.S. Harris) يحمل عنوان *A grammar of the Phoenician language* وهو عمل يمكن إكماله بالعودة إلى معجم س.ف.جان (C.F.Jean) وج.هوفتايزر (J.Hoftjzer) والذي يحمل العنوان الآتي *Dictionnaire des inscriptions sémitiques de*

l'Ouest (1960-1965). ويختزل في معظم الأحيان كالتالي *DISO* وهو عبارة عن فهرس يحوي جردا مفصّلا لكل الكلمات التي تحويها اللغة الفينيقية البونية والبونية الحديثة (Le Néopunique).

مع أواخر السبعينات صدر معجم ر.س.تومباك (R.S.Tomback) ويحمل عنوان:

A Comparative Semitic Lexion of the Phoenician and Punic Language.

* الدراسات اللغوية

يمكن للتركيز حسب م.سنيسر على ثلاثة أعمال هي:

– عمل ز.هاريس وكنّا أشرنا إليه آنفا

– عمل ج. فردريش (J.Friedrich) *Phönizisch - Punische Grammatik*

وقد صدرت طبعته الأولى سنة 1951 فيما صدرت الثانية بمشاركة و.روليق (W.Röllig) سنة 1970.

– عمل س.سيقارت (S.Segert) صادر سنة 1976 *A Grammar of Phoenician and Punic*

* الباليوغرافيا (La paléographie)

يتم الاعتماد اليوم بالأساس وبالرغم من بعض النقائص التي يشكو منها على مؤلّف ج.ب بيكام

. *The development of the late phoenician scripts.* (J.B. Peckham) Cambridge, Massachusetts 1968.

* الإسامة

تحسن العودة إلى العناوين التالية حيث يجد الدارس تناولا مستفيضا للأسماء الفينيقية والبونية.

- HALFF (G), L'onomastique punique de Carthage Répertoire et commentaire, in, *Karthago*, XII, 1965 pp. 63-146
- BENZ (F.L), *Personnal Names in the Phoenician and Punic Inscriptions 1972*.
- JONGELING (K), *Names in New punic inscriptions 1984*.

المدونات العامة وكتب المختارات

تبقى مدونة النقائش السامية أحد أبرز المصادر الأساسية

Corpus Inscriptionum Semiticarum Pars Prima

ويختزل دائما كالتالي CIS,I وهو مؤلف ضخم تبنته الأكاديمية الفرنسية (L'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres) وبمبادرة من أ.رينان (E.Renan) سنة 1867 وقام بالمشاركة في وضعه في البداية كلّ ف.بارجي (Ph.Berger) وم.دي فوقسي (M.De Vogüe) وش.ك.قانّو (Ch.C.Ganneau) وج.ب.شابو (J.B.Chabot) ور.ديسّو (R.Dussaud) لكن الجزء الأوّل من هذه المدونة لم يصدر إلا سنة 1881 فيما صدر الجزء الثاني سنة 1883 والثالث سنة 1885 والرابع سنة 1887 وتواصل صدورها بعد ذلك بشيء من الانتظام قبل تضاعف المصاعب التقنية والمالية.

توجد مدونات أخرى مكمّلة لمدونة النقائش السامية نخص بالذكر منها *Répertoire d'Epigraphie Sémitique* وهو تأليف بدأت الأكاديمية الفرنسية في إصداره منذ سنة 1900 ويمكن أن نضيف إليه بعض العناوين الأخرى التي فضلت التركيز على مختارات من النقائش الفينيقية والبونية (وغيرها) لدراستها ومن أهمّ الأعمال نذكر:

- COOKE (G.A), *A Text book of North Semitic inscriptions 1903*
- DONNER (H), ROLLIG (W), *Kanaanaische und Aramaische Inschriften (= KAI) 1907.*

في نفس الإطار دائما يمكن تنزيل مجموعة من الأعمال آثرت دراسة نصوص بعض المواقع أو المناطق الجغرافية ويمكن أن نشير إلى المنشورات التالية:

- AMADASI (M.G.G), *Le iscrizione fenicie e puniche delle colonie in Occidente (=ICO) 1967.*
- *MOZIA II, III, IV, V, VI, IX:*

وهي نصوص كما نلاحظ وردت في تقارير الحفريات التي أقيمت علـــى موقع موتيي بأقلام كـــلّ ج.قربينـــي (G.Garbini) والباحثـــة م.ج.ج.امـــادازي (M.G.G. Amadasi) ثم تم تجميع كلّ النقائش في مؤلف واحد بقلم نفس الباحثـــة يحمل عنوان: *Scavi a Mozia. Le iscrizioni 1986 -*

في صقلية دائما أثارت النصوص المرسومة على جوانب مغارة قروتـــا ريجينا (Grotta Regina) اهتمام الدارسين فصدر في هذا الشأن مؤلفان اثنان:

- Bisi (A.M), Amadasi (M.G.G), Tusa (V), Grotta regina I.
- POLSELLI (G), AMADASI (M.G.G), TUSA (V), *Grotta Regina II. Le iscrizione puniche.*

في سردينيا اهتم كلّ من ج.قـــاربيني وم.ج.ج.امـــادازي فـــي تقـــارير الحفريات الأولى بنشر نصوص مونتي – سيراي وهـــي تقـــارير بـــدأت فـــي الصدور منذ سنة 1964 أما نقائش موقع انتاس (Antas) فقد تولّى نشـرها م.ج. فنطر في مؤلف جماعي يحمل عنوان: *Ricerche puniche ad Antas.*

– بالنسبة إلى جزيرة مالطة: بالإضافة إلى مدونة النقـــائش الســـامية نشير إلى أن البعثة الإيطالية قد تولّت نشر نصوص موقـــع تـــاس ســـيلج (Tas-Silg) بقلمي كلّ من م.ج.ج. امادازي وج. قربيني وذلك منـــذ ســـنة 1964.

– بالنسبة لإسبانيا وجزيرة ابيبزا = يمكن للقارئ العودة إلى أعمـــال الباحث ج.م.سولا سولي (Sola Sole) الصادرة في مجلـــة *Sefaraad* منـــذ 1955 وكذلك مجلة *Rivista degli Studi Orientali*

– منطقة طرابلس: تمثل أعمال الباحث الإيطالي الكبـــير ج. ليفـــي دلافيدا. G. Levi Della Vida محطة منيرة نحيل القارئ للبعض منها:

- "Iscrizione neopuniche de Tripolitania" in, *Rendiconti dell Accademia Nazionale dei, Lincei* (1947) pp. 359- 412.

- "Iscrızione punica di Lepcis" (نفس المرجع) pp. 550 -561.

- "Sulle iscrizione "Latino-Libiche" della Tripolitania", in, *Oriens Antiqvvs*, 2, (1963), pp. 65-94.

- "Le Iscrizione neopuniche della Tripolıtania", in, *Libya*, 2, (1967) pp. 1-26...

- المغرب الأقصى

- GALLAND (L), FEVRIER (J.G), VAJDA (G), *Inscriptions antiques du Maroc. Inscriptions libyques, puniques néopuniques et hébraiques. Paris (1966)*.

- GALLAND (L), SZNYCER (M), "une nouvelle inscription punico-Libyque de Lixus", in, *Semitica, 20,* (1970), pp. 5-16.

- سيرتا (قسنطينة)

- BERTHIER (A), CHARLIER (R), *le sanctuaire punique d'El Hofra à Constantine, Paris, 1955*.

- BERTRANDY (F), SZNYCER (M), *Les stèles puniques de Constantine,* Paris 1987.

- بالنسبة للبلاد التونسية سنقتصر على أبرز ما نشر حول نقائش المواقع التالية:

- هدرمتوم (سوسة)

- CINTAS (P), "Le sanctuaire punique de Sousse", in, *Revue Africaine* (1947), pp. 30-46.

- مكثر

استأثرت نقيشة مكثر الشهيرة خاصة باهتمام الكثير من الباحثين من بينهم:

- FÉVRIER (J.G), "La grande inscription dédicatoire de Mactar", in, *Semitica, 6,* (1956), pp. 15-31.

- FÉVRIER (J.G), FANTAR (M.H), "Les nouvelles inscriptions monumentales néopuniques de Mactar", in, *Karthago, 12,* (1968), pp. 45-53.

موقع تبرسق

- FANTAR (M.H), "Teboursouk, stèles anépigraphes et stèles à inscriptions néopuniques". *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions XVI,* (1974), pp. 377-431.

هنشير مدد

- SZNYCER (M), "les inscriptions néopuniques de Mididi", in, *Sémitica, 36,* (1986). p. 5-24.
- FANTAR (M.H), "nouvelles stèles à épigraphes néopuniques de Mididi".

نفس الإحالة السابقة والصفحات من 25 حتى 42.

مصادر الفصل الأول ومراجعه

المصادر الأدبية

اعتمدنا بصفة رئيسية الترجمة الفرنسيّة للمصادر الإغريقية واللاّتينيّة الصادرة تحت إشراف جمعيّة قيوم ـ بودي في "سلسلة الجامعات الفرنسية":

Collection des Universités de France (C.U.F.). Publiée sous le patronage de l'Association Guillaume - Budé. Société d'Edition "Les Belles Lettres".

وتقدّم ترجمة مصاحبة للنصّ الأصلي مرفقة بمراجعة وتحقيق وتقديم دقيق للكاتب وللمصدر وإضافة هوامش، والملاحظ أن المصادر الهامّة من حيث الحجم نشرت في أجزاء مبوّبة حسب الكتب (Livres) من قبل مترجمين ومحققين مختلفين. ووجب التنبيه أيضا إلى عدم اكتمال ترجمة بعض المصادر في السلسلة المذكورة، على غرار "المكتبة التاريخية" لديودروس الصقلّي فبعض كتبها التي لم تصدر بعد في نصّ فرنسي، ترجمت إلى الإنجليزية في سلسلة Loeb Classical Library . ولجأنا عند الضرورة إلى سلسلة المصادر الكلاسيكية: قرنيي – فلامّاريون:

La collection des classiques Garnier-Flammarion. وهي تشتمل على ترجمة للفرنسية مسبوقة بتقديم وجيز للمصدر ولمؤلّفه.

- APPIEN, *Libyca, Punica, Guerres civiles*, éd. H. White, coll. Loeb, 1912-1913, réimpr, 1958.
- ARISTOTE, *Politique*. Texte établi et traduit par Jean Aubonnet. Paris: Les Belles Lettres, 1989.
- ARISTOTE, *Les Politiques*. Traduction inédite introduction, bibliographie, notes et index par Pierre Pellegrin. Paris: Garnier - Flammarion, 2ème édition revue et corrigée, 1993.
- CICERON, *Oeuvres philosophiques. Tusculanes (III, 22, 54. V, 37, 107)*. Texte traduit par G. Fohlen et Jules Humbert, Paris: les Belles Lettres, 3ème tirage, 1968.

- CORNELIUS NEPOS, *De Viris illustribus*. texte traduit et commenté par A.M. Guillemin. Paris: Les Belles lettres. (édition revue et corrigée par PH. Heuzé et P. Jal), 1992.

- DIODORE DE SICILE, *Bibiliothèque historique*, s. d. de F.Chamoux. T I: Introduction et Livre I, 1993.

- FLAVIUS JOSEPHE, *Contre Apion*. texte établi et annoté par Théodore Reinach et traduit par Léon Blum. Paris: Les Belles Lettres 2ème tirage, 1972.

- HERODOTE, *Histoires*. Texte établi et traduit par Ph. E Legrand Paris: Les Belles Lettres. 3è tirage, 1973.

- JUSTIN, *Abrégé de l'Histoire Universelle de Trogue Pompée*. traduit par J.Pierrot et E.Roitard. Edition M.E. Pessonneux. Paris: Garnier. s.d.

- PLAUTE, *Comedies*. TV (Mostellaria, Persa, Poenulus) texte établi et traduit par A.Ernout. Paris. Les Belles Lettres 3ème tirage revu et corrigé, 1970.

- PLINE L'ANCIEN, *Histoire naturelle*. Livre I. préface et Table des matières par J.Beauyeu. Introduction par A.Ernout. Paris. Les Belles Lettres, 1950.

- POLYBE, *Histoires*. T.I: Introduction et Livre I, texte établi et traduit par P.Pédech. Paris. Les Belles Lettres. 2è tirage, 1989.

- SALLUSTE, *La conjuration de Catilina - La Guerre de Jugurtha - Fragments des Histoires*, texte établi et traduit par J.Ernout - Paris: Les Belles Lettres. 2è tirage, 1989.

- SILIUS ITALICUS, *La Guerre punique*. TI à IV. texte établi et traduit par P.Miniconi et al. Paris: Les Belles Lettres, 1979-1992.

- SUETONE, *Vies des Douze Césars. Tome II. Livre V (Tibère)* . texte établi et traduit par Henry Ailloud Paris: Les Belles Lettres, 1932.

- TITE LIVE, *Histoire romaine* Paris: Les Belles Lettres (1940-1984): publiée en 34 tomes, le dernier est consacré aux abrégés (*periochae*).

- TITE LIVE, *Histoire romaine*: Traduction de Annette Flobert, Paris G.Flammarion.:

Livres XXI à XXV: (La seconde Guerre Punique I) 1993.

Livres XXVI à XXX: (La seconde Guerre Punique II) 1994.

- VIRGILE, *Eneide*, nouvelle édition par J.Perret tome I à IV, Paris : Les Belles Lettres, 1981-1987.

المراجع

- ANDRE (J.M) et HUS (A), *L'Histoire à Rome*. Paris: PUF, 1974.
- BARUCQ (A), CAQUOT (A), DIRAND (J.M), LEMAIRE (A) et MASSON (O), *Ecrits de l'Orient ancien et sources bibliques*. Paris, 1986. (André Lemaire: *"Les écrits des Phéniciens"* p. 215-238).
- BICKERMAN (E.J), "Hannibal's Covenant", in, *American Journal of philology*, 73 (1952) pp.1-23.
- CIZEK (E), *Histoire et historiens à Rome dans l'antiquité*. Lyon, 1995.
- DESANGES (J), "Le point sur le périple d'Hannon: controverses et publications récentes", in, *Enquêtes et documents*. (1981); pp. 13-29.
- DUBUISSON (M), "L'image du carthaginois dans la littérature latine", in, *Studia Phoenicia*, 1-2- (1983). pp. 159-167.
- EUZENNAT (M), "Le Periple d'Hannon", in, *Comptes Rendus de l'Academie des Inscriptions et Belles Lettres*, Avril-Juin (1994), pp. 559-579.
- FINLEY (M.I), *The essence of Herodotus, Thucydides, Xenophon, Polybios*. Londres, 1959.
- *Sur l'histoire ancienne, la matière, la forme et la méthode*. Trad. de l'anglais par J.Cartier. Paris, 1987.
- GSELL (St), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. T. I.
- KRINGS (V), "Les Libri punici de Salluste", in, *Africa Romana VII*, Sassari. 1990, pp 109-117.
- MAZZA (F), RIBICHINI (S), XELLA (P), *Fonti Classiche per la civilta fenicia e punica I, Fonti litterare greche dalle origini alla fine dell'età classica*. Roma, 1988.
- MOMIGLIANO (A), *Sagesses barbares. Les limites de l'hellénisation*. Paris, 1979.
- *Problèmes d'historiographie antique et moderne*. Paris, 1982.
- PEDECH (P), *La méthode historique de Polybe*. Paris, 1964.

- PICARD (G.Ch), "Est-il possible d'écrire une histoire de Carthage?", in, *Atti del I Congresso internazionale di Studi Fenici e Punici*. vol. I, Roma. (1983). pp. 279-282.

- RAWSON (E), "The firsts latin Annalists" in *Latomus*, 35, (1976). pp. 689 et suiv.

- REDISSI (T), "Les empruntes de sceaux égyptisants et égyptiens de Carthage", in, *CEDAC*. n°12. (1991). pp 13-24

(نشريّة مركز الدّراسات والوثائق الأثريّة لمحافظة آثار قرطاج)

- ROUSSEL (D), *Les historiens grecs*. Paris, 1973.

- SYME (R), *Histoire et historiens dans l'Antiquité*. Genève, 1959.

- SZNYCER (M), *Les passages puniques en transcription latine dans le Poenulus de Plaute*. Paris, 1967.

- "La littérature punique", in, *Archéologie vivante, 1-2*, (1968-1969). pp. 141-148.

- VAN EFFENTERRE (H), *L'Histoire en Grèce*. Paris, 1962.

- WALBANK (F.W), "The historians of greek Sicily", in, *Kokalos, XIV-XV*, (1968-1969) pp. 476-498.

- WEIL (R), *Aristote et l'histoire*, Paris, 1960.

حول تاريخ الحفريات البونية اعتمدنا بالأساس على :

- PICARD (G Ch), « la recherche archéologique en Tunisie des origines à l'indépendance », in, *Cahiers des Etudes Anciennes XVI*, (1983), pp 11-20.

من أهم تقارير الأب دولاتر يمكن أن نذكر :

- DELATTRE (R.P):

- « La nécropole punique de Doumes à Carthage. Fouilles de 1895. 1896 » *extrait de Mémoires de la Société Nationale des Antiquaires de France LVI*, (1887) p. 255-395 Paris, 1897.

- « Carthage quelques tombeaux de la nécropole punique de Douimes 1892-1894 », *extrait des Missions Catholiques Lyon, 1897*.

- « La nécropole des Rabs, prêtres et prêtresses de Carthage, 2ème année », *extrait de Cosmos, Paris, 1905*.

- « La nécropole des Rabs... 3ème année » *extrait de Cosmos, Paris, 1906*.

- « Nécropole punique de la colline de Saint-Louis » *extrait des Missions Catholiques XXXVIII, Lyon, 1896.*

- « Carthage la nécropole punique voisine de Sainte-Monique. Le 1er mois des fouilles. Janvier 1898 », *extrait de Cosmos Paris, 1899.*

حول الخزف انظر مثلا :

* BISI (A.M), *La Ceramica punica Aspetti e, problemi.* Naples 1970.

* CHELBI (F), «Céramique à vernis noir de la Rabta», in, *Latomus 31,* (1972) pp. 368-378.

- «A propos des amphores archaïques de Carthage», in, *Atti del II Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici Rome* (1991) pp. 715-732.

- *Céramique à vernis noir de Carthage,* Tunis 1992.

* CINTAS (P), *Céramique punique* Paris 1950.

* DEMARGNE (P), «La céramique punique », in, *Revue Archéologique* (1951) pp. 44-52.

* MOREL (J P), « les vases à vernis noir et à figures rouges d'Afrique avant la deuxième guerre punique et le problème des importations de Grande-Grèce », in, *Antiquités Africaines, 15,* (1980) pp. 29-90.

- « La céramique à vernis noir de Carthage-Byrsa: Nouvelles données et éléments de comparaison », in, *Actes du Colloque sur la céramique antique, in, CEDAC, Carthage. Dossier I,* (1982) pp. 43-61

- « Les importations de céramiques grecques et italiennes dans le monde punique (Vème siècle) », in, *Atti del I Congresso internazionale di Studi Fenici e Punici, III,* Rome (1983) pp. 731-748.

- VEGAS (M), « Archaische und mittelpunische Keramik aus Karthago, Grabungen 1987-1988 », in, *MDAI, Rom, Abt, 96,* (1989) pp. 209-259.

حول الحلي يمكن العودة إلى :

* QUILLARD (B), *Bijoux Carthaginois I, les Colliers.* Louvain -la-Neuve 1979.

حوّل التمائم والجعلان :

* ACQUARO (E), « Gli, scarabei punici in pietra dura del Museo Nazional G.A.Sanna di Sassari » *AANL XLI, (1987)*, pp. 227-252.

- « Scarabs and Amulets », *in, "The Phoenicians"* Milan, 1988, pp. 394-403.

* REDISSI (T), *Etudes des amulettes de type égyptiens et égyptisants et divers Aegyptica de Carthage (VII-II) et de la Méditerranée au 1er millenaire av.J.C.* (thèse dacty) sous la direction de M.M; J.Leclant et M.Leglay. Paris Sorbonne 1987.

- « Les empreintes de sceaux égyptiens et egyptisants de Carthage », in, *CEDAC, 12,* (1991) pp 13-24

* VERCOUTTER (J), *les objets égyptiens et égyptisants du mobilier funéraire carthaginois Paris,* 1945.

حول البلّور :

* SEEFREID (A), *Les pendentifs en verre sur noyau des pays de la Méditerranée antique.* Rome 1982.

حول البرنز :

* ACQUARO (E), *-i rasoi punici.* Rome 1971.

- « Bronzes », in, *the Phoenicians, Milan,* 1988 pp. 422-435.

* PICARDS (C), « Sacra punica », in, *Karthago, 13,* (1967) pp. 3-115.

* TAHAR (M), « la collection des miroirs en bronze conservé dans le musée de Carthage. Essai de classification » (à paraître).

حول الأنصاب :

- BARTOLONI (P), *Le stele archaiche di Cartagine.* Rome, 1976.

- BISI (A.M), *le stele puniche (Studi Semitici, 27)* Rome, 1967.

- PICARD (C), *Catalogue du Musée Alaoui, N.S. collection punique I. II.* Tunis 1954.

حول معبد التوفات انظر مثلا :

* CINTAS (P), « un sanctuaire pré-carthaginois sur la grève de Salammbô », in *Revue Tunisienne 3ème série, n.1.,* (1948), pp. 1-31

* HARDEN (D), « Punic urns from the precinct of Tanit at Carthage », in, *American Journal of Archaeology, XXXI,* (1927), pp 297-310.

- « The prottery from the precinct of Tanit at Salambô Carthage », in, *Iraq, IV,* (1937), pp. 59-89.

* KELSEY (F), « A perlimrary report on the excavations at Carthage, (1925) » *supp, to the American Journal of archacology, New York, (1926)*.

* PICARD (G.C), « Le sanctuaire dit de Tanit à Carthage », in, *CRAI,* (1945), pp. 443-452.

* POINSSOT (L) et LANTIER (R), « un sanctuaire de Tanit à Carthage », in, *Revue de l'Histoire des Religions,* (1923), pp. 31-68.

* RIBICHINI (S), *il tofet e il sacrificio dei fanciulli.* Sassari 1987 (avec bibliographie).

* STAGER (L), « The rit of child sacrifice at Carthage. New Light on Ancient Carthage » (J.G Pedley edit) *Ann Arbor, 1,* (1981) pp. 1-11.

* STAGER (L), WOLFF (S.R), « Child Sacrifice at Carthage - Religious Rite or Population Control? Archaeological Evidence for a New Analysis », in, *Biblical Archaeological Review, 10,* (1984) pp. 31-51.

* Le tophet de Motyé: *Mozia I.IX, Rapporti preliminairi delle campagne di scavi 1964-1974 - Rome (1964-1978).*

* « Le tophet de Tharros », *Tharros I.XIV, in, Rivista di Studi Fenici, (1975-1988).*

حول التمدين : انظر البيبليوغرافيا الواردة في آخر الفصل المخصص لدراسة الحضري لمدينة قرطاج كما يمكن العودة أيضا إلى العناوين التالية:

* FANTAR (M.H), *Kerkouane cité punique du Cap-Bon Tunisie T.I,* Tunis 1984, T II, Tunis 1985, T III, Tunis 1986.

* ISSERLIN (B S.J), DU PLAT TAYLOR (J), *Motya, a Phoenician and carthaginian city of Sicily, I,* leyde 1974.

* WHITAKER (J.I.S), *Motya, a phoenician colony in Sicily* Londres 1921.

المقابر : تتميز البيليوغرافيا بغزارتها لذلك سنقتصر علـــى عنـــاوين بعض الدراسات العامة:

* GAUCKLER (P), *Nécropoles puniques de Carthage,* Paris 1915.

* SAFAR (H.B), *Les tombes puniques de Carthage. Topographic, structures, inscriptions et rites funéraires.* Paris 1982.

للحصول على إحالات أكثر تفصيلا حول هذه الجوانب الماديـــة مـــن حضارة قرطاج يمكن العودة إلى

* KRINGS (V), ed, *Manuel de recherche sur la civilisation phénicienne et punique,* Leiden-New York, 1995.

* LIPINSKI (E), (Sous la direction de), *Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique.* Bruxelles 1992

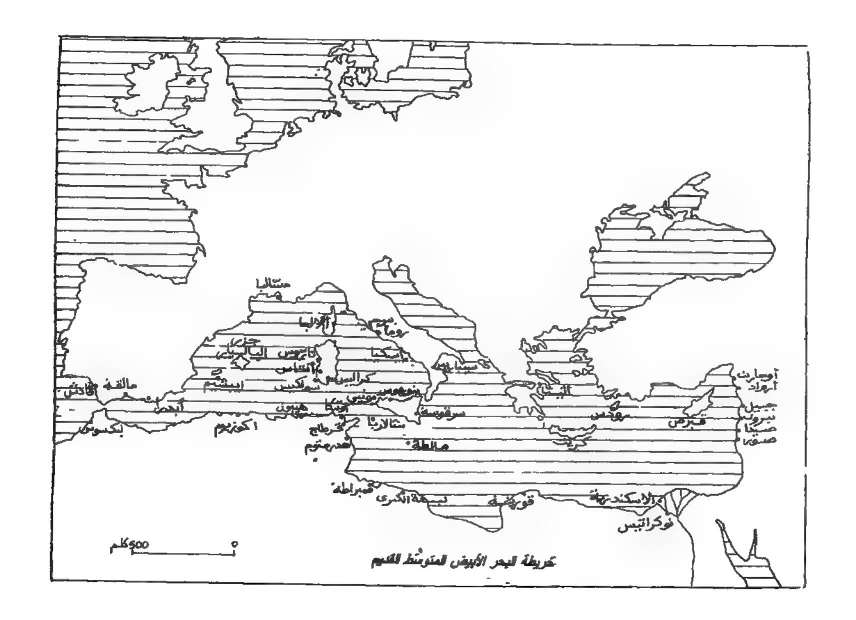
الفصل الثاني

التوسّع الفينيقي بغرب المتوسط

أثارت قضية تأريخ التوسّع الفينيقي جدلا طويلا بسبب التضارب الكبير بين التواريخ المتقدّمة التي تقترحها المصادر الأدبية من جهة والتواريخ المتأخرة التي تمّ التوصّل إليها بالاعتماد على الحفريات الأثرية وهو ما حدا ببعض الباحثين إلى إخضاع شهادات الكتّاب القدامى لنقد بلغ أحيانا درجة كبيرة من التشدّد فتباينت في خضم هذا الجدل المواقف وتعدّدت الآراء ولئن تقلّصت الهوّة الزمنية في موقع قرطاج بالذات بفضل الحفريات الألمانية الأخيرة كما سنعرض لذلك في الفصل القادم فإن القضيّة لازالت مطروحة وبحدّة بالنسبة إلى بعض المواقع الأخرى وأشهرها ليكسوس (Lixus) وقادش (Gades) وأوتيكا.

في محاولة منّا لتبسيط هذه الإشكالية فضّلنا أن نخصّص الجزء الأوّل من هذا الفصل للتعرّض إلى مختلف شهادات الكتّاب القدامى مبوّبة تبويبا جغرافيا مشدّدين بالأساس على الروايات المتضمنة لتواريخ يستحسن تقديمها لاثراء هذا الملفّ أما الجزء الثاني فسيقع تخصيصه لتناول جوانب الملف الأثري وطبيعي أننا سنركّز على أقدم اللقى التي أمكن الكشف عنها لما لذلك من علاقة وثيقة بإشكالية التأريخ متّبعين في ذلك نفس التبويب المشار إليه آنفا أي التبويب الجغرافي.

وقد حاولنا في الجزء الأخير من هذا الفصل استجلاء أهم الاتجاهات التي اتبعها الباحثون في محاولاتهم قراءة وتأويل المادّة التاريخية سواء منها الأدبية أو الأثرية أو النقائشية ساعين قدر جهدنا إلى تقديم رؤية عامة عن هذه الإشكالية تأخذ بعين الاعتبار آخر ما تمّ التوصّل إليه في هذا الشأن.



روما
أوجاريت
أرواد
جبيل
بيروت
صيدا
صور
قبرص
رودس
الاسكندرية
نوكراتيس
قورينة
لبدة الكبرى
صبراطة
مالطة
قرطاج
اكوزيوم
ليكسوس
قادش
مالقة
0
500كلم
خريطة البحر الأبيض المتوسط القديم

I – التوسّع الفينيقي بالمتوسط الغربي من خلال المصادر الأدبية

يمكن للمتأمّل في شهادات الكتّاب القدامى حول قضية التوسّع الفينيقي أن يلاحظ دون صعوبة أن الأمر يتعلّق غالبا بتشذرات وردت عرضا في كتاباتهم وتفتقد غالبيتها للدقّة المطلوبة كما سنبيّن ذلك لاحقا ولنبدأ أوّلا باستعراض أهمّ شهادات هؤلاء والمتعلّقة بقادش

– قادش : تقع في الأصل على جزيرة صغيرة محاذية للساحل الأطلسي لشبه الجزيرة الايبيرية عند مصب ريو قوادلاتي (Rio Guadalete) ويعود تأسيسها حسب فليوس بتركولوس إلى زمن عودة الهرقليديين (Les Heraclides) إلى منطقة البلبنيزوس (Le Péloponnèse) التي حصلت ثمانين سنة بعد حرب طروادة (La guerre de Troie) وهو ما يحملنا إلى سنة 1110 ق.م على الأقل بالرغم من الجدل الشائك حول تأريخ هذه الحرب.

أما الجغرافي سترابو فيذكر دون تدقيق أن المستوطنات الفينيقية بإسبانيا تأسست بعد حرب طروادة بقليل وهي إشارة تتطابق مع ما يذكره بومبنيوس ميلا والذي يضيف أنّها (أي المستوطنات الفينيقية) تأسست قبل فترة هوميروس.

– ليكسوس (Lixus) تقع على الساحل الأطلسي شمال العرايش (Larache) بالمغرب الأقصى اليوم ويعود تأسيسها إن وثقنا بشهادة بلينوس الأكبر إلى تاريخ أقدم مقارنة بمستوطنة قادش إذ يتحدث هذا المصدر عن وجود معبد للإله هرقل أقدم من المعبد الموجود بهذه الأخيرة.

– أوتيكا : يذكر فليوس بتركولوس أن تأسيسها تمّ سنوات قليلة بعد تأسيس قادش وبالعودة إلى مؤلف بلينوس الأكبر أمكن الوصول إلى تاريخ أكثر دقّة إذ يتحدث عن أعمدة من أرز نوميديا يمكن مشاهدتها في معبد الإله أبولون خلال الفترة التي عاصرها ويضيف أنها وضعت عند تأسيس المدينة

1178 سنة قبل ذلك فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن بلينوس الأكبر قام بـــإهداء مؤلفه "التاريخ الطبيعي" إلى الإمبراطور تيتوس (Titus) سنة 77 بعد الميـــلاد فإننا نحصل على تاريخ 1101 قبل الميلاد كتاريخ لتأسيس أوتيكا وهو استنتاج يتوافق مع ما يذكره أرسطو المنحول (Le Pseudo-Aristote) الـــذي يـــورد اعتمادا على الحوليات الفينيقية أن أوتيكا تأسّست 287 سنة قبل قرطـــاج وإذا ما اعتمدنا تاريخ 814-813ق.م. كتاريخ لتأســيس العاصمـــة البونيـــة فإننـــا نحصل على تاريخ يتطابق تماما مع التاريخ الوارد لدى بلينوس الأكبر.

- أوزا (Auza) يذكر مندروس الايفيزي بالاعتماد على الحوليـــات الصورانية أن ملك صور إيتوبعل (Ittobaal) قام بتأسيس مستوطنة تحمـــل اسم أوزا ويرجّح أن ذلك تمّ في النصف الأوّل من القرن التّاسع قبل الميـــلاد ولا يزال تحديد موقع هذه المستوطنة موضع جدل بين الباحثين.

إذا استثنينا هذه الإشارات القليلة والدقيقة نسبيّا فإن بقيـــة الروايـــات تتخـــذ طابع العموميات وتفتقر بالتالي إلى ضوابط تأريخية يمكن التعويل عليها إذ تكتفـــي مصادرنا بذكر أسماء بعض مستوطنات قام الفينيقيون بتأسيسها من ذلك مثلا مـــا يورده الكاتب سلوستيوس عـــن تأســيس هـــؤلاء لـــهيبو (Hippo) وهدرمتـــوم (Hadrumète = سوسة) ولبده (Lepcis) ويضيف في شأن هذه الأخيرة أن ذلـــك تم من قبل سكّان صيدا على إثر صراعات داخلية ويتعارض ذلك مع مـــا يذكـــره الشاعر سيليوس إيتاليكوس والكاتب بلينـــوس اللـــذان يذكـــران أن المدينـــة هـــي مستوطنة صورانية: وفيما تجمع كلّ الدراسات المعاصرة اليوم علـــى القـــول أن مستوطنتي هدرمتوم ولبدة توافقان سوسة ولبدة الكبرى (شـــرق طرابلـــس بيـــن خليجي سرت الصغرى وسرت الكبرى) فإنه يجب أن نعترف بعجزنا عن تحديـــد موقع هيبو بدقة بسبب وجود مدينتين ستحملان لاحقا نفس التسمية وهـــي هيبـــو ديريتوس (Hippo Diarrhytus) (بنزرت) وهيبو ريجيـــوس (Hippo Regius) (عنّابة).

تصبح الشهادات الأدبية الكفيلة بإلقاء بعض الضوء عـــن الحضـــور الفينيقي في الجزر الوسطى من المتوسط أكثر ندرة ولا تقدّم كما هو الشـــأن بالنسبة لهدرمتوم ولبدة وهيبو أية معلومات دقيقة من شأنها أن تساعدنا علـــى تحديد بدايات الحضور الفينيقي بهذه الجزر ويقع عادة الالتجاء إلى مقتطفيـــن شهيرين وردا لدى المؤرخين توقيديداس وديودروس الصقلي ففي معــــرض حديثه عن تاريخ صقلية قبل قدوم الإغريق إلى الجزيـــرة يشـــير المـــؤرخ الأثيني إلى أن الفينيقيين قطنوا بكامل سواحلها وخاصة النقـــاط المتقدمـــة نحـــو البحر والجزر الصغيرة الموجودة على مقربة من الساحل بهدف المتـــاجرة مـــع السيكوليين (Les Sicules) ولكنّهم اضطرّوا أمام زحف الإغريق إلـــى تـــرك معظم مواقعهم والتمركز في غرب الجزيرة فـــي مواقـــع موتيـــي (Motyé) وسولايس (Soleis) وبنورموس (Panormos) ويفسّر اختيارهم هـــذا بقـــرب المواقع الثلاث من الإيليم (Les Elymes) وأيضا بقصر المسافة بينـــها وبيـــن قرطاج (للتذكير نشير إلى أن توقيديداس يتعرّض على امتـــداد الفقـــرات التـــي تسبق حديثه عن مقدم الفينيقيين للشعوب التي استوطنت الجزيرة منـــذ تواريـــخ متقدّمـــة جـــدّا وهـــي شـــعوب السيكوليين (Les Sicules) والســـيكانيين (Les Sicanes).

أمّا ديودروس الصقليّ فقد شدّد على ثـــراء منطقـــة شـــبه الجزيـــرة الايبيرية بالمعادن وخاصة الفضة وتمكُّنِ الفينيقيين عن طريق المتاجرة مـــع السكان الأصليين من جمع ثروات طائلة سمحت لهم فـــي مرحلـــة لاحقـــة بتدعيم قوتهم وتأسيس عديد المستوطنات سواء في صقلية والجزر المحاذيـــة أو في لوبيا وسردينيا وإيبيريا.

وبالرغم من افتقار معظم مصادرنا للدقة يجوز لنا القول أنـــها تكـــاد تجمع على أن التوسّع الفينيقي عملية بدأت منذ نهاية القرن الثاني عشر قبـــل الميلاد على الأقل وسنعود إلى شهادات هؤلاء الكتاب عند تناولنـــا للجـــدل الذي أثارته التواريخ المتقدمة التي تقترحها.

بالإضافة لما تقدمه مصادرنا الكلاسيكية (الإغريقية واللاتينية) تتعرض العديد من أسفار التوراة إلى التوسّع الفينيقي نحو بلاد ترشيش وتذكر المواد التي كان يتمّ جلبها وترويجها من قبل أساطيل ملك صور الشهير حرم وشريكه سليمان ملك بني إسرائيل وتتحدّث هذه الأسفار عن وجهتين أساسيّتين لهذه الرحلات: بلاد أوفير وبلاد ترشيش لكن جهلنا للمعنى الأصلي للفظة "ترشيش" ولّد جدلا كبيرا بين الباحثين وقد زاد ورود الكلمة في مواضع متعدّدة بمعاني مختلفة في إضفاء هالة من الغموض على هذه القضية ذلك أنها وردت كتسمية في صيغة الجمع لنوع من السفن كما وردت أيضا كاسم علم ونجدها أخيرا كتسمية لنوع من الحجارة الكريمة.

يبقى السؤال الأهم الذي حاولت عديد الدراسات الإجابة عنه هو التالي: هل يمكن اعتبار بلاد ترشيش الواردة في التوراة هي نفس تارتسّوس (Tartessos) الواردة لدى المصادر الكلاسيكية؟

حاولت الكثير من الدراسات تحديد موقع بلاد ترشيش جغرافيا وقدّمت أجوبة متضاربة كالهند وأثيوبيا وبلاد أتروريا (L'Etrurie) وقبرص ورودس وقرطاج وإسبانيا... وتمثل هذه الدراسات بالرغم من تضارب الأجوبة المقترحة تيّارا واحدا في البحث سعي ويسعى حتى اليوم إلى محاولة تحديد الموقع الجغرافي لترشيش في مكان ما من المتوسط (أو خارجه) أما التيّار الثاني فيضم مجموعة من الباحثين تتفق اصطلاحا على إطلاق نعت "ترتيسية" على حضارة الأندلس إبّان الحركة الملاحية الفينيقية. وتتجه الأبحاث اليوم أكثر فأكثر نحو القبول بفرضية أن ترشيش هي تسمية لمنطقة موجودة جنوب إسبانيا أطلقت عليها المصادر الإغريقية تسمية تارتسّوس بحكم أن الكتّاب القدامى أطلقوا بدورهم هذه التسمية أحيانا على أحد أنهار المنطقة وأحيانا أخرى على مدينة واحدة.

II – التوسّع الفينيقي بالمتوسّط الغربي من خلال المصادر الأثرية والنقائشية

إذا عكفنا على دراسة الوثائق الأثرية فإنّنا سنلاحظ دون صعوبة أن أغلب المواقع الفينيقية لم تقدّم، إلا فيما ندر، مؤشرات مادّية تتجاوز القرن الثامن قبل الميلاد في أفضل الحالات.

المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة الايبيرية

سبق وأن بيّنا إجماع المصادر الأدبية على القول بأن المنطقة تزخر بمعادن كثيرة ومتنوعة جلبت إليها الفينيقيين منذ نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد إذ يعود تأسيس قادش حسب فليوس بتركولوس إلى حوالي سنة 1110 ق.م.

غير أنّ التواريخ التي تقدّمها المصادر الأثرية تظلّ متأخرة جدّا مقارنة بما أصطُلح على تسميته اليوم بالتواريخ المتقدّمة وقد أثبتت الحفريات اليوم وجود استغلال زراعي قديم في منطقة الوادي الكبير (Guadelquivir) وهو ما أقام الدليل على وجود حضارة زاهرة وقد دعّمت اللقى الأثرية المكتشفة في قبور قرمونة (Carmona) غير بعيد عن إشبيلية (Séville) في اتجاه الشمال هذه الفكرة لكن هذه اللقى لا ترقى زمنيا إلاّ إلى حدود القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. وبغضّ النظر عن قضية التأريخ فإن ما يلفت الانتباه هو وضوح التأثيرات الفينيقية على حضارة هذه المنطقة.

بالنسبة إلى قادش نلاحظ أن موقعها يوافق المواقع التي يحبّذها الفينيقيون عادة إذ تحتلّ وكما هو الحال بالنسبة إلى صور وموتيي جزيرة لا يفصلها عن الأرض سوى ممر مائي صغير وهي مواقع بقدر ما تؤمن لهم الحماية ضد الهجومات المفاجئة فإنها تظل مفتوحة على هذا العالم الذي ظلّ دائما قبلتهم وهو

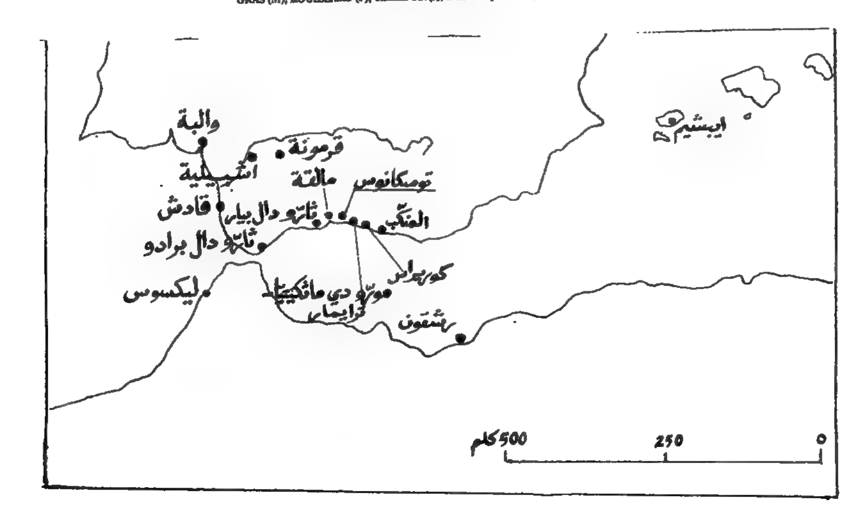
عالم البحر وبالرغم من شهرة هذا الموقع فإن الملف الأثري يظل هزيلا بسبب تواصل الحضور البشري به على امتداد العصور وقد سمحت الحفريات بالكشف عن بعض اللقى ذات الطابع الشرقي في موقع قوادلاتي (Guadalete) المواجه لقادش وهي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد

كشفت الحفريات على الساحل المتوسطي لشبه الجزيرة عن وجود مقبرة اتبع مستعملوها طريقة حرق جثث موتاهم وذلك على مقربة من المنكّب (Almunecar) وتعود أقدم قبور هذه الموقع إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد. في المقابل أمكن الكشف في موقع توكسانوس (Toscanos) الذي يوجد على مسافة ثلاثين كلم نحو الغرب عن شواهد تعود إلى أواسط القرن الثامن ويتعلّق الأمر بمجموعة من الغرف حيث تتكدّس كميّات هامة من الجرار والأواني الفخارية ويرجح أنها لعبت دور المخازن لتسهيل عملية المبادلات.

أما في منطقة ترايمار (Trayamar) فإن تواريخ اللقى المكتشفة داخل القبور الفينيقية المبنية من القوالب الكبيرة لا تتجاوز النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد ويرقى إلى ما بعد ذلك موقع ثارّو دال برادو (Cerro del Prado) الموجود في مقاطعة كاديكس (Cadix) (أواخر القرن السابع قبل الميلاد) فيما تعود بدايات استعمال المساكن المكتشفة في كوريراس (Chorreras) وموررّو دي ماثكيتيّا (Mezquitilla) إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

المراكز الفينيقية بإيبيريا

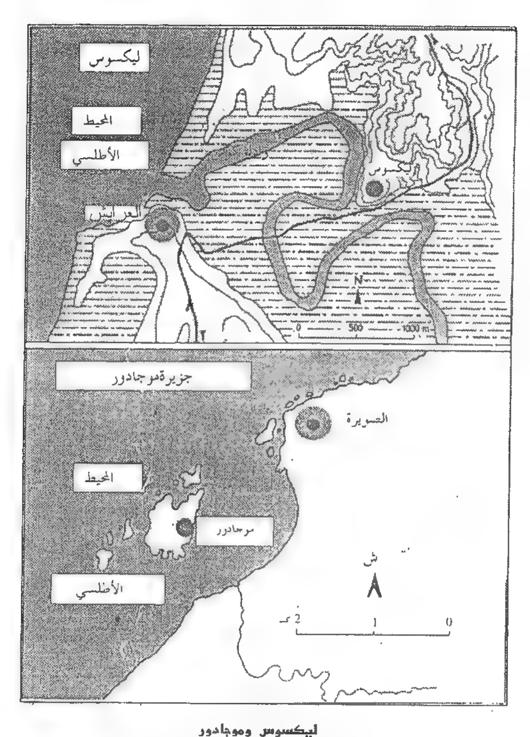
المصدر: GRAS (M), ROUILLARD (P), TEIXIDOR (J), L'univers phénicien, Paris 1989, p. 256



إجمالا يبرز هذا الجرد السريع تأخرا لا مجال للشك فيه للتواريخ التي يمكن استجلاؤها باعتماد الوثائق الأثرية مقارنة بما تقدمه مصادرنا الأدبية ولكن الحفريات ولئن لم تسمح حتى اليوم بالاقتراب من التواريخ المتقدمة فإنها تسمح الآن باستقراء بعض ملامح هذا الحضور الفينيقي على الأقل بداية من القرن الثامن قبل الميلاد إذ يمكن لنا اليوم القول أن استغلال المعادن يتنزل جغرافيا في جنوب غرب شبه الجزيرة الايبيرية وبالتحديد على مستوى ظهير ولبة (Huelva) وقادش (معدني الفضة والنحاس) وسيارا مورينا (Sierra Morena) وإشبيلية وسيارا المقريرا (رصاص وفضة) كما يرجح أن القصدير كان يبلغ المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة قادما من جنوب منطقة البروطاني الفرنسية (La Bretagne) وانقلترا وجزر الكاستريد (Les Cassitérides) وهكذا أمكن لتارتسوس إذن أن تلعب بالإضافة لدور المنتج دور الحلقة التجارية المحورية حيث تتجمع بها المعادن التي لا تنتجها المنطقة غير أن المواقع الفينيقية وكما سبق أن أوضحنا لم تقدم الدليل حتى الآن على وجود عمليات تحويل أو تصنيع لهذه المعادن ونتيجة لذلك نميل إلى افتراض أن الفينيقيين اهتموا بالأساس بالمتاجرة بهذه المواد المعدنية دون التدخل في استخراجها فباختيارهم لقادش ذات الموقع القريب من منطقة تارتسوس فانهم أرادوا الجمع بين الاقتراب من المنتجين وفي الآن نفسه المحافظة على استقلاليتهم.

الساحل الأطلسي الإفريقي

تطرح قضية الاختلاف بين التواريخ التي تقدمها المصادر الأدبية وتلك التي تزودنا بها مصادرنا الأثرية كذلك وبكل أبعادها بالنسبة للمواقع الفينيقية الموجودة على الساحل الأطلسي الإفريقي إذ لا ترقى اللقى الأثرية المكتشفة بموقعي ليكسوس وتانجيس(Tingis) إلى ما هو أقدم من القرن السابع. وقد سمحت بعض الشقفات الفخارية المكتشفة بموقع موجادور (Mogador) بالصعود إلى أواسط القرن السابع ويتعلق بشقفات أتيكية (attiques) وأيونية (ioniennes) لا نجد نظيرا لها في قرطاج.



ليكسوس وموجادور

المصدر GRAS (M), ROUILLARD (P), TEIXIDOR (J), L'univers phénicien, Paris, 1989 p.264.

(ملاحظة قمنا بتعريب أسماء المواقع)

أوتيكا

خلافا لما كان عليه الأمر إلى نهاية العصر القديم يوجد موقع أوتيكا اليوم بعيدا عن ساحل البحر بسبب تراكم طمي واد مجردة في المصب. وقد خيب هذا الموقع آمال علماء الآثار الذي عولوا عليه لمحاولة حل قضية جذور التوسع الفينيقي ولكن الحفريات الأثرية وخاصة منها تلك التي أنجزها ب.سنتاس (P.Cintas) لم تكشف عن لقى تعود إلى ما قبل منتصف القرن الثامن.

سردينيا

تعود أقدم آثار الجزيرة إلى بداية الربع الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد وتم الكشف عنها في سلكيس (Sulcis) لكن معظم الدراسات اليوم تميل إلى الاعتقاد بأن الحضور الفينيقي على سواحل سردينيا بدأ قبل هذا التاريخ وذلك اعتمادا على نقيشة نورا (Nora) الشهيرة والتي أثارت بدورها جدلا مطولا.

يبلغ طول الحجر الذي نقش عليه النص اليوم 120صم تقريبا ويحوي 44 حرفا موزعا على ثمانية أسطر. وبالرغم من إجماع المختصين (إذا ما استثنينا الحرف الأول من السطر الثاني) على قراءة واحدة فإن معنى النص لا يزال موضع اختلاف بينهم ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى غياب رموز (أسطر عمودية صغيرة أو نقاط) تفصل بين الكلمات فتضاربت نتيجة لذلك التأويلات لكن ما يمكن الاحتفاظ به هو أن النقيشة بإجماع كل الباحثين تخلد ذكرى قيام الفينيقيين ببناء معلم؟ وربما تعلق الأمر بمجرد نقيشة للإله بومي (Poumay) وبالتالي فإن الفينيقيين حرصوا في كل الحالات على ترك أثر مادي يشهد على حضورهم.

إلى أي تاريخ يعود هذا النص النقائشي؟

تجدر الإشارة منذ الانطلاق إلى أن المقياس المعتمد من قبل المختصين في محاولاتهم تأريخ نقيشة نورا هو الباليوغرافيا وقد ساد الاعتقاد طويلا ومنذ سنة 1924 على إثر اهتمام الباحث الفرنسي ر.ديسو (R.Dussaud) بالإجابة عن هذا السؤال معتمدا مقارنة نصنا بنقيشة كيلاموا (Kilamua) التي تعود إلى سنة 825 ق.م أن نقيشة نورا تعود إلى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ولم يمنع هذا الرأي الشائع معارضة بعض المختصين الذين دافعوا عن فكرة إنزال تاريخها إلى القرن السادس وحتى القرن الخامس قبل الميلاد. ولكن نظرة متمعنة في شكل بعض الأحرف وخاصة منها الألف والواو والتسادي والميم تدفع معظم المهتمين نحو القبول أكثر فأكثر بأن نقيشة نورا تعود إلى الفترة العتيقة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التشابه الكبير بينها وبين بعض النصوص النقائشية المكتشفة في قبرص والتي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

صقلية

تطرح قضية تأريخ بدايات الحضور الفينيقي في هذه الجزيرة أيضا بنفس المعطيات تقريبا ومرة أخرى تبدو الهوة الزمنية بين التواريخ الأدبية والتواريخ الأثرية واضحة باعتبار أن الدلائل المادية هنا أيضا لا تتجاوز القرن الثامن قبل الميلاد (شواهد فخارية في موقع موتيي بأقصى غرب صقلية) إذا استثنينا تمثالا صغيرا من البرنز وقع العثور عليه في عرض مدينة سيلينونت (Sélinonte) وهو يعود إلى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ويرتبط دون شك بمجموعة من التماثيل المشابهة اكتشفت في الشرق ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: هل تم نقل هذا التمثال إلى المنطقة عن طريق الفينيقيين وهل يحق لنا اعتبار هذا الاكتشاف دليلا ماديا جازما على قدم ارتيادهم لها؟ في الحقيقة لا يمكن القطع بأن هذا التمثال قد جلب من قبل الفينيقيين ذلك أننا إذا سلمنا بأن بدايات توسعاتهم نحو الغرب المتوسطي بدأت مع نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد فإنه

يجب علينا في هذه الحالة أن نجد إجابة مقنعة تفسر الفارق الزمني بين تاريخ صنع هذا التمثال (XIII-XIV ق.م) وفترة أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد يضاف إلى ذلك أنه من غير المستبعد أن يكون التجار الميسينيون (Les Mycéniens) هم الذين نقلوا التمثال إلى الجزيرة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن توسعاتهم التجارية مست شرق المتوسط وغربه.

أخيرا لابد لنا من أن نثير اعتراضا أخيرا يكتسي طابعا منهجيا ذلك أن الحذر المعرفي يدفعنا إلى تجنب خطر بناء أحكام بالاعتماد على اكتشاف من هذا النوع إذ يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن التمثال البرنزي تمثال صغير الحجم يسهل نقله من مكان إلى آخر.

في المقابل تبدو لنا الحجج المعتمدة من قبل ل.ب.بريا (L.Bernabo Brea) أكثر تماسكا إذ أن هذا الباحث لاحظ أن حضارة صقلية العتيقة تستمد جذورها من تلاقح حصل بينها وبين حضارة كان مهدها في شرق المتوسط ويضرب على ذلك مجموعة من الأمثلة أهمها ما كشفت عنه بعض الحفريات من أباريق تتخذ شكل قوارير مكورة تزايد استعمالها خلال الفترة الممتدة بين القرنين XI وX ق.م. إضافة إلى مجموعة من الخواتم الحديدية تم الكشف عنها في مقابر موليتودلا باديا (Mulino della Badia) وتعود بدورها إلى القرن العاشر قبل الميلاد وربما تكون قد جلبت من قبل الفينيقيين ويمكن أن نضيف أخيرا مجموعة من الجعلان والتمائم المصنوعة من عجين البلور عثر عليها في سرقوسة وميغارا (Megare) وكالتيجيرون (Caltigirone) ويرجح أن التجار الفينيقيين هم الذين تولوا ترويجها في الجزيرة.

في نفس هذا الإطار تمكن الباحث ف. توزا (V.Tusa) من استقراء بعض ملامح هذه التأثيرات الفينيقية في مواقع أخرى من صقلية كتابسوس (Thapsus) حيث اكتشفت مجموعة من القبور التي تتخذ شكل آبار جبابية وتبدو التأثيرات الفينيقية واضحة عند التأمل في مجموعة من الأكواب المعدنية

المكتشفة في جيلا (Géla) وسان انجيلو موكسارو (San Angelo Muxaro) والتي تعود إلى هذه الفترة الأولى من الحضور الفينيقي وقد أطلقت عليها بعض الدراسات تسمية الفترة "ما قبل الاستعمارية" (Précoloniale) وتعكس هذه الاكتشافات وجود تجارة "مترفة" موجهة على ما يبدو نحو أقلية ثرية رأت وكما بين ذلك س.ف.بوندي (S.F.Bondi) في امتلاك هذه النوعية من البضائع رمزا لوضع اجتماعي معين ومقياسا للتميز.

إجمالا وعلى الرغم من الجهود المبذولة يظل الملف الأثري فيما يتعلق ببداية الحضور الفينيقي فقيرا بالنسبة إلى معظم إن لم نقل كل المناطق التي مسها هذا التوسع وهي ظاهرة اصطلح على تسميتها بظاهرة "صمت الآثار" وهي التي دفعت ببعض الباحثين إلى إخضاع شهادات الكتاب القدامى إلى نقد متشدد انتهى بالبعض منهم إلى حد اعتبارها شهادات غير موثوق في صحتها بحكم أنها اعتمدت من وجهة نظر هؤلاء دائما، منظومة تأريخ اعتباطية مستوحاة من مؤلف الكاتب الإغريقي تيمايوس الطاورميني والذي يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد ومن هذا المنطلق فإن تعدد الشهادات الأدبية لا يقيم الدليل على أن مصادرنا يدعم بعضها البعض بقدر ما يثبت وقوعها في التكرار ويمكن للمتأمل في الدراسات الفينيقية البونية أن يلاحظ دون صعوبة أن البحث في هذه القضية اتبع ثلاث اتجاهات كبرى هي الآتية:

* اتجاه أول: يقبل بشهادات الكتاب القدامى ويثق بها ويعتبر أصحابه أن بدايات التوسع الفينيقي يمكن أن ترقى فعلا إلى نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد مع تأسيس قادش سنة 1110 ق.م وأوتيكا 1101 ق.م وبالتالي فهم يقرون بأسبقية التوسع الفينيقي زمنيا مقارنة بالتوسع الإغريقي.

* اتجاه ثان: اعتمد أصحابه أساسا وكما هو متوقع على معطيين أساسيين يتمثل الأول في حجة صمت الآثار وغياب الشواهد المادية التي تقيم الدليل على أن التوسعات الفينيقية بدأت قبل القرن الثامن قبل الميلاد أما المعطى

للثاني فيتمثل في رفضهم شهادات المصـــادر الأدبيـــة بعـــد إخضاعـــها للنقـــد والتشكيك.

* اتجاه ثالث: برز على امتداد العشرين سنة الأخيرة تقريبــــا إذ حـــاولت مجموعة ثالثة من المؤرخين وعلماء الآثار أن تنحو منحى انبنى علـــى محاولـــة التوفيق بين المعطيات الأدبية والمعطيات الأثرية. ويقر هؤلاء بأســـبقية التوســـع الفينيقي بالمقارنة مع التوسع الإغريقي وبالتالي فهم يقبلـــون إجمـــالا بمـــا يقدمـــه الكتاب القدامى ولكن ليس حرفيا كما أنهم يعترفون بغياب الأدلـــة الماديـــة علـــى الحضور الفينيقي قبل القرن الثامن بالنسبة لمعظم المواقع الفينيقية بغرب المتوســـط ويدافع عدد من أنصار هذا التيار عن فكرة أساسية مفادها أن توسعات الفينيقييـــــن بدأت وكما هو الشأن بالنسبة للتوسعات الإغريقية بفترة استكشـــاف أو اســـتطلاع يمكن تسميتها بفترة "ما قبل الإستيطان" وطبيعي أن لا يكون للمستوطنات الفينيقيـــة خلال هذا الطور أي ظهور أو امتداد جغرافي وبالتالي فإن هذه المرحلة اقتصـــرت على إقامة مجرد محطات صغيرة (مخازن) قام بتسييرها أعوان أو قضـــاة كـــانوا مرتبطين بالمدينة الأم وبديهي حسب أصحاب هذا الرأي أن حضورا علـــى هـــذه الشاكلة لا يمكن أن يترك آثارا مادية ملموسة ويستشهد هـــؤلاء خاصـــة بنـــص توكيديداس الشهير وقد سبق أن تعرضنا له فالمؤرخ الأثيني إستعمل عند وصفـــه للحضور الفينيقي قبل قدوم الإغريق لفظة عامة تغطي معنى "ارتيـــاد" وحضـــور" وبالتالي فإنه لم يستعمل لفظة تؤدي معنى "احتل" أو "احتلال" بالرغم مـــن وجـــود مثل هذه الألفاظ في لغته الإغريقية وفي نفس هذا الاتجاه يمكن أن نفـــهم العبـــارة الواردة لدى نفس الكاتب عند ذكره لمواطن تمركز الفينيقيين إذ اســـتعمل عبـــارة عامة "هنا وهناك" أي سلسلة من المحطات الساحلية المتناثرة على ساحل صقليـــة دون أي امتداد نحو دواخل الجزيرة وانطلاقا من هذا التحليـــل يخلـــص البـــاحث س.موسكاتي (S.Moscati) إلى القول بأن عملية المتـــاجرة لا تعنـــي بـــالضرورة وجود مستوطنات خاصة إذا استعملنا لفظة "مستوطنة" بالمعنى الذي كـــان رائجـــا لدى الإغريق.

هذا التصور العام للتوسعات الفينيقية يبدو للوهلة الأولى تصورا منطقيا يمكن القبول به ولكن يجب أن نبدي في شأنه مجموعة من الملاحظات الهامة:

- الملاحظة الأولى هي أن مصطلحي "فترة ما قبل الإستيطان" و"فترة الإستيطان" أو الفترة الإستيطانية هي مصطلحات تنطبق بالدرجة الأولى على حركة التوسعات الإغريقية وبالتالي لسنا في مأمن من خطر إسقاط واقع حضارة أجنبية على واقع الحضارة الفينيقية.

- الملاحظة الثانية: وترتبط وثيق الارتباط بالملاحظة السابقة فلو قبلنا جدلا بهذا التصور فإن ذلك يفترض منا القبول بفكرة أن الفترة الاستطلاعية الأولى تمهد بالضرورة للفترة الثانية أي الفترة الإستيطانية ومن هنا بطرح السؤال الهام التالي هل أن الأمر يتعلق فعلا بحركة تمهد للإستيطان؟ ذلك أن الحركة الملاحية الفينيقية تواصلت حتى القرن السادس قبل الميلاد أي بعبارة أخرى حتى تواريخ يفترض أن تكون خلالها طبيعة المحطات الأولى قد تغيرت ويكفي للتدليل على ذلك التذكير بأن فرعون مصر نيكاو (Néchao) (610-595 قبل الميلاد) كلف البحارة الفينيقيين بالقيام بدورة استكشافية حول القارة الإفريقية فانطلقوا من البحر الأحمر قبل أن يعودوا - حسب رواية هيرودوت - بعد ثلاث سنوات عبر مضيق جبل طارق؟ وبالتالي يجوز لنا أن نعتبر أن "الإستيطان" و"الحركة الملاحية التجارية" ظاهرتان متوازيتان ونخلص للقول بالتالي أن هناك تمازج بين الظاهرتين لدى الفينيقيين.

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن لنا أن نفترض أنه بداية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد توالت هجومات شعوب البحر على ساحل سوريا وفلسطين متسببة في تدمير عديد المراكز الموجودة على الساحل الفينيقي كأوجاريت وأرادوس (Arados شمال فينيقيا) وربما بيروت ويبدو أن صيدا عانت بدورها الكثير من هذه الهجومات كما نرجح أن مدينة جبيل (Byblos) فقدت تحت تأثير نفس هذا العامل زعامتها.

وضعت هذه الهجومات في الآن نفسه حدا للهيمنة المصرية على المدن الفينيقية وتبعت ذلك على ما يبدو فترة من الاضطراب والفوضى الداخلية ويمكن الإشارة إلى أن التوراة تعرض إلى الخلافات المتواصلة بين بني إسرائيل وجيرانهم. وتدعم الحفريات هذه الفرضية إذ تحطمت بعض المواقع كبيت لحم مثلا في أربعة مناسبات خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد.

غير بعيد عن الساحل الفينيقي عرفت جزيرة كريت (La Crète) حضارة لامعة سميت بالحضارة المينوية (La civilisation minoenne) اعتمدت المبادلات التجارية واستغلال أراضي الجزيرة الخصبة وطور الكريتيون منذ سنة 2000 ق.م. على الأقل حضارة أثرت في كامل حوض بحر ايجه (La mer Egée) وتعتبر فترة القصور الأولى الممتدة بين سنتي 2000 و1750 ق.م. تقريبا إحدى أزهى فترات هذه الحضارة ويبدو أن زلزالا عنيفا دك قصور هذه المرحلة الأولى فأعيد بناءها ثانية بداية من سنة 1700 ق.م. تقريبا وتقيم هذه المعالم الدليل بصورة لا تدع مجالا للشك على درجة التطور الذي عرفته الحضارة المينوية خلال ما اصطلح على تسميته "بفترة القصور الثانية".

خلال هذه الفترة اجتاح الأخيون (Les Achéens) جزيرة كريت وتشبعوا بمقومات حضارة من قاموا بالسيطرة عليهم ويبدو أن الكريتيين قاموا بتهذيب أذواق هؤلاء الغزاة وعلموهم مبادئ الملاحة والكتابة وترتب عن هذا التلاقح بين الحضارتين ما يعرف بالطور الثاني من الحضارة الميسينية في تاريخ بلاد الإغريق والممتدة من منتصف القرن الخامس عشر إلى مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد وتمكن الميسينيون خلال هذه الفترة من ربط علاقات تجارية بين الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط ولكن هجومات الدوريين (Les Doriens) خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد جاءت لتضع حدا نهائيا لهذه الحضارة اللامعة وستتراجع نتيجة لذلك اهتمامات بلاد الإغريق بالمبادلات البحرية.

استغلت مدينة صور هذه الظرفية لتنطلق في حركتها التوسعية ويبدو أن البحث عن المعادن هو الذي دفع بالصورانيين نحو أقصى غرب المتوسط ولتوفير أفضل الظروف لحركتهم الملاحية اضطر الفينيقيون للبحث عن مواقع للإرساء على طول الخط الرابط بين الشرق وأقصى غرب المتوسط وقد ساعدهم على ذلك توفر مجموعة من الجزر تقع بين قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا وتختصر مراحل الملاحة ونتيجة لكل ذلك مست التوسعات الفينيقية في الشرق خاصة قبرص (حضور دائم) وسواحل آسيا الصغرى وجزيرة كريت وجزر بحر ايجه (حضور تجاري) أما في الغرب فقد بلغت مالطة والجزر الصغرى المحاذية بالإضافة إلى صقلية وسردينا وجزر الباليار وجنوب إسبانيا دون أن ننسى بالطبع السواحل الإفريقية حيث أسس الفينيقيون إحدى أهم مستوطناتهم التي ستلعب دورا استثنائيا في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط ولقد عنينا بالتأكيد قرطاج.

مصادر الفصل الثاني ومراجعه

من العسير جدّا الإحاطة بكل عناوين الدراسات التي تناولت مسألة التوسع الفينيقي من قريب أو من بعيد لذلك فضّلنا أن نضع على ذمة القارئ ما يمكن أن نطلق عليه تسمية "اتجاهات بيبلوغرافية عامة" كفيلة بإحالته عند الاقتضاء على مراجع أخرى أكثر تفصيلا كما نلفت انتباهه إلى أنّنا لم نأخذ بعين الاعتبار في هذا الجرد غير المسهب الإحالات المتعلّقة بمسألة تأسيس قرطاج والتي نتعرض لها بالدرس في الفصل الموالي من هذا الكتاب.

1 – المصادر

كنّا أشرنا على امتداد هذا الفصل إلى فقر المادة المصدرية الأدبية ولكن وبالرغم من ذلك بدا لنا من المفيد مدّ القارئ بأبرز الإحالات المعتمدة في دراسة تاريخ التوسّعات الفينيقية وهي

- VELLEIUS PATERCULUS. I, 2, 3 (قادش وأوتيكا)

- STRABON I; 3; 2 (المستوطنات الفينيقية باسبانيا) -

- POMPONIUS MELA III, 6 (المستوطنات الفينيقية باسبانيا)

- PLINE XIX, 4 (ليكسوس)

-PLINE XVI, 40 (أوتيكا)

- PSEUDO-ARISTOTE, *Sur les merveilles étendues* 134 (أوتيكا)

- FLAVIUS JOSEPHE, *Antiquites Judaiques*, VIII, 13, 2 (أوزا)

- SALLUSTE, *Jugurtha*, XIX, 1 (هيبو، هدرمتوم، لبدة)

- SILIUS ITALICUS III, 256 (لبدة)

- PLINE, V, 76 (لبدة)

- THUCYDIDE, VI, 2,6 (موتيي، سولايس، بنورموس)

- DIODORE V, 20 (المستوطنات الفينيقية في صقلية والجزر المحاذية..)

(ترشيش)

- LA BIBLE (التوراة) *Ezechiel*, 27, 12, *Genèse*, 10, 4, I, *Chroniques* 1, 17, II *Chroniques* 9, 21

2 – المراجع

أ – مراجع تناولت قضية التوسع الفينيقي بصورة عامة

* ALBRIGHT (W.F), « New light on the early history of phoenician colonisation », in, *Bulletin of the American schools of Oriental Research, 83*, (1941) pp. 17-22.

* BONDI (S.F), « i Fenici in Occidente », in, *Forme di contatto e processi di trasformazione nelle società antiche - Atti dil convegno di Cortona* 24-30 maggio 1981 - Pisa - Roma (1983) pp. 379-407.

* BUNNENS (G), *L'expansion phénicienne en Méditerranée. Essai d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littéraires*, Brux- Rome, 1979.

* CARPENTER (R), « Phoenicians in the West », in, *American Jounal of Archaeology, 62*, (1958) pp. 35-53.

* CULICAN (W), « Aspects of Phoenicians settlement in the West Mediterranean », in, *Abr -Nahram I*, (1959-1960) pp: 36-55.

* GARBINI (G), « L'espansione fenicia nel Mediterraneo », in, *Culture e Scuola, 7,* (1963) pp. 92-97.

- « I Fenici in occidente », in, *Studi Etruschi, XXXIV,* (1966) pp. 111-117.

* MOSCATI (S), « L'espansione fenicia nel Mediterraneo occidentale », in, *Phonizer im Westen (H G.Nimeyer editeur)* Mayence (1982), pp. 5-12.

ب – حول التوسع الفينيقي بجنوب إسبانيا انظر مثلا

* *La Revue de l'Institut Allemand de Madrid. Madrider Mitteilungun III* (1962) et suiv.

* AUBET - SEMMLER (M E), « Zur problematik des orientalisierenden horizentes anf der Iberischen Halbinisal », in, *Phoenizer, im Westen* ذكر سابقا pp. 309-335

* BLASQUEZ (J.M), *Tartissos y los origenes de la colonisaciones fenicia en Occidente,* Salmanaca, 1975.

* BEN ABED (F), « Les Phéniciens dans la péninsule iberique Une nouvelle lecture des données archéologiques », in, *Actes du III Congrés International des Etudes Phéniciennes et Puniques Tunis 11-16 nov 1991,* Tunis (1995) pp. 109-122 (avec une bibliographie très utile).

ت – حول المواقع الفينيقية بالمغرب الأقصى انظر

* JODIN (A), *Mogador, comptoir phenicien du Maroc atlantique* Tanger, 1966.

* PONISH (M), *Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger (Etudes et travaux d'archéologie marocaine III)* Tanger, 1967.

ث – حول أوتيكا

* CINTAS (P), « Deux campagnes de fouilles à Utique », in, *Karthago II*, (1951) pp. 5-88.

- « Recherches à Utique », in, *Karthago, V*, (1954) pp. 87-161.

ج – حول صقلية انظر

* BISI (A.M), « Fenici o Micenei in Sicilia nella seconda meta del II millenio à C? », in, *Atti e memorie del I congresso internazionale di Miscelanea*. Roma (1967) pp 1156-1168.

* BONDI (S.F), « La sicilia fenicio - punica: il quadro storico et la documentazione archeologica », in, *Bolletino d'Arte*, 31-32 serie VI, (1985) pp. 13-33.

* BREA (L.B), « Leggenda e archeologie nella protostoria siciliana », in, *Kokalos, 10-11*, (1964 -1965), pp. 1-33.

* TAHAR (M), *Recherches sur les rapports entre Carthage et la Sicile punique*. Thèse 3ème cycle (dacty) Paris I, 1991 Tome I p. 25 et suiv.

* TUSA (V), « La statuetta fenicia del Musco Nazionale di Palermo », in, *Rivista di Studi Fenici, 1*, (1973), pp. 173-179.

- « La presenza fenicio punica in Sicilia », in, *Phonizier im Westen* (ذكر سابقا) pp. 95-112.

ح – حول التوسع الفينيقي بسردينيا انظر

* MOSCATI (S), « La penetrazione fenicia e punica in Sardegna », in, *Rendiconti all' Accademia Nazionale di Lincei, serie 8, XVII* (1966) pp. 215-250.

- « Fenici e Cartaginesi in Sardegna ». Milano, 1968.

- « Sulcis, colonia fenicia in Sardegna », in, *Rendiconti della Pontifica Accademia Romana di Archeologia, 53-54* (1980-82), pp. 347-367.

خ – أسالت نقيشة نورا (سردينيا) الكثير من الحبر انظر مثلا

* *CIS, I,* 144

* DUPONT-SOMMER (A), « nouvelle lecture de l'inscription archaïque de Nora en Sardaigne (CIS, I, 144) », in, *CRAI,* (1948), pp. 12-22.

* FÉVRIER (J.G), « l'inscription archaïque de Nora », in, *Revue d'Assyriologie et d'Archéologie orientale 44,* (1950) pp. 123-126.

* FERRON (J), « la pierre inscrite de Nora », *in, Rivista* degli Studı Orientale, 41, (1966) pp. 281-288.

* AMADASI (M.G.G), *le inscrizione fenıcie e puniche delle colonie in Occidente* - Roma, 1966 p. 83 et suiv.

د – حول قضية الفترة الاستعمارية والفترة ما قبل الاستعمارية انظر

* BISI (A.M), « Modalità e aspetti degli scambi fra oriente e occidente fenicio », in, *momenti precoloniali nel mediterraneo antico. Atti del convegno internazionale. Roma 14-16 marzo 1985.* (1988), pp. 205-226.

* BONDI (S.F), « Problemi della precolonizzazione fenecia nel mediterraneo centro-occidentale », in, *momenti precoloniali.* ذكر سابقا pp. 227-235.

* MAZZA (F), « la « Precolonizzazione » fenıcia, Problemi storici e questione metodologiche », in, *Momenti precoloniali,* ذكر سابقا, pp. 191-203.

* MOSCATI (S), « Precolonizzazione greca e precolonizzazione fenicia », in, *Rivista di Studı Fenici 11,* (1983), pp 1-7.

- « Tucidide e i Fenicı », in, *Rivista, di Filologia e di Instruzione Classica, 113* (1985), pp. 129-133.
- « I Fenicı e il mondo mediterraneo al tempo di Omero », in, *Rivista di Studı Fenicı, XIII*, (1985) pp. 179-189
* TUSA (V), « la colonizzazione fenicia e le culture alleniche di Sicilia », in, *Momenti precoloniali* (ذكر سابقا) pp. 277-291.

ذ – حول التوسعات الميسينية انظر على سبيل المثال أعمال المؤتمرين

* *Magna Grecia e mondo miceneo. Atti del XXII Convegno di Studi sulla Magna Grecia.* Tarente, 1982.
* *Momonti precolonıali* (ذكر سابقا)
- GODART (L), « Minoici e Micanci: precolonizzatori e precolonizzati » pp. 43-57
- BRACCESI (L), « indızi per una frequentazione micenea dell' Adriatico » pp. 133-147.
- LEVÊQUE (P), « reflexions terminales sur la dynamique précoloniale » pp. 177-187.

الفصل الثالث

تأسيس قرطاج

يمثل تأسيس قرطاج حدثا مركزيا في مجرى التوسّع الفينيقي في غرب المتوسط. إذ تطورت هذه المدينة لتضطلع بدور هامّ في مستقبل الفينيقيين بالمنطقة، اعتبارا للمكانة الريادية التي اكتسبتها سياسيا واقتصاديا وعسكريا تجاه بقية المراكز الفينيقية، ثم تجاه القوى التي ارتبطت بها أو نافستها على امتداد تاريخها وهي تباعا: الأهالي الأفارقة والإغريق والأترسكيون والرّومان والايبيريون فالممالك النوميدية في ما بعد.

وقد تطوّرت قرطاج إلى مدينة – دولة ثمّ إلى عاصمة استقطبت مصالح فينيقي غرب المتوسّط حيث تمكّنوا من تأصيل الظاهرة الحضارية البونية التي تمثل نتاجا لإضافاتهم إلى مختلف شعوب محيطهم الجديد وتفاعلهم معها.

ولئن لم يكن تأسيس قرطاج في أواخر القرن التاسع ق.م (814 ق.م) حدثا مستجدّا حيث أنّ أولى المراكز الفينيقية المشار إليها في الفصل الثاني ترقى إلى أواخر القرن الثاني عشر ق.م. فإنّ قرطاج – خلافا لسابقاتها – انفردت بأهم الأدوار التاريخية لذلك تبدو في مظهر المركز الذي يختزل التاريخ البوني.

يتّضح أوّل تأكيد لهذه المكانة من خلال إفراد المصادر الإغريقية واللاتينية رواية متكاملة لتأسيس لقرطاج. وهي رواية تتجاوز في صيغها التاريخية والأدبية الإشارات المحدودة لتأسيس بقية المستوطنات الفينيقية مثل قادش وأوتيكا وتبدو أقرب إلى روايات تأسيس المدن – الدول الإغريقية أو رواية تأسيس روما.

وقد أثارت رواية تأسيس قرطاج تساؤلات عديدة وكانت منطلقا لقراءات مُختلفة، فقد وردت لدى المؤرخين الإغريق واللاّتينيين متأثرة بعناصر روايات

تأسيس المدن المميزة للذهنية الإغريقيّة، ثم أضفت عليها المصادر اللاتينية التاريخية والشعرية الملحمية إسقاطات واستعارات متأثرة بتبعات الصراع القرطاجي الروماني. ولمجمل هذه الاعتبارات فإن قراءة مختلف أوجه الروايات لابدّ أن تنفذ إلى العناصر اللغوية والرّمزية وتبحث في دلالاتها من خلال مقاربة نقدية شاملة تتجاوز المراجعة التاريخية ذلك أن العديد من جوانب الرواية يتجاوز الإثبات التاريخي ويفيدنا من الناحية الرمزية.

أمّا التساؤل الثاني الذي أثاره تأسيس قرطاج، فيتجاوز الرواية المشار إليها ويبحث في عناصر تفسيرية إضافية اعتمادا على خصائص الإطار التاريخي والظرفية التي سادت بفينيقيا وشرق المتوسط خلال القرن التاسع قبل الميلاد. وهي ظرفية أدت إلى تأسيس قرطاج كمستوطنة ذات نوع خاصّ من حيث موقعها والدّور الموكول إليها. ومن أبعاد ذلك البحث في فرضية التأسيس المعدّ له في صور والمبرمج في أعلى مستوى على عكس ما تنصّ عليه بعض الروايات من طابع عرضيّ.

وفضلا عن تحليل الرواية والإطار التاريخي لنشأة قرطاج فقد مثّلت المقاربة الأثرية رافدا أساسيا في بلورة تصوّر متكامل للمسألة، إذ مكنت عمليات سبر ودراسة الأحياء العتيقة للمدينة من الملاءمة بين تأريخ أقدم اللقى الأثرية والروايات التي ترجع تأسيس قرطاج إلى أواخر القرن التاسع ق.م (814 ق.م) فاستبعدت بذلك الروايات التي تقترح تاريخا متقدما يعود إلى أواخر الألف الثانية بقدر ما استبعدت النّزعات النقدية المعاصرة التي أرجعت تاريخ التأسيس إلى أواسط القرن السابع ق.م.

يمكن دراسة تأسيس قرطاج اعتمادا على المحاور المعلنة أي المصادر الأدبية التي قدّمت رواية متكاملة لنشأة المدينة أو المدينة الحديثة (قرت حدشت) ثمّ البحث في عناصر التفسير الإضافية من خلال الإطار التاريخي في الشرق الفينيقي والمتوسّط واستنتاجات البحث الأثرى في موقع قرطاج.

1 – تأسيس قرطاج : الروايات التاريخية

يتمثل القاسم المشترك بين روايات تأسيس قرطاج في طابعها المتأخر بالنسبة إلى تاريخ نشأة المدينة المتّفق حوله أي سنة 814 ق.م، فأقدم مصادرنا مؤرخة بالقرنين الرابع و الثالث ق.م. وتواصل تواترها في الكتابات الإغريقية واللاتينية بعد سقوط قرطاج سنة 146 ق.م من ذلك النصوص المتكاملة التي دوّنت أو نقلت خلال القرنين الأوّل والثاني م. عن مؤلفين سابقين.

إنّ تواتر معطيات رواية التأسيس يفترض بالضرورة بعض الاختلافات بينها بسبب الإضافات وأحيانا لأخطاء النسخ. ومن أوجه الاختلاف أساس التاريخ المعتمد وهو الذي دفع بيار سنتاس (P.Cintas) إلى اعتباره مقياسا لتصنيف المصادر. فبوّبها إلى ثلاث مجموعات : الأولى هي تلك التي تعتمد تاريخا ثابتا وهو سقوط قرطاج في ربيع 146 ق.م. وتحدّد وفقا لذلك المدة التي عاشتها المدينة. ويكفي إضافة المدة المقترحة لتاريخ سقوط المدينة لضبط تاريخ نشأتها.

ومن ذلك مثلا تيتيوس ليفيوس الذي يفترض ان المدة التي عاشتها قرطاج هي 700 سنة ويرجع ضمنيا تأسيسها إلى 846. أما وليوس باتركولوس (Velleius Paterculus) فيقترح 667 سنة للمدة التي شغلها تاريخ قرطاج مما يجعل تأسيسها في حدود 813 ق.م. ونجد ضمن هذا التقليد كلاًّ من شيشرون (Cicéron) وأبيانوس الاسكندري وسولينوس (Julius Solinus).

أمّا القسم الثاني فيقوم على تقدير أسبقية تأسيس قرطاج على تاريخ تأسيس روما المثبت وفقا لتقويم وارّو (T.Varron) أي سنة 753 ق.م. فبالنسبة لوليوس باتركولوس سبق تأسيس قرطاج نشأة روما بـ65 سنة أي أنّه حصل سنة 818 ق.م.

أمّا يوستينوس فيقرّ بوجود فارق 72 سنة بين تأسيس المدينتين وهو ما يعني نشأة قرطاج سنة 825 ق.م.

نجد مجموعة ثالثة من المصادر التي تعتمد تاريخ الألعاب الأولمبية الأولى 776 ق.م. وأقدمها نصّ تيميوس الطاورمني عن دونيس أصيل هاليكارناس (Denys d'Halicarnasse) في مؤلّفه "التاريخ الروماني" (I، 74) الذي يؤرخ تأسيس قرطاج بالسنة 38 قبل الألعاب الأولمبية الأولى وهو ما يوافق سنة 814 ق.م.

ونجد نفس التأريخ ولو بفارق سنة واحدة واعتمادا على نفس المقياس – أي الألعاب الأولمبية – لدى كلّ من شيشرو (Cicero) وأرسطو – المنحول (Pseudo-Aristote)

تعود أقدم الروايات إلى ما بقي من كتابات المؤرخ الإغريقي تيمايوس أصيل طاورمينا المستوطنة الإغريقية التي أسسها والده أندروماكوس بشرق صقلية وقد عاش بين 340 و250 ق.م. فقد ألّف تاريخا لغرب المتوسط في 38 كتابا قدم له بدراسة جغرافية واثنوغرافية في الكتب الخمسة الأولى واهتمّ بتاريخ المنطقة من البدايات حتى أوائل القرن الثّالث ق.م. اعتبر أوّل من أرّخ من بين الإغريق لغرب المتوسط وقد انتبه إلى الأهمية المتزايدة لروما واهتم أيضا بتاريخ قرطاج التي كانت على صلة بإغريق صقلية فتيسّر لتيمايوس استقاء روايات من القرطاجيين المتمركزين غرب الجزيرة. وكتب مؤلفه أ أو قسما منه على الأقل في أثينا إذ غادر صقلية لما تولّى أغاتكلاس (Agathocles) الحكم في سرقوسة سنة 317 ق.م. وعاد إليها في فترة هيرون الثاني (Hieron II) أي بعد سنة 269 ق.م. بسبب مناهضته للحكم الاستبدادي المعروف بحكم الطغاة (La Tyrannie) ومن المرجّح أن الإقامة الطويلة لتيمايوس بأثينا مكنته من الاطلاع على روايات شرقية تهم أصول القرطاجيين وتأسيس قرطاج. ورغم اندثار كتاباته فإن ما بقي منها وتحديدا المقتطف 23 من الجزء الأوّل من "مقتطفات التاريخ الإغريقي" التي نشرها مولاّر (Müller) تمدّنا بملخص واضح عن تأسيس قرطاج أنجزه ناسخ مجهول ونورد في ما يلي

أهم عناصره. "يقول تيمايوس أن تيوسو (Theiosso) تسمّى في لغة الفينيقيين عليسة (Blissa) هي شقيقة بيقماليون (Pygmalion) ملك صور وهي التي أسست قرطاج في لوبيا (Libye) ذلك أن زوجها قُتل بإيعاز من بيقماليون فجمعت أمتعتها على سفينة وهربت بمعية البعض من مواطنيها وأرست في لوبيا بعد مصاعب عديدة وأطلق عليها الأهالي هناك اسم ديدو (Dido) بسبب كثرة ترحالها. وبعد أن أسست المدينة رغب ملك اللوبيين في الزواج منها فرفضت طلبه ولما حاول مواطنوها إقناعها بالأمر، تظاهرت بإجراء احتفال يخلصها من عهودها (تجاه زوجها) فأقامت محرقة كبيرة قرب مسكنها ومنه ألقت بنفسها في النار".

تكمن قيمة هذه الرواية في انفتاح مؤلفها على مصادر أو روايات قرطاجية، فرواية تيمايوس تمثل باعتبارها أقدم الرّوايات المصدر الرئيسي للكتابات اللاّحقة. فقد ذكرت هذه الرواية في صيغة إحالة مباشرة على تيمايوس لدى دونيس أصيل هاليكارناس (Denys d'Halicarnasse) وهو خطيب ومؤرخ إغريقي أقام بروما ابتداء من سنة 30 ق.م. في مؤلفه حول الأزمنة الأولى من تاريخ روما. كما نجد عناصرها الرئيسية في أهم الروايات اللاّتينية. قبل استعراض هذه الروايات نتناول مصدرا ينتمي إلى التقليد الشرقي القريب من المصادر الفينيقية المفترضة ويمثله فلافيوس جوزاف (Flavius Josephe) وهو مؤرخ يهودي عاش خلال القرن الأوّل م. (37-93م) وكتب "التاريخ اليهودي" (*Antiquitates Judaicae*) منذ البدايات حتى سنة 63م معتنيا فيه بعلاقة الممالك اليهودية بالمدن – الدّول الفينيقية وتحديدا صور نظرا إلى أهمية علاقتها بمملكة سليمان فتدرّج في استعراض تاريخها مشيرا في ثنايا ذلك إلى ظروف خروج مؤسسي قرطاج.

أما في كتابة "ضدّ آبيون *Contra Apionem*" فقد جادل آبيون المفكر الإغريقي الإسكندري الذي عبّر عن موقف نقدي إزاء الديانة والعادات اليهودية. استعرض في الجزء الأوّل (I،18،125-126) تاريخ تأسيس قرطاج ممهدا لذلك

بذكر مصدره المؤرخ الإغريقي ميناندروس الايفيزي (Ménandre d'Ephèse) الذي عاش خلال القرن الثاني ق.م ويذكر أنّه اجتهد في استقاء معلوماته المرتبطة بالأحداث التي جدّت لدى الإغريق وغيرهم من الحوليات الخاصة بكل شعب". فمرجعه في تأسيس قرطاج هو حوليات صور ويتّضح هذا التدقيق الوثائقي في روايته كما يلي: "خلف بيغماليون (Pygmalion) متّان (Mettên)، وعاش ستّا وخمسين سنة وتولّى الحكم طوال سبع وأربعين سنة، وفي السّنة السابعة من حكمه هربت شقيقته لتؤسّس مدينة قرطاج في لوبيا (Libye) وهكذا فإنّ الزّمن الفاصل بين حكم حرم (Hirôm) وتأسيس قرطاج يساوي مائة وخمسا وخمسين سنة وثمانية أشهر، وفي السنة الثانية عشرة من حكمه شيّد معبد سليمان وبين بناء المعبد وتأسيس قرطاج انقضت مائة وثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر".

تكمن القيمة الاستثنائية لهذه الرواية في تدوين ميناندروس الايفيزي لحوليات قائمة على الأرشيف الفينيقي الذي أمكنه الاطلاع عليه وضبط قائمة الملوك ومدة حكمهم ومنهم حرم ملك صور الذي تزامن حكمه مع حكم سليمان (970-931 ق.م).

وإذا استثنينا ما يحفّ من شكوك بمصدر هذه الرّواية فإنّها تتفق في حيثياتها مع ما أورده تيمايوس الطاورميني مع الملاحظ أننا نفتقر لمؤلّف المؤرّخ الاغريقي ميناندروس الايفيزي. لذلك لم يستبعد النقد المعاصر أن يكون فلافيوس جوزاف ملمّا برواية تيمايوس ولم يأخذ عن ميناندروس سوى جدول حوليات صور.

وممّا يدعم هذا الموقف زيارة المؤرّخ اليهودي لروما قبل سنة 66م ثم إقامته بها وحصوله على المواطنة الرومانية بعد سقوط أورشليم سنة 70م. فقبل تدوين آخر مؤلفاته ضد آبيون كانت رواية تيمايوس شائعة في الأوساط الرومانية سواء في الكتابات التاريخية وخاصة بفضل أشعار ورجيليوس (Publius Virgilius Maro 70-19 ق.م) الذي أسهم نصه الشعري "ملحمة أينياس" أو "الأينييس" (*L'Eneide/Aeneis*) في إشاعة الرّواية. فالأمر يتعلّق بملحمة

تأسيس روما والرّجوع إلى أصولها الطروادية فالبطل الملحمي أينياس Aeneas الذي هجر طروادة إثر سقوطها، أرسى بعد رحلة طويلة بإيطاليا حيث أسّس مدينة لافينيوم (Lavinium) ثم أسّس أبنه أسكانيوس (Ascagne) ويسمّى أيضا إيليوس (Iule) مدينة ألبا (Albe) ونجد في قائمة حكّامها الملك نوميتور (Numitor) جدّ رومولوس وريموس من ابنته إليا (Ilia) المسمّاة أيضا رياسلفيا (Rhéa - Silvia). وهكذا تنسب الأسطورة تأسيس رما إلى سلالة أينياس والطرواديين واعتبرت ملحمة ورجيليوس تتمّة للإلياذة والأوديسة. ووجب التذكير أن دراسة هذا الأثر تستند إلى تحقيق وتعليق سرويوس (Servius Maurus Honoratus) (النصف الثاني من القرن الرابع ـ بداية القرن الخامس م). واهتمّ في عمله "حول الأينييس" بالجوانب النحوية والأسلوبية مع صياغة ملاحظات وإضافات قيمة.

خصّص ورجيليوس الأناشيد الأربعة الأولى من الكتاب الرابع لإرساء الطرواديين بقرطاج ولقاء أينياس وديدو (Dido) وأهتم في النشيد الأوّل (الأبيات 335–369) بنشأة المدينة وحيازة المجال الذي أقيمت عليه عن طريق الحيلة المعروفة بقصة "جلد الثّور".

ونبرز فيما يلي ملخّص إرساء الطرواديين وتفاعلاته بقرطاج:

دفعت العاصفة برجال طروادة نحو ساحل لوبيا لمّا كانوا مبحرين من صقلية إلى إيطاليا، وبعد أن تولّى أينياس إخفاء سفنه، خرج يجوب الأرض التي حلّوا بها فلقيته أمّه فينوس (Venus) متنكّرة وأخبرته أن المدينة القريبة هي مدينة صورانية وأنّ ديدو (علّيسة) ملكتها قدمت هربا من سوء عمل أخيها ثمّ روت له أهمّ أطوار قصتها: "كان سيكيوس (Sichaeus) زوج الملكة ديدو من أغنى رجال فينيقيا وكان له أخ اسمه بيقماليون وهو ملك البلاد. ولما نشب بينهما خلاف أخذ بيقماليون أخاه على غرّة وهو يقدّم الضحية عند المذبح وفتك به ثمّ أخفى الأمر عدة أيّام عن ديدو وخادعها بالآمال فتمثّل لها زوجها في الحلم وطلب إليها أن تسرع بالهرب... أعدّت عدّتها وساندها جمع من خصوم

الملك واستولوا على سفن كانت مهيأة وحملوها بالذهب وكان فيها كنز بيقماليون ذاته وخرجوا هاربين يقطعون البحر ثمّ حلّوا بهذا المكان الذي ترى منه أسوار قرطاج وقلعتها واشتروا من الأرض ما قدروا على مسحه وإحاطته بسيور من جلد ثور لذلك سميت بيرصا...".

ثمّ يروي أينياس قصّة تيهه قبل أن ينتبه أن محدثته هي أمّه التي لفّته بضباب يحميه هو وصحبه لمّا اتّجهوا إلى أسوار المدينة يعاينون أشغال البناء والمعالم التي شيّدت... ثمّ يحلّ بالمدينة جمع من الطرواديين الذين فرّقتهم الزوابع عن إينياس ويمثلون أمام ديدو يطلبون الحماية والعون ويقصّون ما حلّ بهم فأفصحت في ردّها عن معرفتها بطروادة متمكّنة الخصال الحربية لرجالها واستعدادها لتيسير إبحارهم إلى إيطاليا وقبولها إقامتهم بالمدينة التي هي بصدد بنائها ووعدت بالبحث عن ملكهم في كامل أرجاء لوبيا... عندئذ ينقشع الضباب على إينياس ويتقدّم للملكة بالثّناء على ردّها المطمئن. وهكذا يستأثر الكتاب الرابع من الملحمة بقصة الحب التي جمعتهما والتي أثارت ردّ فعل هياربياس وتدخّل الإله الأكبر يوبتير(Jupiter) الذي بعث برسوله مركريوس (Mercurius) ليذكّر أينياس بوجهته الأصلية فبادر أينياس بإعلام ديدو أن أمر الأرباب أتاه بوجوب السعي إلى إيطاليا. وقد أفضى رحيل الطرواديين إلى انتحار ديدو الذي احتفظ فيه الشاعر اللاتيني بمشهد المحرقة كما ورد في رواية تيمايوس مضيفا أنّها طعنت نفسها بسيف أينياس وقدّمت قبل ذلك قربانا لإحراق صورة رجل طروادة...

نلاحظ تطويعا شعريا لعناصر الرواية التاريخية والعودة بنشأة قرطاج إلى العصر الملحمي قبيل سقوط طروادة وهو ما ذهب إليه قبل ورجيليوس كلّ من فلستوس السّرقوسي (Philistos de Syracuse) (409-356 ق.م) وأودكسوس الكنيدي (Eudoxe de Cnide) (435-356 ق.م) ثمّ بعدهما آبيانوس الإسكندري (القرن الثاني م).

ساهمت الملحمة في إشاعة التصوّر الشعري لتأسيس قرطاج في أوساط المتعلمين إذ كانت مبرمجة ضمن المؤلّفات التربوية في المدارس

الرّومانية ومثلت خلال العصور القديمة والقرون الوسطى أكثر الكتب "الوثنية" تداولا في العالم اللاّتيني.

وممّا يذكر أنّ الإمبراطور أغسطس أمر بنشرها بعد وفاة مؤلفها وقد تزامن هذا القرار مع إعادة بناء قرطاج الرّومانية. وتفسّر الظرفية التاريخية إعادة صياغة الرواية بعناصر أسطورية جديدة أثرت في التصورات الأدبية والفنية لمحور ديدو (عليسة) أكثر من تأثيرها في الكتابات التاريخية. ففي أوائل القرن الأوّل ميلادي دوّن تروغوس بومبيوس (Trogue Pompée) التاريخ العالمي أو الفليبّي (*Historiae Philippicae*) في 44 كتابا وأهتمّ فيه بممالك الشرق القديم وفليبوس الثاني المقدوني. وقد وصلنا هذا المصدر في صيغة ملخّص أنجزه يوستينوس (M.J.Justinus) وهو مؤرخ لاتيني يرجح أنه عاصر الأباطرة الأنطونيين (القرن الثاني م).

أفرد يوستينوس قسما من الكتاب الثامن عشرة لتأسيس قرطاج وكامل الكتاب التاسع عشر لتاريخ قرطاج. ويُجمع النقد المعاصر على مصدر معلوماته التي تهم قرطاج وهو المؤرخ الإغريقي تيمايوس، فمهما كانت الإضافات أو المصادر الأخرى التي اعتمدها فإن هذا الملخّص يحتوي على النص الأكثر اكتمالا وتجانسا لتأسيس قرطاج ويمكن تلخيص عناصره في تتابعها في المصدر المذكور (XVIII، 4–6) كما يلي:

– تولّى بيقماليون السلطة في صور وزواج شقيقته عليسة من اكرباس (Acerbas) كاهن معبد هرقل (ملقرط).

– إيعاز الملك بيقماليون بقتل أكرباس بهدف الاستيلاء على ثروات المعبد.

– قاومت عليسة شقيقها بالحيلة وأوهمته برغبتها في الانتقال إلى قصره فأوفد مبعوثين لتيسير ذلك. وكانت عليسة قد أعدّت هجرتها سرّا فدعّمها والتحق بها العديد من الشيوخ واتجهت مبحرة نحو الغرب.

– أرست حملتها بقبرص حيث أقبلها كاهن معبد يونو – (عشترت) وعرض عليها الانضمام إلى رحلتها ومشاركة مصيرها على أن تبقى كهانة المعبد متوارثة في عائلته، ثم دعمت عليسة حملتها باختطاف ثمانين فتاة قبرصية.

– أرست الحملة على سواحل إفريقيا ورأى الأهالي في قدوم الوافدين فرصة للتبادل.

– اشترت عليسة مساحة بحجم جلد ثور وتمكنت بقطعه في شكل خيط دقيق من حيازة مساحة أوسع سميت لذلك بيرصا.

– قدوم سكّان المناطق المجاورة للتبادل بحثا عن الربح ممّا دعّم المستوطنة التي تحولت إلى مدينة – دولة (Civitas).

– قدم ممثّلون عن أوتيكا وحثّوا الوافدين على تأسيس مدينة في الموقع الذي أرسوا به.

– رغبة الأفارقة في بقاء هؤلاء الأجانب وباتفاق الجميع أسّست قرطاج مقابل ضريبة سنوية تدفع لقاء الأرض التي قامت عليها.

– عثر عند حفر أسس المدينة على رأس ثور وهو ما ينبئ بأرض خصبة لكن صعبة الاستغلال، ورأوا فيها استعبادا دائما فحفروا في موضع آخر حيث كشف عن رأس حصان وهو رمز للأهميّة وللقوّة ولتأمين المدينة الجديدة.

– تدعم المدينة وامتدادها بفضل قدوم عدد هام من السكان الجدد.

– كانت قرطاج غنية وقوية لما طلب هيارباس (Hiarbas) ملك الماكسيتاني (*Maxitani*) الزواج من عليسة مهددا بالحرب في حالة الرفض.

– استعادت عليسة طويلا ذكرى زوجها أكرباس ووعدت بالذهاب إلى حيث يدعوها قدر قرطاج وأقامت محرقة قدمت فيها ضحايا عديدين ثم ألقت بنفسها في النار.

– ألّهت عليسة وخصّت بطقوس الآلهة على امتداد تاريخ قرطاج التي أسست 72 سنة قبل روما.

مثّلت الروايات الثلاث المذكورة الرصيد الأدبي الكلاسيكي لتأسيس قرطاج وكانت منطلقا لقراءات وتأويلات مختلفة سنحاول في ما يلي إبراز أهمّ خصائصها.

2 – روايات تأسيس قرطاج: خصائصها وتأويلاتها

استعرضنا العناصر المميّزة لراويات تأسيس قرطاج في الأدب الكلاسيكي وتحديدا تلك التي تسمح باستقراء شامل للمسألة بناء على تكاملها وتأثيرها في الكتابات اللاّحقة وهي عديدة، فصدى تأسيس قرطاج– أو على الأقلّ صدى عليسة – ديدو– تواصل في المؤلفات المسيحيّة خلال العهد الإمبراطوري المتأخّر وخلال العصر الوسيط لدى المؤرّخين والشعراء وكتاب الأساطير. والثّابت أنّ الكتاب الرّابع من ملحمة أينياس كان له عميق الأثر في إشاعة هذا المحور إذ تحوّل بصفة مبكّرة إلى رصيد مشترك لكلّ المتعلمين. وقد أشار الشاعر اللاّتيني أوفيديوس (43 ق.م –17م) (P.Ovidius Naso) أنّ للتّعرض شعرا لديدو أكثر ما انتشر من مجمل كتابات ورجيليوس. ويؤكّد القديس أوغسطينوس بعد أربعة قرون نفس الملاحظة مشيرا إلى تأثير قصّة ديدو– آينياس في نفسه خلال المرحلة الأولى من تكوينه التعليمي.

أما معاصره تيودوزيوس مكروبيوس (A.Theodosius Macrobius) الذي كان يواكب حلقات كبار المفكّرين بروما فحاول تفسير هذه الظاهرة في محاوراته (*Les Saturnales*) مشدّدا على أن ورجيليوس نهل من أبولّونيوس (295–215 ق.م) (Apollonios de Rhodes) فأسقط حبّ ميديا (Médée) لجازون (Jason) على ديدو في هيامها بآينياس إلاّ أنّه تجاوز مصدره ببراعة أسلوبه فأكسب أسطورة حبّ ديدو التي يتفق الجميع على لا تاريخيتها طابع الحقيقة لمدّة قرون وتناقلتها الألسن بسرعة حتى أنّ الرّسامين والنّحاتين يجسمون

هذا الموضوع كما لو أن نماذج الزّينة انعدمت، فضلا عن اقتباساتها المسرحيّة، إنّ جماليّة الرواية لها من القوة ما يجعل كلاًّ منّا يقبل الأسطورة ويفضّل الاحتفاء بصدق المتخيّل الذي ينفذ إلى الأنفس عبر سحر الخيال الشعري.

أدى اختزال الرّواية في شخص المؤسسة عليسة إلى استعمال النّعت الشّعري إليسيوس (نسبة لعليسة – *elisseus*) كمرادف لقرطاجي أو بونيّ (*carthaginiensis - punicus*) وهو ما نلاحظه لدى أبولوناريس سيدونيوس (430–487م) (Apollonaris Sidonius) على غرار استعمال نعت روموليوس (*romuleus*) للدّلالة على رومانيّ (*romanus*).

وهكذا فإنّ المكونات التاريخية للرّواية، كما تبدو في نصوص تيمايوس وفلافيوس جوزاف ويوستينوس، لا تمثل معطى ثابتا في المصادر اللاّحقة لذلك اكتسبت بعض عناصرها وخاصّة عليسة استقلالية بالنّسبة للإطار التّاريخي.

فما هي إذن سبل ومناهج تحليل الرّواية؟

تدرّج تحليل الرواية من القراءة التاريخيّة والمقارنة مع روايات تأسيس المدن والمستوطنات الإغريقية وروما إلى الإستفادة في السنوات الأخيرة من نتائج التّحليل اللّغوي – السّيميولوجي أي محاولة استقصاء الإيحاءات المضمّنة في المصطلحات والرّموز المستعملة في المصادر الإغريقية واللاتينية ومدى صلتها ببيئتها الأصليّة. وسنحاول اعتماد مختلف هذه التوجّهات في تأويل عناصر الرّواية.

تتفّق مجمل المصادر الرّئيسية حول السّبب المباشر لخروج أو هروب عليسة من صور وهو مقتل زوجها آكرباس Acherbas (سيكيوس Sichaeus لدى ورجيليوس) بإيعاز من شقيقها بيقماليون. ويتمثّل الإيحاء الأوليّ لهذا الحدث الدّرامي في توفير تبرير لقطيعة نهائية. ويحتلّ هذا البعد مكانة بارزة في المرجعية الإغريقية – اللاّتينية، فالرّؤيا التي أوكلت لروموليوس (Romulus)

الملكيّة وتأسيس روما لم تكن كافية وبدأت النشأة الفعلية للمدينة بعد مقتل شقيقه ريموس (Remus).

وتتخذ القطيعة عند الإغريق طابع صراع اجتماعيّ يخلق حول المؤسّس (L'oïkiste) مجموعة من المساندين لمشروعه. فسالّوستيوس مثلا يقدّم في روايته الوجيزة لنشأة لبدة نفس المبرّر فقد "أسّسها صورانيون طردوا من وطنهم بسبب اضطرابات اجتماعية".

حاول خ. ألبار J.Alvar وك. فقنار C.Wagner إيجاد تفسير تاريخي لهذا الجزء من الرّواية، فانطلقا من فرضيّة استفادة الملكيّة والأرستقراطية التّقليدية في المدن الفينيقية من النشاط التّجاري لكنّ هذه الفئة الاجتماعية بقيت ذات وزن عقاري ومتكوّنة من المالكين الكبار. كما أدّى تطوّر التّجارة إلى نشأة فئة ثريّة أو بلوتقراطية (ploutocratie) تدعمت مكانتها تدريجيا تجاه الفئة السّابقة، وهي ظاهرة عرفتها بلاد الإغريق خلال المرحلة العتيقة.

ويعتبر الباحثان أنّ توزيع السلط بين الملك والأسباط والمجالس والكهنة هو من مؤشرات التأثير السّياسي لهذه الفئة الجديدة من أثرياء التّجار أو الأوليغارشية التّجارية. وقد اختلت العلاقة بين الفئتين الاجتماعيّتين بسبب الحملات الاشوريّة على فينيقيا، وكان التّجار أشدّ تأثّرا بانعكاساتها السّلبية خاصة على الطّرق البريّة باتّجاه نينوي، آشور وبابل أو نحو البحر الأحمر وهي طرق كان الوسطاء يموّلون عبرها التّجارة الفينيقية كما أثبتت النّقائش أن بعض التّجار الفينيقيين يساهمون في المبادلات البرية. وسنبرز في ثنايا هذا الفصل حيثيات الحملات الآشورية التي طبعت النّصف الأوّل من القرن التاسع ق.م.

لذلك اعتبرت القطيعة بين بيقماليون وأكرباس ثمّ بين الملك اليافع وشقيقته عليسة نتيجة لتناقضات اجتماعية عميقة، فكاهن معبد ملقرط يمثل السلطة القادرة على منافسة الملك، وجريمة القتل من هذه الوجهة لا تعود إلى رغبة في الإستيلاء على ثروة الكاهن والمعبد بقدر ما تعود إلى مصالح الملك

والأرستقراطية الدّاعمة له. ومن المفترض أيضا أن تكون عليسة مهيّأة في خضمّ هذه التناقضات لأن تلعب دور الوصيّة على العرش، ومما يدعم هذا التأويل أنّ مقتل أكرباس تجاوز ردّ فعل عليسة وأثار فئة من خصوم بيقماليون.

يحاول خ. ألبار وك. فاقنار دعم تحليلهما من خلال موقف الفئتين المذكورتين من قوى الشرق القديم، فالملك والأرستقراطية التّقليدية حافظوا على مصالحهم في ظروف الحملات الآشوريّة وتكيّفوا مع الأوضاع دون تأثر يذكر، أما فئة التّجار، فإنّ حدّة تأثرها بمخلّفات الحملات المذكورة جعلها أقرب إلى مصر في تحالفاتها الخارجيّة ويستدلّ الباحثان على ذلك بأهميّة العلاقات لاحقا بين قرطاج ومصر.

ولم يهملا عنصر التّباين الدّيني فملقرت هو إلى حدّ ما "إله التّجّار" في حين كان الملك يتولى كهانة معبد عشترت التي من بين وظائفها الإخصاب الزّراعي، فقد تولي إتّوبعل ملك صور هذه الوظيفة الدّينية حسب رواية فلا فيوس جوزاف.

تصطدم هذه المحاولة لإضفاء بعد تاريخي وتفسير اجتماعي للأزمة التي نشأت بصور قبيل تأسيس قرطاج بعوائق عديدة بالرّغم من جاذبية القياس المنطقي الذي انتهجته، فالإيجاز الذي تتميز به الرّواية يقلّص من هامش تأويلها التاريخي – الاجتماعي والمقابلة التي اعتمدت بين فئتين متنافستين لا تستقيم أمام إجماع المصادر على اهتمام ملوك صور بالتّجارة ومحدودية القاعدة العقارية أو الظهير الزّراعي للمدن – الدول الفينيقية وفي هذا ما لا يبرّر الحديث عن أرستقراطية عقارية ذات نفوذ سياسي، إضافة إلى محدوديّة الدّور الاقتصادي للمعابد في فينيقيا خلافا لبلاد الرافدين. وهو ما بينه أحمد الفرجاوي الذي يرى في مناقشته "لضريبة العشر" أنّ قرطاج كانت ترسلها إلى السلطة السياسية في صور لا إلى المعبد فقط لكن وجب التأكيد على أن مصادرنا في هذا الشأن تهمّ مراحل بعيدة عن الطّور الأول من تاريخ قرطاج. وهكذا فإنّه من الصّعب إيجاد سند تاريخي اجتماعي لما تعتبره المصادر سببا مباشرا لهجرة علّيسة وسنحاول في

ثانيا هذا الفصل إبراز خصائص الإطار التاريخي المباشر في فينيقيا قبل تأسيس قرطاج اعتمادا على مصادر مجمع عليها.

نرجح إذن تأثير التقليد الأدبي الإغريقي في السياق المذكور من رواية تأسيس قرطاج ونلاحظ امتداد هذا التأثير في العنصر الموالي من الرواية وهو تركيبة المجموعة المؤسسة إذ اصطحبت عليسة مناصرين لها من شيوخ المدينة ومن الشعب إضافة إلى خدم بيقماليون الذين ضمتهم إلى حملتها عن طريق الحيلة. دعمت مرحلة قبرص الحملة بانضمام كاهن معبد عشترت شرط بقاء الكهانة في نسله، وتوارث هذه الوظيفة الدينية ثابت في الشرق القديم. والملاحظ أن يوستينوس يذكر عشترت عبر مرادفها اللاتيني يونو (Juno) – كما ذكرت في مصادر أخرى بأسماء هيرا (Héra) وفينوس (Venus) وأفروديت (Aphrodite)– ثمّ يتطرّق المصدر المذكور إلى اختطاف حوالي ثمانين فتاة قبرصيّة بأمر من عليسة لتجعل منهنّ زيجات لشبّان حملتها وللإسهام في إعمار المدينة التي تعتزم تأسيسها. ويفسّر المؤلف ملابسات العملية بتجمّعهنّ في معبد فينوس لتعاطي البغاء المقدّس وسبق أن استهجن هيرودوت هذه العادة الشائعة في بلاد الرافدين والتي تتمّ في معبد الإلهة ملّيتا (Myllita).

ونجد صدى لهذه الممارسة، من خلال إدانتها أيضا في التّوراة (سفر الملوك). وتتّضح بذلك المرجعية التاريخية لهذه الحلقة من الرّواية أو الإمكانية العادية لتجمّع العدد المذكور من القبرصيات.

وإجمالا، فبعد الخروج من صور ومرحلة قبرص اكتسب أعوان مشروع التأسيس هويّة المجموعة المهيأة للتّكامل والحياة المشتركة والمدنية المرادفة للكينونيا (*Koinonia*) الإغريقية الضامنة لانسجام المستوطنات المعتزم تأسيسها واستمرار وجودها. وهو ما يوافق أيضا التّصور الرّوماني لثنائية الشيوخ والشعب (*Senatus populusque*) كشرط للحياة المدنية، ولا نجانب الصّواب إذا اعتبرنا ذكر يوستينوس للشيوخ الصوراتيين في المقام

الأوّل من ضمن مصطلحي عليسة مرادفا لدور الآباء (*Patres*) بالمفهومين السّياسي والاجتماعي في المرجعيّة اللاّتينية.

ومن البديهي استبطان عليسة لمشروعية دينية كأرملة كاهن معبد ملقـــرت، لكن حملتها كانت في حاجة إلى تزكية سلطة دينيّة مستقلّة وتمّ ذلك فـــي قـــبرص عبر مباركة كاهن معبد عشترت وانضمامه للحملة.

ونلاحظ إجماعا حول الأساس التاريخي للإرساء بقـــبرص، التـــي تبعـــد حوالي 100 كلم عن السّاحل الفينيقي. ويعود اهتمام الفينيقيـــين بمنـــاجم القصديـــر بالجزيرة إلى أواسط الألف الثانية ق.م. ومن ضمن المدن التي أنشؤوها بقـــبرص، قرطاج التي يختلف الدّارسون في تحديد موقعها حيث أنّ معرفتنا بـــها محـــدودة، ويرجّح أغلب الباحثين أنها توافق موقع كيتيون – لارناكـــا (Kition-Larnaka) لكن صلة التّجار الفينيقيين بقبرص على هامش رحلاتهم البحرية نحـــو ســـواحل آسيا الصغرى وبلاد اليونان لا تفسّر لوحدها إرساء عليسة بالجزيرة، لأنّ دلالـــة التحاق كاهن معبد عشترت بحملتها تكمن في اكتمال شروط التّأسيس، وتمثل هـــذه المرحلة القاسم المشترك الوارد تقريبا في كـــلّ النّصـــوص الإغريقيـــة المتعلّقـــة بإحداث المستوطنات حيث تذكر مرور المؤسّس بمعبد أبولّون (Apollon) فـــي دالفي (Delphes) بالسّفح الجنوبي الغربي لجبل برناس (Parnasse) حيث يُعبـــد « كإله نبوءة" وتتولّى الكاهنة (La Pythie) دور " وسيطة الوحي" حيـــث يدلـــي الإله على لسانها بنصائحه ويحدّد أحيانا وجهة الحملة. وفي هـــذا السّـــياق، تمثـــل رؤيا الكهنة وقراءة الطالع (augures/auspices) الضّمان الدّيني (Sacrum) لأي مبادرة هامّة لدى الرّومان.

يستجيب اختطاف القبرصيات أيضا لتفسير أساسه مقارنة الروايـــات والبحث في تقارب معانيها وتماثلها. فيوستينوس يبرّر العملية بهاجس إعمار المدينة وهو ما يدعم منحى الدّراسات المعاصرة في الإحالة لما تـــمّ علـــى هامش تأسيس روما أي حادثة "اختطاف السّابينيات" (L'enlèvement des Sabines) ومفادها أنّ رملوس بعد أن شجّع الرّجال والعبيد الفارّين وحتّـــى

المجرمين منهم على الاستقرار بالمدينة المحدثة، أصبح يجابه معضلة إعمارها، فدعا أجواره السّابنيّين (*Sabini*/Les Sabins) في شمال شرق روما، لحضور احتفالات الكونسواليا (*Consualia*) (نسبة لكونسوس Consus إله المخازن) وكان غرضه اختطاف بناتهنّ ليكنّ زيجات لمواطنيه وعلى إثر الإختطاف نشب صراع بين رملوس ورجاله من ناحية والسابنيّين من ناحية أخرى وقد انتهى الصراع بتدخّل من السّابنيات. وأصبح اللاّتينيّون والسّابينيون بعد ذلك يؤلّفون أقدم سكان روما أي الكويريتاس (*quirites*).

ويهدف اختطاف القيرصيات أيضا إلى ضمان الانسجام والتواصل الاثني والثّقافي للمدينة، وهي ظاهرة نلاحظها في المستوطنات الإغريقية، ذلك أنّ حالات الاندماج المبكّر مع الشعوب الأصلية تمثّل استثناء على غرار نموذج مسّاليا الذي سنعرض له لاحقا.

ويشمل الطّور الثّاني من الرّواية الإرساء بالسّاحل الإفريقي وردّ فعل الأهالي ووفد أوتيكا ثمّ ظروف تأسيس المدينة. يفيدنا يوستينوس بأنّ الأهالي الأفارقة استبشروا بقدوم الوافدين الجدد ورأوا في ذلك فرصة للتبادل التّجاري، ويحيلنا ذلك إلى انفتاح الأهالي على تجارة إعادة التوزيع التي تولاّها مرفأ أوتيكا، إذا ما اعتبرنا الروايات التاريخية التي تجعل منه أقدم المنشآت الفينيقية على السّاحل الإفريقي المتوسطي، مما يفسّر حضور وفد أوتيكا الذي قدم لاستقبال من يعتبرون أقارب وحثهم على تأسيس مدينة في الموقع الذي أرسوا به.

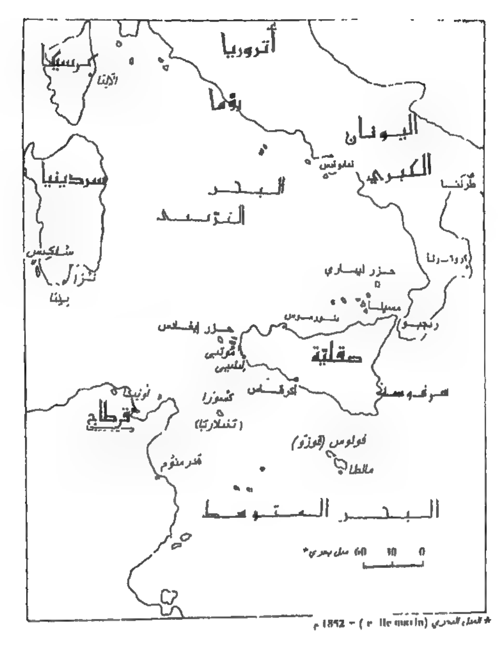
ومن الثابت أنّ لموقع قرطاج من المميزات ما يجعله أفضل من موقع أوتيكا، فالخليج محمّي من الرّياح الشمالية والغربية والسّهل الرّملي مناسب للإرساء وبه بحيرتان شاطئيتان مناسبتان لتجهيز موانئ. أما على المستوى القارّي فإن شكل البرزخ له من المواصفات الطبيعية ما يخفّف عناء حمايته بفضل الحاجز الطبيعي للبحيرة ولسبخة أريانة حاليا، أما المائدة المائية فهي محدودة العمق وذات ماء عذب فضلا عن انسياب عين ماء في المنحدر الشّمالي.

ويتدعّم الطابع الحيويّ للموقع إذا اعتبرنا بقيّة مناطق تمركز الفينيقيين وتطوّرها المستقبلي في غرب صقلية وسردانيا ثم في مالطا. فبمجرّد أن تحكّمت قرطاج في الضفّة الجنوبية لمضيق صقلية وكسّورا، -بنتلاّريا حاليّا- (Pantelleria / Cossura) التي تتوسط المضيق بين ليلبي والسّاحل الإفريقي أصبحت بمثابة "بوابة غرب المتوسّط" بالنسبة للفينيقيين على الأقل. (أنظر خريطة موقع قرطاج)

ويقتضي المرور إلى مرحلة التأسيس الفصل بين عناصرها المبسّطة التي تسهل مراجعتها وتلك التي تدخل في عداد الإضافات والاسقاطات الرّمزية والأسطورية. والملاحظ تلازم هذين البعدين في رواية يوستينوس، إذ يؤكد المؤلف في مرحلة أولى على الإطار التّعاقدي لتأسيس قرطاج أي وجود ضريبة سنويّة تدفع للأفارقة، ويمكّننا من رصد تواصل الإيفاء بهذا الالتزام الضّرائبي حتّى أواسط القرن السادس ق.م. ولمّا حاولت قرطاج التّخلّص ممّا كانت تدفعه للأهالي لم تنجح في ذلك إلاّ في منتصف القرن الخامس ق.م. وتبقى معرفتنا بالطرف أو الكيان السياسي المحلّي الذي تعاقد معه القرطاجيون غامضة فهي لا تتجاوز ما يذكره المؤلّف عن الملك هيارباس (Hiarbas) والأهالي الماكسيتاني (Maxitani) (انظر فصل الحضور القرطاجي في المجال الإفريقي).

يجمع يوستينوس بين الجانب التّعاقدي المشار إليه وعنصر الحيلة المعروفة بقصّة جلد الثور وقد ذكرها في السياق الآتي:

" ...سعت عليسة إثر إرسائها بساحل إفريقيا إلى كسب صداقة الأهالي الذين رأوا بابتهاج في قدوم هؤلاء الأجانب فرص لتّجار ومبادلات مشتركة. اشترت إثر ذلك مساحة أرض في حدود ما يمكن أن يغطي جلد ثور، ولتأمين مكان راحة لمصطحبيها المنهكين من رحلة إبحار طويلة، قطعت الجلد في شكل أشرطة في منتهى الرقّة واستحوذت على مساحة أكبر من تلك التي تظاهرت بطلبها لذلك اشتق لهذا المكان اسم بيرصا..."



* الميل البحري (mille marin) - 1852 م

موقع قرطاج بالنسبة للمراكز الفينيقية بصقلية و سردينيا و مدن اليونان الكبرى

تعتبر الفروق بين الرّوايات التي ذكرت هذا العنصر طفيفة، ويّهمنا إضافة إلى ما سبق النّص الشعري لورجيليوس، حيث تُعلم فينوس آينياس بأمر ديدو – عليسة – و "اشتراء الفنيقيين أرضا يمكن إحاطتها بجلد ثور لذلك سمّيت بيرصا..."

وفسّر أغلب النّقاد الإيجاز الذي يميّز نصّ ورجيليوس بالمعرفة الشائعة لهذه الحيلة ويرجّحون أن يكون تيمايوس ملمّا بها. ويضيف سرفيوس هونوراتوس (Servius Honaratus) في تعليقه على الملحمة أن عليسة "لمّا أرست في لوبيا طردها هيارباس فطلبت شراء مساحة أرض يمكن أن يغطيها (*te gere*) جلد ثور ثم مدّته في شكل خيط وأحاطت (*circumdare*) بمساحة سمتها بيرصا."

تعود أولى التأويلات التي حاولت فك رموز الحيلة المذكورة إلى القول بوجود إسقاط إغريقي بسبب تطابق اسم بيرصا (Byrsa) – النواة المفترضة للمدينة – وتسمية بورسا (*bursa*) الإغريقية التي تفيد الجلد. وكان هذا الإيحاء السّمعي أو التّطابق في النّطق بين اسم المكان والجلد في اللّغة الإغريقية كافيا للرّبط بينهما عبر نسيج روائي. ونحن نلاحظ اسقاطات مماثلة في المخيال الشعبي لتفسير أسماء الأماكن.

ومن محاولات اللّغويين أيضا مقاربة بيرصا مع بيرتو (*b irtu*) الأكاديّة التي تفيد الحصن. أما إ.ليبنسكي (E.Lipinski) فلا يأخذ بالتّفسيرات السّابقة ويناقش الإحاطة بالأرض بالبصر أو الوقوف عند جزء منها كمرادف التملّك مركّزا في ذلك على المرجعية التّوراتية وبعض المصادر اللاّتينية، وحاول بذلك في نفس الوقت استبعاد مفهوم الحيلة في نص ورجيليوس والبحث في أصول أخرى لتسمية بيرصا فقام بتعداد أسماء أماكن سامّية مركّبة من "بئر" وخلص إلى أن أصل بيرصا أقرب إلى "بئر الشّاة" (بيرشاة *B irsat*) ويذكر صلة التّسمية بالآبار في السهل الساحلي لقرطاج.

لكننا لم نلاحظ صدى ومناقشة لهذه الفرضيّة في الدّراسات التي تلت صدور مقال إ.ليبنسكي ، فقد تجاوزت الأبحاث الأخيرة التّفسير المحدود القائم على تسرّب خلط لغوي بين بيرصا والجلد في اللّغة الإغريقية وذلك باعتماد منهجي التّحليل اللّغوي – السّيميولوجي والدّراسة المقارنة للأساطير وتحديدا روايات تأسيس المدن.

مثلت دراسة ج. شايد (J.Scheid) وي.سفنبرو (J.Svenbro) تجديدا عميقا بانتهاج التحليل اللّغوي وازدواجية عديد الأسماء والأفعال في النّصين الإغريقي واللاّتيني للرّواية. ويتّضح من خلال هذه الدراسة أنّ اسم عليسة (Helissa) في اللّغة الإغريقية يحيل إلى فعل يفيد الاحتيال (*helissen*) أو التّفكير في الحيلة (*mêtin helissen*) ويستعمل للتّعبير عمّن ينتهج خطابا مزدوجا، أي أن اسم المؤسّسة في تناغمه مع المعطى اللّغوي المذكور يضع الرّواية في الدّائرة الدّلالية للحيلة الإغريقية أو "ميتيس" (*La mêtis*) وهي موقف ذهنيّ ثابت في العقليّة الإغريقية إلى جانب العقل والمنطق.

بيّنت دراسات ج ب فرنان (J.P.Vernant) وم.ديتيان (M.Détienne) للأساطير اليونانية أهميّة مفهوم الذّكاء القائم على الحيلة وتشعّب معانيها: فهي تفيد الخديعة والمغالطة أو المواربة لكنّها تنطبق ضمنيا على حنكة الحرفي الذي يستخدم أدواته دون اعتماد توقّع أو برهنة رياضيّة وهو ما يفسّر تسمية "الميكانيكا" أحيانا بعلم الحيل. ويبدو هذا الموقف الذهنيّ أيضا في التّصرف الذّكي حيال وضعيات شائكة وهذا البعد ماثل في الإلياذة والأوديسا وتجسّده خاصّة حيل أوليسيوس (Ulysse). وتجدر الإشارة إلى اقتران صورة الفينيقيين في نفس المصدر بالحيلة والمغالطة لترويج "بضاعتهم الرّديئة". ويمثل "البرابرة" أو غير الإغريق ضحايا الحيلة، وتصطدم حيل التّجار الفينيقيين بنباهة الإغريق في رودس (Rhodes).

يتجاوز ج.شايد وي.سفنبرو تفسير نصي يوستينوس وورجيليوس بناء على ثنائية الجلد (bursa) واسم المكان بيرصا وينبّهان إلى جوهر الحيلة وهو

تجاوز عليسة لمعنى تغطية الجلد للأرض (*tegere*) إلى معنى الإحاطة بـالأرض (*circumdare*) وتحيلنا هذه الصورة إلى المعنى الضّمني وهـو خـرق الاتّفـاق ونكث العهد. فإذا اعتبرنا الجلد المجسّم المادّي للاتفاق بين عليسة وهيارباس الـذي نصّ على مساحة مطابقة لحجمه يصبح توليد معنى "الإحاطة بالأرض" مغالطـة وتخليا عن الاتفاق والبعد الأعمق لقطع الجلد هو تمزيق العهد.

وتوفّر الدراسة المقارنة للأساطير قرائن إضافية لدعم هذا التـأويل، فقـد اتّضح أنّ رمزيّة الجلد في عقد الأحلاف مثبتة عند الإغريق والرّومان إضافة إلـى رمزية البقرة في تأسيس المدن. ومن أبرز الأمثلة علـى ذلـك تأسـيس طيبـة (Thèbes) وينسب إلى مؤسس أسطوري واسمه كدموس ابـن أجينـور ملـك صور (Cadmos fils d'Agenor) وقد قدم كدموس إلى بلاد الإغريق بحثا عـن شقيقته أوربّا (Europe) التي اختطفها زيوس (Zeus) فنصحه كاهن معبد أبولـون بدلفي بالتّخلي عن ذلك. وأبلغه أنّه سيصادف بقرة عليه أن يتبع خطاهـا ويتّخـذ من المكان الذي تجثم به موقع تأسيس لمدينة جديدة. ونشأت مدينة طيبة وفقا لـهذه الرّؤيا ومثلت البقرة أوّل قربان، لاستكمال طقوس التأسيس، ثم أمسـك كـادموس وصحبه بأطراف الجلد كميثاق يجمع بينهم.

أمّا تأسيس روما فبدأ بعمليّة حفـر حـدود المدينـة حـول هضبـة البلاتينوس (*Palatinus mons*) وقد أنجزها رملوس بواسطة محراث يجـرّه ثور وبقرة وكان صحبه يتبعونه لوضع أسس سور المدينة وتمّ بعـد ذلـك تحديد المجال المقدّس للمدينة (*pomerium*).

وهكذا يتّضح التّناقض بين العمليّة المقدّسة لضبط الحدود ثمّ مفـهوم الجلد كميثاق تأسيس من جهة، ومبادرة عليسة التي تنطوي في نفس الوقـت على نكث العهد بقطع الجلد ثم الاستهانة بقداسة التأسيس والتوسّل في إنجازه بالحيلة والمغالطة.

بحثت الدّراسات المعاصرة في الأصول التاريخية لهذا البعد في رواية تأسيس قرطاج، فقد بلورت "الحروب البونية" بعض المعتقدات الراسخة في الذّهنية الرومانية وأبرزها "الثقة البونية" (*fides punica*) وهي تعبير يستعمل للدّلالة على انعدام الثـقة أو نكث العهود.

وتعود أصول هذا الحكم إلى الجدل الدائم حول مسؤولية قرطاج في نشوب المجابهات وتوفر مبررا للحرب (*causus belli*) بسبب نقض المعاهدات أو تجاوز الاتفاقيات التي أبرمت إثر الحروب أو الاعتداء على حلفاء روما من قبل قرطاج.

ويتضح التأثير العميق لهذه الصورة السلبية في المصادر اللاتينية وكذلك أيضا في المصادر الإغريقية التي تبنت وجهة النظر الرومانية إلى درجة تغييب المعاهدات التي ميزت فترة التعايش بين قرطاج وروما أو تناولتها بصفة عرضية.

أبرز ج.شايد وي.سفنبر والإطلاع المثير للإنتباه بحيلة عليسة في كل من اسكنديناقيا وجنوب شرقي آسيا ولدى الكرغيز (Kirghiz) بآسيا الوسطى الذين يقارنون "خدعة الروس لهم بخدعة عليسة للنوميديين...". وهكذا فإن تواتر الرواية احتفظ بالمعنى العميق أو النواة الأولى وهو ما بينته جيوليا بكالوقا (G.Piccaluga) التي اهتمت بتطور الأسطورة وما يشوبها من إسقاطات وإضافات.

تستعرض الرّواية في البداية بناء المدينة والتخلّي عن الموقع الذي عثر فيه على رأس ثور والاستبشار بالموقع الذي عثر فيه على رأس حصان. ويحيط ورجيليوس العملية بشروطها الدّينية ويحدّد الموضع في الأكمة المقدّسة التي أقامت فيها عليسة معبدا كبيرا للالهة يونو – عشترت التي بشرّت بحصان طالع رأس الحصان رمزا للانتصار وحياة الرّخاء. ويعلن المؤلف أنه "رمز شعب محارب" ويتفق نص يوستينوس مع نفس التفسير. اعتبر هذا التّأكيد على رمزية

القوة والتوجه الحربي المستقبلي للمدينة انعكاسا روائيا لصورة الحصان المجسمة بكثافة على العملات القرطاجية منذ المرحلة الأولى لظهورها حتى القرن الثاني ق.م. ونلاحظ تجسيم هذه الصورة على قفا العملات الذهبية والبرنزية المضروبة في منتصف القرن الرابع ق.م سواء بقرطاج أو بغرب صقلية أو في العملات التي ضربت في ايبيريا في أواخر القرن الثالث علاوة على العملة التي أصدرت في البروتيوم (Bruttium) خلال الحرب الثانية وهي عملة تمتاز بصورة كوري (Koré) إلهة الخصب على الوجه وصورة الحصان على القفا، وقد استمرّ استعمالها خلال القرن الثاني ق.م حتى سقوط قرطاج وامتد تأثيرها إلى العملات النوميدية.

أمّا إذا اعتمدنا الدراسة المقارنة للأساطير من منظور ج.دوميزيل (G.Dumezil)، الذي درس الحضور الضّمني للبعد الوظائفي الثلاثي – المحاربون والكهنة وأعوان الإنتاج – في الأساطير الهندو – أوروبية، فإننا نرجّح أن يكون هذا البعد في الرّواية اللاّتينية إيذانا رمزيّا بنشأة الوظيفة الحربية. وقد سبق أن أشرنا إلى حرب اللاّتينيين والسّابينيين التي أعلنت تشكّل نفس الوظيفة مبكرا في روما.

ونعتقد أنّنا لا نجانب الصّواب إذا اعتبرنا العنصر الأخير من الرّواية أي طلب هيارباس الزواج من عليسة ورفضها ثمّ انتحارها إعلانا ضمنيا بقبول التّحدّي الذي أعلنه الملك في حالة الرّفض، إذ شفع طلبه بالتّهديد بالحرب وحرص الفينيقيون الذين نقلوا طلبه على إقناع عليسة بالقبول.

جسد موقف عليسة إرادة المدينة النّاشئة في الحفاظ على هويتها وروح الجماعة في المفهوم الإغريقي. لكن وجب التّساؤل عمّا إذا كان القبول بتحدي هيارباس إعلانا ضمنيا لحتمية تبلور الوظيفة الحربية المكمّلة للوظيفتين الدينية والإنتاجية اللّتين ذكرتا بصفة صريحة. ولا نستبعد في سياق تحليل نفس العنصر المحددات التاريخية في تشكله بناء على الصورة السائدة بخصوص الصدارة التي احتلّها ذوو الأصول الفينيقية في قرطاج على المستويين السياسي والإجتماعي.

وتفصح المقارنة عن أبعاد أخرى للمسألة فالأسطورة الإغريقية تــرى فــي زواج كادموس من أرمونيا (Harmonie) بعد حروب داخلية في طيبة بدايـــة مرحلـة الاستقرار وبناء المدينة.

ونلاحظ معنى مقاربا في أطوار نشأة روما بعد الوفاق بين اللاتينيين والسابينيين الذين اختطفت بناتهم وتمّ القبول بعلاقات مصـــاهرة مفروضـة وكوّن الطرفان أصل سكان روما. أمّا تأسـيس الإغريـق الفوقيين (Les Phocéens) لمسّاليا فقد شفع مباشرة باندمــاج مــع الأهـالي السـيقوبريج (Segobrigi/Ségobrigues). فوفقا لروايـة يوسـتينوس صـادف قـدوم الإغريق بقيادة قيمون (Cimon) وبروتيس (Protis) يــوم زواج قوبتيـس (Gyptis) بنت الملك. وتقتضي العادة أن تختار البنت زوجـــها مــن بيـن الشبان الحاضرين بأن تقدم له الماء، وكان أن اختارت بورتيس الإغريقـــي الذي أصبح صهر الملك وتحصل منه على الأرض التـــي أنشـئت عليـها المدينة. ويذكر يوستينوس أن بروتيس سعى إلى التحالف مع ملك السقوبريج (*amiticam petentes conveniunt*) والملاحــظ أن المؤســس الإغريقـي لمساليا يتّخذ أيضا اسم أوكسنوس (Euxènos) الذي لـــه معنــى "الأجنبـي الطيّب".

ويمكن أن نستنتج من النصوص اللاتينية لبداية العهد الإمبراطوري التـأكيد على المصير المختلف لكلّ من قرطاج وروما أو التلميح للمرحلة الجديـــدة التـي بدأتها قرطاج الرّومانية وهو ما ينطبق على ملحمة ورجيليوس الذي يجعـــل مــن مرور أينياس بقرطاج مرحلة عابرة في مسار تأسيس طروادة الجديـــدة - رومـا ووصفه لمشاهد بناء قرطاج التي عاينها البطل الطـــروادي ينطبــق علــى بنـاء قرطاج الرومانية فمن المعلوم أنّ الشّاعر معاصر لهذا الحدث الذي تم فــي عـهد أغسطس.

تنتهي الرّوايات الرّئيسية الثلاث المعتمدة في تحليلنا لتأسيس قرطـاج، بانتحار علّيسة - وينفرد الحدث في السّياق الشعري عند ورجيليوس ببنيـــة

دراميّة مختلفة كليّا عن بقية المصادر. فانتحار عليسة – ديدو كان نتيجة لتخلّي آينياس عنها، ويختصر الشّاعر مقام البطل الطروادي بقرطاج كما لو أنّه أخطأ وجهته فقدره يدعوه إلى إيطاليا ليهيئ نشأة روما. وتتّفق بقيّة الرّوايات على سبب انتحار عليسة وهو رفض الزواج من هيارباس ملك الأهالي وكان ذلك بأن ألقت بنفسها في النّار. ويضيف يوستينوس أنها حضيت على امتداد تاريخ قرطاج بطقوس الآلهة.

وقد دُرس مشهد انتحار علّيسة في علاقة بالقرابين البشرية في قرطاج (أنظر فصل الديانة القرطاجيّة)، فالرّوايات الإغريقية اللاتينية ترمي إلى إيجاد سبب أصليّ لهذه الظاهرة وهو ما يعتبر تفسيرا إيتيولوجيا (é tiologique) لا يخلو من الإسقاط.

يعتبر ج.ش.بيكار في هذا السّياق أن المسألة أقرب إلى "عقلنة أسطورة تضحية صيغت لتبرير القرابين البشرية" وهي بمثابة "رواية مقدّسة" لانتحار مؤسّسة قرطاج ضمانا لتواصل المدينة وازدهارها ويؤكد مدعّما وجهة نظره على دراسات جايمس جورج فرازار (J.G.Frazer) ومعاينته في أواخر القرن التاسع عشر لبعض المجتمعات البدائية التي عرفت طقوس الزواج ثمّ قتل الملك لتجديد الطاقة المقدّسة والحيوية الضّامنة لتواصل المجموعة وتشفع العلمية بتأليهه. وتجدر الإشارة إلى تبنّي الدّراسات الانتروبولوجيّة نفس التأويل لاختفاء رومولوس وعبادته في الأسطورة الرّومانيّة.

حاول ج.ش.بيكار تأكيد تواصل هذه الظاهرة ومراجعتها تاريخيا. فانتحار عبد ملقرط الماجوني سنة 480 ق.م، إثر هزيمة جيشه ضدّ الإغريق في واقعة هيمراس بصقلية، هو حسب رأيه بمثابة تجديد التّضحية الأصلية وإحيائها بعبادته. ومن معالم ذلك ما قدّم في موقع وفاته من قرابين بشريّة من بين الأسرى الإغريق وذلك بأمر من حفيده حنبعل الماجوني سنة 407 ق.م.

لكنّ وجهة النّظر هذه تقوم على فرضيّتي تمثيل القائد المنتحر للسلطة الملكية من جهة ثم وجود طقوس عبادة الأبطال (culte des héros) في قرطاج، من جهة ثانية. وتفتقر الفرضيتان للقرائن اللازمة، وسنبيّن في الفصل المخصّص للمؤسّسات السياسيّة طبيعة سلطة عبد ملقرط الماجوني كقائد عسكري، أمّا طقوس عبادة الأبطال فإننا لا نستطيع مقاربتها بما عرفته بلاد الإغريق وروما ويرجّح س.قزال على هذا الأساس انعدامها في قرطاج.

تعرض ك.قروتنالّي (C.Grotanelli) لانتحار عليسة واستحالة زواجها من هيارباس وفقا لمنظور اجتماعي وقانوني. فانطلاقا من الطّابع التراتبي للمجتمع القرطاجي القائم على فئة أولى من ذوي الأصول الفينيقية واللّوبي – فينيقيين ثم من فئة ثانية تفتقر للحقوق السّياسية نجد ضمنها الأهالي، ترى المؤلفة ضرورة الفصل بين علاقات التبادل والتجارة (*commercium*) أو العلاقات الضريبيّة (*tributum*) من جهة، وعلاقة الزواج (*connubium*) التي تفترض شروطا قانونية بمعنى انحصارها داخل نفس الفئة الإثنية ــ الاجتماعية فهي أهم أشكال التعبير على الانتماء لإحدى الفئتين والحفاظ على تجانس كلّ منهما. والملاحظ أن نصّ يوستينوس يشير إلى آفاق المبادلات التّجارية مع الأهالي التي تبدو في مستوى أدنى من العلاقات التي أرساها القرطاجيون مع أقاربهم (*consanguinei*) من فينيقي أوتيكا.

يمكن مناقشة الطابع المطلق لهذا الاستنتاج الذي اعتمد على صيغ من المصدر المذكور فالمصطلحات التي تعتمدها ك. قروتنالي لها مضمون دقيق في القانون اللاتيني لأنّ ذات القانون لم يكن جامدا فيكفي التذكير بتطوّره واستفادة غير اللاّتينيين منه. كما تعتمد ك. قروتنالّي على تصنيف المجتمع القرطاجي خلال المرحلة الهلنستية أي الطور الأخير من تاريخ قرطاج والتراتب الإجتماعي الذي تعتمده لا يخلو من حالات اندماج بين الفينيقيين والأهالي. وإجمالا فإنّ الشحنة الرّمزية لخاتمة الرّواية لا تحتمل الإختصار في مقاربات تاريخيّة – اجتماعيّة.

ذكر يوستينوس في ثنايا ملخّصه تطوّر قرطاج وتدعّمها بفضل الوافدين عليها ويستعمل للتعبير عن هذا الانتقال النوعي عبارة كويتاس (*ci vitas*) أي "مدينة – دولة" ذات مؤسسات ومجال ترابيّ محدّد ولسكانها صفة المواطنة وهو ما يوافق مرحلة ما بعد التأسيس أو عمليّة التّمدين الذي تعبر عنه في اللاّتينيّة عبارة أوربس (*urbs*) أي المدينة بمعنى التجمّع السكني.

ويمكن معاينة نفس التطوّر المرحلي للمفاهيم المستعملة بصدد نشأة روما وتطوّرها فلأعوان هذا المشروع في البداية صفة الشبان (*Juvenes*) وبمجرّد نشأة المدينة – الحاضرة (*Ab Urbe Condita*) أصبحوا مواطنين، فمفهوم المواطنة والمدينة – الدّولة متلازمان.

أمّا عن إمكانيات وحدود المراجعة التاريخية لتطوّر قرطاج المشار إليه في المرحلة الأولى من نشأتها فقد حاولنا إبراز معالمها الأساسيّة في العنصرين المواليين من هذا الفصل، أي الإطار التاريخي بفينيقيا وتأسيس قرطاج ثم المراجعة الأثريّة بناء على الإضافات المسّجلة في معرفتنا بآثار المدينة خلال المرحلة العتيقة، وهو ما يتيح لنا الخروج من دائرة الأسطورة أو الرّواية إلى معاينة ظروف نشأة قرطاج وأقدم آثارها المادية.

3 – الإطار التاريخي المباشر: فينيقيا خلال القرن التاسع ق.م.

تتضمن الأحداث التاريخية خلال القرن التاسع ق.م. مؤشرات لتحولات جغرافية – سياسية أثّرت في أوضاع المدن – الدويلات الفينيقية فقد شهدت المرحلة المذكورة عودة الآشوريين في إطار الإمبراطورية الآشورية الحديثة (911–609 ق.م) وقيادة حملات ضدّ الآراميين وممالكهم في سوريا الوسطى والشّمالية والمدن – الدّول الفينيقية.

أما في خصوص صور فإن النصّ التوراتي يشير إلى مبادلات بين مملكة سليمان (970–931 ق.م) وصور وهو ما يوافق مرحلة استقرار في الشرق الأوسط انتهت خلال القرن الثامن بانقسام مملكة سليمان إلى يهودا وإسرائيل واحتداد الصّراع بينهما إضافة إلى حروب الممالك الآرامية وخاصة مملكة دمشق

ضدّ مملكة إسرائيل. لكن المعطي الرئيسي خلال القرن التاسع ق.م. كان متمثّلا في انعكاسات الحملات الأشورية التي كانت موجّهة بصفة أساسية ضدّ الممالك الآرامية وهي أطراف تجارية هامة بالنسبة لصور وصيدا وأرواد ممّا أدى إلى اضطراب مبادلاتها تماما مثل اضطرابها مع الممالك اليهودية.

وتبرز حوليات الحملات العسكرية للملوك الآشوريين غنائم فينيقيا والالتزامات الضريبية التي فرضت على مدنها التجارية رغم أنها لم تكن تمثّل الهدف الرئيسي لهذه الحملات.

والملاحظ أن التنصيص على المدن الفينيقية في حوليات الملوك الآشوريين يعود إلى القرن الحادي عشر ق.م. حيث ذكرت على هامش حملات تـقلات فلاسار الأوّل (Tiglath-Phalazar Ier) (1114–1076 ق.م.) ويقترن ذكر فينيقيا في هذه النّقائش بتأكيد وصول الحملة إلى البحر الكبير أي المتوسّط وهو ما يكتسي مدلولا خاصا لدى الآشوريين، فالمملكة الآشورية هي إحدى أبرز قوى الشرق القديم التي تفتقر لواجهة بحريّة.

تتمثّل أبرز حملات القرن التاسع ق.م. في حملة آشورنا صربال الثاني (Assurnasirpal II) (888–859) بين 878 و866 ق.م. ضدّ المملكة الحثيّة الحديثة والممالك الآرامية وبلغت فينيقيا ومما ورد في حوليات الحملة: "غزوت كامل جبل لبنان وأدركت البحر الكبير واستخلصت ضريبة ملوك البحر وهم ملوك صور وصيدا وجبيل وأرواد التي تضمّنت فضّة وذهبا وقصديرا ونحاسا وأواني من البرنز ونسيجا مصبوغا وخشب الأبنوس والعاج..."

واستمرّت سياسة المملكة الآشورية الحديثة على نفس الوتيرة خلال الرّبع الثالث من القرن التاسع ق.م. حيث تتضمن حوليات شلمنصر الثالث (Salmanazar III) (858–824 ق.م) قيادة حملات متواصلة ضدّ الآراميين، جوبهت بتحالف حول مملكة دمشق الأراميّة ضمّ الفينيقيين والممالك اليهوديّة خاصّة. ولئن لم تفض الحملات الآشورية إلى نتيجة عسكرية حاسمة لفائدتها فإنّها

فرضت على قوى الشرق الأوسط مجهودا حربيا وخلقت حالة عدم استقرار. وأما بالنسبة لفينيقيا تحديدا فإنّ نصّ حملة 841 ق.م. يشير مجدّدا إلى بلوغ الآشوريين صور وصيدا وتسلّم الضريبة منهما. كما نجد تجسيما لمبعوثي المدينتين في مسلّة قصر آشوري وهم يقدّمون ضريبتهما إلى جانب ضرائب إسرائيل والحثّيين.

اتّجه الآشوريون في بداية الرّبع الأخير من القرن التاسع ق.م. إلى توطيد أوضاع مملكتهم ضدّ الفرس الميديين وبابل وإلى معالجة أوضاعهم الداخلية. وفي هذا السّياق يمكن أن نتساءل عن دور أحداث النصف الثاني من القرن التاسع ق.م المشار إليها في خلق توجّه لدى الفينيقيين لتمتين صلتهم بغرب المتوسط عبر تأسيس مستوطنات جديدة.

وإذا كان من الصعب اعتبار هذا الظرفية محدّدة في تأسيس قرطاج فإنّ المنحى الجديد الذي اتّخذته سياسة الآشوريين تجاه فينيقيا خلال القرن الثامن ق.م. تجاوز الارتباط الضريبي وحدّت من هامش استقلاليتها. فقد اتّجه الآشوريون مجدّدا خلال حكم حدد نيرري الثالث (Adad-Nirari III) (810–783 ق.م) إلى شرق آسيا الصغرى والممالك الأرامية بمنطقة سوريا الشمالية والوسطى وأدّى ذلك إلى خلق حالة ارتباط اداري أشارت إليه حوليّات تقلات فلاسار الثالث (Tiglath-Phalazar III) (744–727 ق.م) لقد أدمجتهم ضمن حدود آشور وولّيت عليهم أعواني' ولئن لم يكن هذا الارتباط آليّا بالسلطة المركزية فإنّه يفترض على الأقل عهود ولاء لآشور تترك هامش استقلالية نسبيّة لكن أقدم هذه العهود (*adê*) المعروفة مؤرّخ حوالي 750 ق.م.

إن البحث في تزامن الضّغط الآشوري شرقا والتوسّع الإغريقي غربا لتبرير البعد الحيوي لتأسيس قرطاج يؤدي بنا إلى مفارقة تاريخية نسبية. فهذا التزامن ينطبق على أحداث أواسط القرن الثامن ق.م. لما تأكدت التبعية تجاه آشور والحملات الاستيطانية الإغريقية في صقليّة وجنوب إيطاليا. لكن لابدّ من اعتبار الأسباب والظّروف التي هيأت لعملية التوسّع الإغريقي وهي الأزمة الاجتماعية الناتجة أساسا عن ضيق الأرض الزراعية

(*stenechoria*) وتطوّر المدينة – الدولة كإطار سياسي جعل من الاستيطان عملية رسميّة ومنظمة وخاصّة عودة الملاحة التي كانت السبيل الرئيسي للمواصلات في بلاد الإغريق والوسيلة المحددة في نشأة اليونان الكبرى.

يمكننا تجاوز صعوبات إثبات هذا التزامن بالنظر في علاقة الفينيقيين ببلاد الإغريق خلال المرحلة العتيقة وإلمامهم بالتحولات التي تعيشها وهي علاقة مثبتة من خلال أهمّ مصادر المرحلة العتيقة أي الإلياذة والأوديسا التي ذكر فيها الفينيقيون في سبع عشرة مناسبة.

ومن المرجّح أيضا أن انعكاسات الحملات الآشورية وأزمة الممالك اليهودية بعد حكم سليمان أعطت دفعا لمبادلات الفينيقيين مع بلاد الإغريق وهذه العلاقة تهمّنا في افتراض إلمام الفينيقيين بالتوجّه الإغريقي نحو الاهتمام بتخفيف الأزمة الاجتماعية عبر سياسة استيطان وهو توجّه لا يمكن أن يُرتجل فالإعداد له يرقي إلى ما قبل القرن الثامن، مما يبرّر في هذه الحالة الطابع الثانوي للتعاقب الخطي للأحداث.

4 – تأسيس قرطاج في ضوء المعطيات الأثرية

بدأ البحث الأثري بقرطاج منذ أواخر القرن التاسع عشر ولم تسمح اللّقى الأثرية وخزفيات المرحلة العتيقة بترجيح تأسيس قرطاج في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد مما يفسّر صدور فرضيات تاريخ متأخّر لتأسيس قرطاج وأهمّها تلك التي صاغها الباحث إميل فوريّر (Emil Forrer) وتبنّاها إدموند فريزول (Edmond Frezouls) وتتمثل في مراجعة جذرية للمصادر الأدبية في غياب السند الأثري معتبرة رواية أواخر القرن التاسع ق.م. تنطبق على قرطاج قبرص. أمّا قرطاج-غرب المتوسّط فقد أسّست خلال النّصف الأوّل من القرن السّابع في حدود 679–663 ق.م. ويستند هذا التاريخ مجدّدا إلى الظرفية التي سادت في فينيقيا خلال القرن الثامن وبداية القرن السّابع ق.م. وهي متمثّلة في انعكاسات الهيمنة الآشورية المباشرة على المنطقة.

يعكس هذا الرأي صعوبة تـاريخ الخـزف الشـرقي والاقتصـار علـى كرونولوجيا الخزف الإغريقي التي تتضمن هامش خطـأ محـدود إضافـة إلـى محدودية القطاعات العتيقة التي كشف عنها إلى حدّ ذلك التـاريخ وهـي المقـابر وهيكل التوفات. إلاّ أنّ حفريات الحملة الأمميّة لإنقاذ موقع قرطاج التـي كشـفت عن مستويات السكن العتيق واللّقى التي مكنت من تأريخه انتـهت إلـى ملاءمـة المعطيات الأثريّة ورواية التأسيس في أواخر القرن التاسع ق.م. أو 814 ق.م.

عثر على أقدم القرائن الأثرية في المقابر العتيقة والتوفات ثم في القطاعـات السكنية. وتمثل المقابر باعتبار ثباتها النسبيّ مجالا حيويّا للبحث الأثري بالمقارنـة مع بقيّة قطاعات المدينة. لكن أقدم المقابر التي درست شرق هضبة بونـو وفـي أسفل منحدر درمش يمكن أن يؤرخ بعض أثاثها بأواخر القرن الثامن ق.م. ولـم يكشف بعد عن مقابر بداية القرن الثامن وفي المقابل فإنّ اكتشـاف مقـابر بدايـة القرن الثامن أو النصف الأوّل منه طرح عدّة تساؤلات منها الـوزن الدّيمغرافـي للمجموعة المؤسسة ومدى امتداد مقابر القرن الأوّل من تأسيس المدينة ثم موقعـه من السكن العتيق. وتضاف إلى هذا الإعتبار إمكانية انتصاب العمران الرومـاني على مجالات جنائزية بصفة لا تسمح لعمليات السّبر رصد بقاياها ويرتكـز هـذا الافتراض على شهادة ترتوليانوس (حوالي 150–220م) الذي شهّر بتعمّد إزاحـة مقابر قرطاجية بونيّة لاقامة الأوديون (قاعة العروض الموسيقية).

أمّا أقدم لقيّ معبد التوفات فبالرغم من الجدل الذي أحـاط بدارسـتها فقـد سمحت بالمقارنة مع المقابر من الاقتراب نسبيا من بدايات قرطـاج العتيقـة فقـد اتجه بيار سنتاس (Pierre Cintas) في معاينته للأواني الفخارية وخاصـة أقـدم الجرار الشرقية إلى اقتراح تأريخها بنهاية القرن العاشـر ق.م. واعتـبر "المعبـد الصغير" المعروف ب"Chapelle Cintas" المكتشف في قـاعدة التوفـات سـابقا لاستيطان الفينيقيين.

تمت مراجعة هذه القراءة الأوليّة لخزف المستوى القاعدي للتوفات الـذي اصطلح على تسميته "تانيت I" ذلك لأنّ الأواني الخزفية التي يتضمنها تشـبه مـن

حيث الشكل والزينة خزف قبرص والشرق الأوسط الذي يـؤرّخ وفـق مقيـاس واسع بين 850 و700 ق.م، على أنّ بعض الجرار الشـرقيّة العتيقـة يمكـن أن تؤرّخ ببداية القرن الثامن ق.م. وهو ما ينطبق أيضا على الأسـكوس والأوانـي التي تعود إلى الفترة المعروفة باسم "قبيل العهد الكورنتي" (p rotocorinthien).

واعتبارا لوضوح كرونولوجية الخزف الإغريقي يمكن أن نعتبر المعاينـة الجديدة التي قام بها برونو دالوستينو(B runo D'Agostino) للخزف الإغريقـي "بالمعبد الصغير" والتي أدّت إلى إدراج هذا الخزف ضمن نموذج "إيتـوس" 666 Aetos ولاكتشف هذا النّموذج خاصّة بموقع (A etos) بجزيرة إيتكـي (Ithaque) ويؤرخ بالربّع الثاني أو منتصف القرن الثامن ق.م. (أنظر الصورتين 1 و2)

فتحت حفريات الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج أفاقا جديدة في معرفـة سكن المرحلة العتيقة فقد مكنت عمليات السبر المنجزة في زاويـة تقـاطع نـهج سبتموس سيوروس وشارع الجمهورية بقرطاج – حنبعل سنة 1987 من العثـور على ستّ قطع فخارية لأواني أوبيّة مـن طـراز "العـهد الهندسـي الحديـث" (géometrique récent) تعود إلى الربّع الثاني والثالث من القـرن الثـامن ق.م. وباستثناء واحدة منها وجدت بردم المرحلة الأغسطية الرّومانية فإنّ القطع الأخرى وجدت في المستويات المتراتبة لأرضية السكن العتيق. وأبرز قطع هذه المجموعة من حيث قيمتها التاريخية "الاسكيفوس" رقم 2 الّذي ينتمي إلـى العـهد الهندسـي المتأخّر أي إلى منتصف القرن الثامن ق.م. والقطعة رقم 5 وهي ممثلـة لنوعيـة خزف سادت في المنطقة الممتدة من تساليا إلى السّيكلاد الشـمالية وتـؤرخ بيـن 900 و750 ق.م. إلى جانب هذه الاستنتاجات المباشرة تمكننا هذه اللقي من الإقرار بأن قرطاج كانت تستورد أواني ومنتجات ايجية إغريقية خلال الرّبع الثاني والثالث من القرن الثامن ق.م. (أنظر الصورة رقم 3)

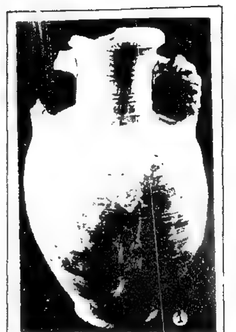
تدعمت هذه النتائج إثر عمليات السّبر التي تمّت بقرطاج درمش وكشـفت بقايا سكن يعود على الأقلّ إلى النصف الأوّل من القرن الثامن ق.م. و ورشـات تعدين من القرن الثامن ق.م. أيضا في تخوم السّكن المشار إليه وافران خزف مـن

القرنين السابع والسادس ق.م. ولمكن مراجعة تراتب السكن القرطاجي في كامل مراحله اعتمادا على كميات هامة من الخزف المستورد الأوبي والفينيقي والقبرصي إضافة إلى الخزف المحلّي المقولب الذي يمثل 25% من خزف مستوى سكن القرن الثامن ق.م. وهو مؤشر جدّي على العلاقة والمبادلات بين الأهالي وقرطاج خلال القرن الأوّل من نشأتها.

وأثبتت الحفريات الأثرية في المنخفض الجنوبي الشرقي لهضبة بيرصا امتداد سكن المرحلة العتيقة على بعد 360 مترا من السّاحل ممّا يؤكّد امتداد السكن في المرحلة الأولى من نشأة قرطاج في اتجاه مجاليّ مختلف عن المرافئ الفينيقيّة والمنشآت التجارية – الميناتية المألوفة في المتوسّط الغربي.

وهكذا أكّدت دراسات سكن المرحلة العتيقة مستويات استقرار مختلفة خلال القرن الثامن ق.م. وتجاوزت محدودية الاستنتاجات الممكنة في بقية القطاعات العتيقة مثل المقابر والتوفات وقلّصت الهوة التي كانت تفصل بين أقدم اللّقي الأثريّة والمعطيات الرّوائية لتأسيس قرطاج. وفي هذا السياق وجب التّذكير بعمل ب.سنتاس السّابق للأبحاث الأثريّة المذكورة والذي أفضى إلى ملاءمة مماثلة بين نشأة المدينة وتحليل نقيشة نذريّة عُثر عليها بمعبد التوفات (C.I.S. ; III, n°3778) مؤرّخة بمنتصف القرن الرابع ق.م. وتتضمّن أحد عشر سطرا.

ويذكر النّاذر في هذه النقيشة أسلافه وهم في عداد ستة عشر جيلا. ينتمي آخرهم مبدئيا إلى النصف الأوّل من القرن الرابع ق.م. وسواء اعتمدنا معدّل ثلاثين سنة لكلّ جيل كما يقترح ب.سنتاس (16 × 30 = 480 سنة + 350 أي تاريخ النقيشة = 830 ق.م) أو ثلاثة أجيال على امتداد كلّ قرن كما يرى ق.بونتس (533 سنة للأجيال الستة عشر) فإنّ ممثّل الجيل الأوّل يعدّ معاصرا لنشأة المدينة.









1. جرة مؤرخة بأواخر العهد الهندسي حوالي منتصف القرن الثامن ق.م عثر عليها في أقدم طبقات توفات قرطاج وهي نموذج مصغر لإنتاج جرار السيكلاد الإغريقية

2. جرة عثر عليها بحفريات توفات قرطاج مؤرخة بأواسط القرن الثامن ق.م وهي نموذج لجرار ذات شكل فينيقي شائع منذ بداية الألف الأولى ق.م. لكن طراز الزينة (الأشكال الهندسية والطيور) شبيه بالمجسمات على الجرار الإغريقية الأتيكية وجرار السيكلاد وكريت

المصدر Archeologie vivante 1 2 (1968-1969)

3. قدحان إغريقيان عثر عليهما في طبقة السكن العتيق بقرطاج وهي مؤرخة بالنصف الأول من القرن الثامن ق.م

المصدر

VEGAS M. «Ceramique de la periode du geometrique recent a Carthage » in CEDAC n°10 (Juin 1989) p 27

مصادر الفصل الثالث ومراجعه

1 - المصادر

- APPIEN, *Histoire romaine - VIII, 1, 1-2, 19, 132.*

- FLAVIUS JOSÈPHE, *Antiquités Juives, VII, 5,3.*

- *Contre Apion, I, 17 et 18.*

- JUSTIN, *Abrégé des histoires philippiques, XVIII, 4,5 ,6.*

- TIMÉE DE TAORMINE, *Fragments d'Histoire grecque, n°23.*

- VIRGILE, *Eneide*, Traduit et commenté par J.Perret. Paris: Les Belles lettres, 1981.

- *Textes du Proche-Orient ancien et histoire d'Israël, (textes n°19 à 29)* - présentés par Jacques Briend et Marie-Joseph Seux, Paris, 1977.

المراجع

- ALONSO - NUNEZ (J.M), "Trogue pompoée sur Carthage", in, *Karthago. XXII*, (1990) p. 11 -19.

  "Trogue Pompoée et Massalia (Justin, Epitoma XLIII,3,4- XLIII, 5,10)", in Latomus, T53. Fasc.1, Janv. mars, (1994), pp. 110-117.

- ALVAR (J) et WAGNER (C.G), "Considerationes historicos sobre la Fundacion de Cartago", in *Gèrion, 3,* (1985) p. 79-95 (editorial de la Universidad Complutense de Madrid).

- BERARD (V), *Les phénciciens et l'Odyssée,* Paris, 1927, T I.

- BLOCH (R), *Les orgines de Rome*, Paris, PUF, 1985 (QSJ? n°937).

- BUNNENS (G), *L'expansion phénicienne en Méditerranée: essai d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littéraires,* Bruxelles - Rome, 1979.

- "Considérations géographiques sur la place occupée par la Phénicie dans l'expansion de l'empire assyrien", in, *Studia Phoenicia. 1-2,* (1983), p 169-193.

- BUXTON (R), *La Grèce de l'imaginaire. Les contextes de la mythologie.*, trad. de l'anglais par Micheline Wechsler - Bruderlein - Paris, 1996.

- CALAME (C), *Thésée et l'imaginaire athénien: Légende et culture en Grèce antique.* - Lausanne, 1990.

- CINTAS (P), *Manuel d'archéologie punique. I: Histoire et archéologie camparées*, Paris, 1970.

- DESANGES (J), *Recherches sur l'activité des méditerranéens aux confins de l'Afrique*, Rome, 1978.

- "Rex Muxitanorum Hiarbas (Justin XVIII, 6, 1)", in, *Philologus, 111*, (1967). p. 304 - 308.

- DETIENNE (M), *L'invention de la mythologie*, Paris, Gaollimard, 1981.

- DETIENNE (M) et VERNAT (J.P), *Les ruses de l'intelligence· La métis des Grecs*, Paris, 1974.

- DUMEZIL (G), "L'idéologie des trois fonctions dans quelques crises de l'histoire romaine", in, Latomus, t XVII, Fas. 3, Juillet-Sept. (1958) pp. 429 - 445.

- DUPONT - SOMMER (A), *Les Araméens*, Paris, 1994.

- FANTAR (M.H), *Carthage: Approche d'une civilisation. T1. - (Chap. II. p. 63-107)*, Tunis, 1993.

- FERJAOUI (A), *Recherches sur les relations entre l'Orient phénicien et Carthage*, Tunis, 1992.

(ترجم إلى العربية تحت عنوان بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقـــي وقرطاجة. تونس 1993)

- FINLEY (M.I), *Les premiers temps de la Grèce: l'âge du bronze et l'époque archaïque*, Paris, 1980.

- FREZOULS (E), "Une nouvelle hypothèse sur la fondation de carthage (A propos d'un article de M. Emil Forrer)", in, *Bulletin de correspondance Hellémique, LXXIX*, (1955), p. 155-176.

- GARELLI (P) et NIKIPROWEZKY (V), *Le Proche - Orient asiatique: Les Empire mésopotamiens. - Israël*, Paris, 1974.

- GRAS (M), ROUILLARD (P) et TEXIDOR (J), *L'Univers phénicien*, Paris, 1989.

- GROTANELLI (C), "Encore un regard sur les bûchers d'Amilcar et d'Elissa", in, *Atti del Congresso di Studi Fenici et Punici. I* Rome (1983), p. 437-441.

- GSELL (St.), *H.A.A.N. - TI, (p. 359-401)*, Ed. 1972.

- LETOUBLON (F), *Fonder une cité: ce que disent les langues anciennes et les textes grecs ou latins sur la fondation des cités*, Grenoble. - Université des Langues et des Lettres, 1987.

- LIPINSKI (E), "La Carthage de Chypre", in, *Studia Phoenicia, 1-2-* (1983). p. 209-234.

- "Byrsa", in, Carthage et son territoire dans l'Antiquité, *IV colloque du BCTH*, Paris (1990) p. 123-129.

- LEVI - STRAUSS (C), *Anthropologie structurale (chap. XI· La structure des mythes)* Paris, 1958.

- MARTIN (R) (Ed), *Ennée et Didon: Naissance, fonctionnement et survie d'un mythe, Actes du colloque organisé par le centre d'Etudes sur l'Antiquité Rémanente (Décembre 1988)* : Paris; CNRS, 1990

- MOSCATI (S), "La fortuna di Elissa", in, *Rendiconti. dell'Accademia Nazionale dei Lincei, 40,* (1985), p. 95-98.

- NEIMEYER (H G), "A la recherche de la Carthage archaïque: premiers résultats des fuilles de l'université de Hambourg en 1986 et 1987", in, "*Carthage et son territoire dans l'Antiquité*" *XVe colloque du B.C.T.H.*, Paris (1990), p. 45-52.

- PICCALUGA (G), "Fondare Roma, domare Carthagine: un mito delle origini", in, *Atti del congresso di studi Fenici et punici I*, Roma, (1983) p. 409-421

- PICARD (G,Ch), *Les religions de l'Afrique antique. (Chap. II: Mythes de la fondation et de la royauté de Carthage)*, Paris, 1954.

- "Mythe et histoire aux début de Carthage", in *Atti. delII Congresso di Studi Fenici et Punici Vol. I.* Rome, (1991), p. 385-392.

- POUCET (J), "La fondation de Rome: croyants et agnostiques", in, Latomus, T53. Fasc.1, Janv. mars, (1994), pp. 95-104.

- RAKOB (F), "Fouilles à Carthage en 1990", in, *CEDAC, n°12,* (Juin 1991), p. 7-15.

- RIBICHINI (S), "Mito e storia: l'immagine dei fenici nelle Fonti litterarie Classiche", in, *Atti del congresso di studi Fenici et punici I*, (1983) p. 443-448.

- "Les Phéniciens à Rhodes face à la mythologie classique· Ruses, Calembours prééminence culturelle", in, *Atti del primo Congresso di Studi Fenici et Punici -III*, p. 341-337.

- ROUX (G), *La Mésopotamie· essai d'histoire politique, économique et culturelle*, Paris, 1985.

- SAID (S), *Approches de la mythologie grecque*, Paris, 1994.

- SCHEID (J) et SVENBRO (J), "Byrsa, la ruse d'Elissa et la fondation de Carthage", in *Annales E.S.C.* , mars-avril, (1985), n°2, p. 328-342.

- SZNYCER (M), "Le problème de la "Mégara" de Carthage", in,: *Histoire et Archéologie de l'Afrique du Nord, B.C.T.H.*, Paris, (1985), p 119-132.

- VEGAS (M), "Céramique de la période du géométrique récent à Carthage", in *CEDAC n°10*, (Juin 1989), p. 26-28.

- VERNANT (J.P), *Mythe et pensée chez les Grecs*, Paris, 1971

- VEYNE (P), *Les Grecs ont-ils cru à leurs mythes?* Paris, 1983.

– فنطر (محمّد حسين). "حول حضور الفنيقيين فى غربي البحر الأبيض المتوسّط وتأسيس قرطاج." سلسلة الدروس العمومية عدد 2. منوبة 1995 ص. 111-122

الفصل الرابع

مدينة قرطاج : الإطار الحضري

حتى تاريخ قريب كنّا نجهل كلّ شيء تقريبا عن الإطار الحضري لمدينة قرطاج إذا استثنينا ما كشفت عنه الحفريات التي تمّت منذ القرن التاسع عشر على أرض العاصمة البونية من معلومات ترتبط بالدرجة الأولى بالمقابر ومعبد التوفات تضاف إلى ذلك بعض المحاولات التي بذلت للتعرف على أسوار المدينة وموانيها ولكن وبالرغم من غزارة الأبحاث المقدمة في هذا الشأن وعدم إغفالها لما تقدّمه النصوص الأدبية من وصف دقيق (الأسوار والموانى وبعض الأحياء) ومحاولة مقارنة محتوى هذه المادة بالمعطيات الميدانية يجب الاعتراف أن رؤيتنا لأبسط جوانب هذه المسألة ظلت رؤية مبهمة عاجزة عن تنزيل هذه المكوّنات العمرانية ضمن تصوّر أرحب بإمكانه أن يقدّم إجابات ولو تقريبية عن استفهامات يمكن اختزالها في مجموعة من الأسئلة لعلّ أبرزها كيف كان النسيج العمراني القرطاجي؟ ما هي حدوده؟ كيف تطوّر عبر الزمن؟...

يجب القول أن تقديم أجوبة مقنعة ونهائية على مثل هذه التساؤلات على بساطتها يظلّ أمرا عسيرا وذلك بالرغم مما تمّ تسجيله من تقدّم في هذا المجال بفضل الحفريات التي تمت أخيرا في إطار الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج وهي الحملة التي سنعود إليها لاحقا بإسهاب.

في محاولة منّا مدّ القارئ بعرض يسعى إلى تحقيق معادلة تجمع في الآن نفسه بين الدقة العلمية ووضوح الرؤية بدا لنا من الصائب اعتماد التمشي التالي: سنسعى في مرحلة أولى إلى إحاطته علما بأبرز النصوص

التاريخية المعتمدة والتي شكلت عمدة الدراسات المنجزة خاصة بالنسبة للأسوار والموانى.

في مرحلة ثانية سنعمل على تبصيره بالصعوبات التي يصطدم بها كلّ علماء الآثار بدون استثناء عند قيامهم بالحفريات على أرض قرطاج ومن أهمها ما أصاب الموقع من تدمير ومحاولات طمس منذ سنة 146 ق.م على يد الرومان ثم على امتداد الحقب الموالية وهي ظاهرة أثّرت سلبا على تقدّم المعرفة التاريخية في هذا المجال ومن هذا المنطلق قد لا يعي القارئ بسهولة مدلولات بعض العبارات التي تتردّد كثيرا في تقارير الحفريات "كطبقات الردم" و"خنادق النهب" و"سبر محدود المساحة" و"طبقات أثرية متداخلة"... لذلك نأمل أن يُوفّق هذا الحّيز في خلق نوع من الألفة بين القارئ وبين خصوصيات موقع قرطاج.

في مرحلة ثالثة: لمّا كانت الحفريات المقامة في السنوات الأخيرة بتنسيق بين البلاد التونسية ومنظمة اليونسكو تعدّ أبرز منعرج سجّل في تاريخ الدراسات البونية على امتداد العشرين سنة الأخيرة فقد رأينا من المفيد التعرّض بإيجاز لمختلف هذه البعثات مع التركيز على أعمال البعثات الألمانية والفرنسية والتونسية والانقليزية والأمريكية لما لها من صلة بمحتوى هذا الفصل.

بعد هذه التوطئة سنخصص ما تبقى من هذا الفصل إلى استعراض آخر ما وقع التوصّل إليه من نتائج تخص الإطار الحضري للعاصمة البونية: ونحن نسعى إلى تقديم صورة أقرب ما تكون إلى الوضوح فقد ارتأينا تقسيم تاريخ قرطاج إلى ثلاث فترات فترة أولى تطلق عليها معظم الدراسات تسمية قرطاج العتيقة (archaïque) وتغطي إجمالا الثلاث القرون الأولى من تاريخ هذه الحضارة أي من القرن الثامن حتى القرن السادس قبل الميلاد ثم فترة ثانية تغطي القرنين الخامس والرابع والنصف الأوّل من القرن الثالث فيما تغطي الحقبة الثالثة والأخيرة ما تبقى من تاريخ هذه

الحضارة متّبعين في ذلك المنعرجات الهامة لحركة التمدين القرطاجي وذلك حتى لا تتداخل في ذهن القارئ جملة التحولات التي شهدتها أرض قرطاج. ونحن نودّ الإشارة إلى أن هذا التقسيم الكرونولوجي رائج في عديد الأبحاث الحديثة نذكر منها على سبيل المثال أبحاث س.لنسال (S.Lancel) ولكن من الضروري التنبه إلى أن التقسيمات الكرونولوجية قد تختلف إذ من الشّائع أن يدرج بعض الباحثين ملاحظاتهم حول التمدين في قرطاج متبنيين تقسيما زمنيا يعتمد فترتين فقط: الفترة العتيقة (وهي محل إجماع) وما تبقى من تاريخ قرطاج (القرن الخامس حتى سنة 146 ق.م).

من حيث المصطلحات المعتمدة قد توقع التسميات المتداولة القارئ في بعض الخلط إذ تطلق على الفترة الأولى عادة تسمية قرطاج العتيقة وهي التسمية الأكثر ذيوعا ولكننا نصادف أحيانا تسمية قرطاج الأولى ويكتسي الأمر بعض الصعوبة عند التعرض للفترة الثانية إذ يطلق عليها البعض تسمية قرطاج الماغونية (نسبة إلى العائلة الماغونية) التي قد تكون مسكت بمقاليد السلطة في قرطاج خلال هذه الفترة (يظل تاريخ نهاية العائلة محل جدل بين المؤرخين) ولكننا نجد أحيانا تسمية العصر البوني الأوسط (punique moyen) (أعمال هـ.ج.نيماير مثلا) وأحيانا أخرى قرطاج الكلاسيكية (La Carthage classique). أمّا الفترة الأخيرة فتسمى غالبا قرطاج الهيلينستية (hellénistique)* وطبيعي أن يتفطن كلّ عارف بتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط القديم وخاصة في جزئه الشرقي إلى هذا الإسقاط الواضح لواقع الحضارة اليونانية من حيث التسميات المعتمدة على الحضارة البونية وهو ما يستدعي منا بعض الحذر عند استعمالها.

---

* الفترة الهيلينستية (L'époque hellénistique) = تسمية تعوّد المؤرّخون إطلاقها على الفترة التي تلي وفاة الإسكندر المقدوني سنة 323 ق.م. وقد تميّزت بتلاقح كبير بين الحضارات الشرقية والحضارة الإغريقية وتنتهي هذه الفترة باحتلال روما لمملكة مصر في سنة 30 ق.م.

المصادر الأدبية والنقائشية

يعتبر نص الكاتب الإغريقي أبيانوس أحد أشـــهر الوثـــائق الأدبيـــة المعتمدة من قبل الدراسات الحديثة في محاولتها التعرف على أسوار المدينـة ومواniيها بالخصوص إذا ترك لنا هذا المؤلّف وصفا دقيقا لــهذين المعلميــن يرقى إلى السنوات الأخيرة من حياة مدينة قرطاج وبالتحديد عندما حاصرها الرومان ما بين السنوات 149 و146 ق.م وبالرغم مـــن طابعــه المتـأخر مقارنة بتاريخ الأحداث المروية بحكم أن الكاتب عاش خلال القرن الثـــاني بعد الميلاد فإن المؤرخين المحدثين يثقون في هذه الروايـــة باعتبـــار أنـــها اعتمدت على مؤلّف كاتب حضر الأحداث هو بوليبيوس والذي كــــان مـــن خاصّة القائد الروماني سقيبيو الإميلي.

يمكن تقسيم المعلومات الواردة لـــدى ابيـــانوس عنـــد حديثـــه عـــن التحصينات الدفاعية والمواني القرطاجية إلى

- تقديم جغرافي لموضع قرطاج
- بعض التفاصيل عن الحصون القرطاجية
- وصف للمواني القرطاجية = الميناء التجاري – الميناء العســكري – جزيرة الأميرال
- وصف دقيق لسير المعارك مع إضافات قيّمة تخـــص الحصـــون والمواني.
- استيلاء الرومان على منطقة الميغارا (Mégara).
- عودة إلى وصف دقيق للمعارك بين الجانبين مع معلومات أخـــرى عن المواني والحصون.

بالإضافة لما أورده أبينوس نجد إشارات عابرة لدى بعض المؤرخيـن الكلاسيكيين أحكم جمعها واستثمارها س.قزال وأ.أدلون ونذكر منـــها علـــى سبيل المثال الإشارات الواردة لدى بوليبيوس وتتعلـــق بموضـــع قرطـــاج (I،73،4–5) والجغرافي اليوناني سترابو (XVII،3،14) الذي يشـــير إلـــى

موضع الأكربوليس المنتصب وسط المدينة يعلوه معبد الإله اسكولابيوس كما نجد إشارات واردة عرضا في مؤلّف ديودروس الصقلي المكتبة التاريخية وبالتحديد في الكتب III، 8،44 (موانئ قرطاج المنحوتة في الصخر) وXV، 73،3-4 (احتراق الترسانة البحرية القرطاجية) وXX،44 (المدينة الحديثة) وXXXII، 24 (الأسوار القرطاجية) إضافة إلى ما يمكن استقراؤه باعتماد فلوروس (I،31،11) وب.أوروزيوس (IV،22) والشاعر ورجيليوس (I،365 وIV، 265 و347...).

أمّا بالنسبة إلى النصوص النقائشية فيقتصر الأمر على نص وحيد نُطلق عليه اليوم غالبا تسمية نقيشة التمدين القرطاجي ويعود على ما يرجح إلى فترة القرن الثالث قبل الميلاد ولازال محتوى النص المذكور حتى اليوم موضع جدل كبير بين المختصّين إذ تتباين الآراء حول تأويل العبارة الواردة في سطره الأوّل وستكون لنا عودة إلى هذه الوثيقة عند الحديث عن التمدين القرطاجي خلال الفترة الممتدة من بداية القرن الثالث حتى 146 ق.م.

وضعية أثرية تتميز بكثير من التعقيد

شدّدت كلّ تقارير الحفريات تقريبا على الصعوبات الجمّة التي يواجهها علماء الآثار عند قيامهم بحفريات على أرض قرطاج بسبب التغييرات التي عرفها الموقع على امتداد تاريخه ويمكن للمهتم أن يلاحظ ذلك دون أدنى صعوبة على هضبة بيرصا مثلا وهي تعطي صورة نموذجية عن هذه الظاهرة فقد عمد الرومان سنة 146 ق.م إلى حرق المدينة ودكّ معالمها واتخذوا قرارا بمنع البناء على أرضها باعتبارها أرضا ملعونة. وعلى امتداد قرن من الزمن تقريبا تكالبت العوامل الطبيعية لتضفي على هذا الموضع تشويهات إضافية (انجراف، طمي..). عادت مدينة قرطاج بعد حوالي عشريتين من سقوطها إلى مركز اهتمامات الرومان

وذلك على هامش الصراع الاجتماعي في روما بين الأرستقراطية والعامّة التي كانت ترنو إلى الاستفادة من حركة التوسّع باكتساب الأراضي وإنشاء المستوطنات، ففي حدود سنة 123ق.م نجح نوّاب العامة في فرض هذا المطلب وعُهد للجنة ثلاثية بالإشراف على توطين المعمّرين وكان كايوس قراكوس (Caius Gracchus) أبرز أعضائها فأقرّت إنشاء مستعمرة قرطاج اليُونونيّة (Colonia Iuononia Karthago) وقاد فولفيوس فلاكّوس (Fulvius Flaccus) – نائب العامّة – ستة آلاف معمّر ثمّ تبعه كايوس قراكوس سنة 122 ق.م. للإشراف على إنجاز المشروع لكنّ مجلس الشيوخ أثار في نفس الوقت حملة دعائية واسعة ضدّ نائبي العامّة المذكورين أساسها تحدّيهما لإرادة الآلهة في التخلّي النهائي عن موقع قرطاج البونية وذلك لإضعاف تأثيرهما السياسي وتفادي إعادة انتخابهما وقد نجح خصومهما في إقصائهما وإصدار قانون إلغاء مستعمرة قرطاج سنة 121 ق.م ورغم المحدودية الزمنية لهذا المشروع فقد ترك تقسيم الوحدات العمرانية شواهد شمال غرب ملعب السرك الروماني أي على هامش المناطق المركزية للمدينة البونية.

تبدّدت تدريجيا وطأة المنع الديني مع بداية المنعرج الجدي لسياسة الاستيطان الروماني لشمال إفريقيا فقد أمر يوليوس قيصر سنة 44 ق.م – قبيل مقتله – بإحداث مستعمرة قرطاج اليوليّة (Colonia Concordia Iulia Karthago) وألحق بمجالها الترابي (Pertica) مجموعات المواطنين الرومان المتمركزين في ضواحي المدن الأهلية، أي أنّه ارتأى لها دور العاصمة الجديدة للمقاطعة وقد تمّ تجسيم المشروع بعد مقتل يوليوس قيصر بقليل وذلك بتركيز ثلاثة آلاف مستوطن بقرطاج في تاريخ يُعتقد أنّه يتنزّل قبل سنة 40 ق.م. وأثناء إشراف لبدوس (Lepidus) على شؤون ولايتي إفريقيا من سنة 40 إلى سنة 36 ق.م عاشت مستوطنة قرطاج فترة من التجميد وضع لها أكتفيوس حدّا عندما آلت إليه مسؤولية الإشراف على

شؤون الولايتين الإفريقيتين. وتمثّلت أهمّ مبادرات أكتفيوس في تدعيم مستوطنة قرطاج وذلك بتركيز ثلاثة آلاف مستوطن أضيفوا للمجموعة التي كان يوليوس قيصر قد أمر بتنصيبها.

سعى الرومان في البداية وكما بيّن ذلك س.لنسال لتجميع كلّ ما يمكن. استغلاله من مواد لإعادة تشييد المدينة ثم عمدوا إلى تغيير وجه بيرصا من ربوة ناتئة إلى هضبة منبسطة تتراوح مساحتها بين 3 و4 هكتارات وأدت هذه العملية الأخيرة إلى تكديس ما يقارب المائة ألف متر مكعب من الأتربة على السفوح وهو ما يعرف في تقارير الحفريات بطبقة الردم التي غطّت طبقة التدمير الأولى والتي تعود إلى سنة 146 ق.م. ولتجنب ما قد يصيب هذه الطبقة من انهيار عمد الرومان إلى إقامة حيطان لإحاطتها تطلق عليها تقارير الأثريّين تسمية حيطان الدعم ولا تزال بقاياها جلية حتى اليوم وبذلك أعدّ المهندسون الرومان فضاء بإمكانه احتواء مجموعة من المعالم تعتبر رمزا للسيادة الجديدة كالفوروم وبعض المعابد. ممّا تقدّم وأسوة بس.لنسال نتبيّن أنه من المستحيل أن نعثر على اثار قلعة بيرصا البونية بمكوناتها التي تذكرها المصادر الأدبية كالحصون ومعبد الإله أشمون... بسبب الأشغال التي أشرنا إليها آنفا وللتدليل على ذلك يمكن الاكتفاء بالمثال الوارد لدى نفس الباحث والمتعلق بخزانات المياه البونية التي يتراوح عمقها حاليا بين متر و1,5 متر وهي أرقام لا تعكس حقيقة عمقها الأصلي والذي كان لا يقل عن 3.5 م إن لم نقل 4 أمتار.

في المقابل وبالنسبة إلى الأجزاء الوسطى والمنخفضة من الهضبة شكلت طبقة الردم التي تراكمت فوق ما تبقى من آثار الحضور القرطاجي نوعا من الغلاف الحامي يصل سمكه في بعض النقاط إلى عشرة أمتار وهو غلاف لم يقع اختراقه إلا من قبل أسس البنايات الرومانية وذلك في بعض المواضع فقط.

إن إبداء هذه الملاحظات الأساسية أمر لا مناص منه

حتى يفهم المهتم بتاريخ التمدين القرطاجي والزائر لموقعها سرّ غرابة الوضعية الأثرية التي يشاهدها على أرض الواقع حيث يلاحظ تتلاصق شواهد الحضارة القرطاجية على الأجزاء المنخفضة من الهضبة تعلوها أو تشرف عليها الحجارة الضخمة التي شكّلت أسس المعالم الرومانية الممتدة على قرابة أربعة قرون من التاريخ والواقع أنّ هذه الوضعية قد تختلف من موقع إلى آخر نظرا للاختلافات الطوبوغرافية. ولكن يمكن لنا أن نقبل إجمالا بوجود مجموعة من الملاحظات يمكن سحبها على الموقع بأكمله.

أ – توالي الحضارات مع ما يترتّب عن ذلك من طمس لمعالم قرطاج البونية

بعد فترة الحضور الروماني سقطت إفريقيا تحت سيطرة الوندال مع أواسط القرن الخامس بعد الميلاد وأصبحت قرطاج عاصمة لمملكتهم على امتداد قرن من الزمن قبل أن ينتصب على أرضها البيزنطيون حتى قدوم العرب المسلمين الذين استولوا عليها في نهاية القرن السابع ثمّ تركوا موقعها مفضّلين عليه مواقع أخرى.

ب – الضغط العمراني الحديث

بعد فترة توقف عادت حركة البناء على أرض قرطاج لتنشط مجددا خلال القرن التاسع عشر خاصة بعد مدّ الخط الحديدي الرابط بين تونس وحلق الوادي والمرسى وهي ظاهرة تسارعت خلال الفترة الأخيرة بسبب وجود موقع قرطاج بين ثلاث تجمعات عمرانية شهدت نموّا سكانيا حثيثا وقد عدينا ضواحي حلق الوادي والمرسى وسيدي أبي سعيد وطبيعي أن تتحوّل ضاحية قرطاج كغيرها من بقية مناطق الضاحية الشمالية إلى منطقة جاذبة للسكان وأن تعتبر أرضها، كما أبرز ذلك ع.النابلي، بمثابة امتداد طبيعي معدّ لتوسّع العاصمة تونس.

أصبح موقع قرطاج بسبب هذا الضغط العمراني مهددا وبديهي أن تتسبّب المباني المقامة في إعاقة الأبحاث المعاصرة من هنا نفهم طبيعة بعض الحفريات المنجزة كالحفريات الألمانية التي تهمّنا بالدرجة الأولى في هذا الفصل وقد اقتصرت غالبا (باستثناء الحفريّة المواجهة لمبنى بيت الحكمة اليوم المعروفة اصطلاحا "بحي ماغون") على سلسلة من الأسبار العميقة حقّقت بالرغم من محدوديتها على مستوى الامتداد نتائج على قدر لا يستهان به من الأهمية.

هذا الثراء التاريخي يفسّر في الآن نفسه التعقيد الذي يلاحظه كلّ دارس لتاريخ قرطاج البونية باعتبار أن الوصول إلى الطبقات الأثرية التي تعنينا يمر حتما عبر اختراق طبقات أخرى هي أيضا شواهد على الفترات اللاحقة وهنا تطرح على عالم الآثار قضية التمييز بين مختلف الحقب أو فلنقل بين مختلف الأدلة على هذه الحقب وللتدليل على ذلك يمكن أن نشير إلى السبر الذي أنجزه ف.راكوب قرب شارع الجمهورية اليوم والذي كشف فيه عن وجود16 طبقة أثرية.

الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج

كما أشرنا إلى ذلك سابقا لم يوفّر إشعاع قرطاج التاريخي مناعة تحمي موقعها من الاجتياح العمراني الحديث وذلك بالرغم من الجهود التي بذلت منذ انتصاب الحماية الفرنسية في أواخر القرن الماضي وقد ارتبط الاهتمام منذ البدء بغايات استعمارية صرفة إذ شكّل البحث عن آثار الحضور المسيحي الهاجس الأوّل الذي دفع بالكاردينال لفيجري (Lavigerie) إلى تكليف الأب دولاتر (Delattre) بالبحث عن شواهد هذا الحضور بهذا الموقع ومع مرور السنين تعاظم خطر سقوط قرطاج في طي النسيان الأبدي.

في هذا الإطار بالذات يتنزل النداء الذي أطلقته منظمة اليونسكو بمبادرة من الدولة التونسية لإنقاذ موقع قرطاج وقد أثمر سلسلة حملات أثرية تبنتها مجموعة من البلدان استجابت لهذه الدعوة بتنسيق مع المعهد الوطني للتراث وسنركّز في هذا الموضع من دراستنا على أعمال:

* البعثة الألمانية: غطت تدخلات البعثة الألمانية قطاعـــا عريضـــا تركّز بالخصوص أسفل هضبة بيرصا بمحاذاة البحر لكن هـــذا لـــم يمنـــع ف.راكوب (F.Rakob) من القيام بأسبار عميقة خارج المنطقة المذكورة في محاولة للكشف عن حدود "المدينة العتيقة". وقد تدعمت الجهود الألمانية فـــي فترة لاحقة بمشاركة هـــ.ج نيماير والذي يعتبر من أفضل المختصّين فـــي تاريخ المواقع الفينيقية بشبه الجزيرة الايبيرية.

* البعثة البريطانية: تركّـــزت أعمـــال هـــذه البعثـــة تحـــت إشـــراف هـــ.هورست (H.Hurst) في منطقة الموانى القرطاجية وعمـــل هـــذا الفريـــق بتنسيق مع فريق ثان أشرف عليه. ل.ستيجر (L.Stager) تركّزت جهوده علـــى حافّة ما يعرف اليوم بميناء قرطاج المستطيل (في ضاحية صلامبو اليوم).

* بعثـــة مشـــتركة كنديـــة أمريكيـــة تحـــــت إدارة أ. جيفـــــورد (J.A. Gifford) وف.فيتالي (V. Vitali): قامت هذه البعثة بإنجاز مجموعة من الأسبار الستراتيغرافية والجيولوجية كان الهدف مـــن ورائـــها محاولـــة رصد التطور الجيولوجي الذي عرفته منطقة الموانى وهي منطقـــة تســـتمد أهميتها لا فقط من وجود هذه البنية البحرية التي تقيم الدليل علـــى درجـــة الإتقان التي بلغها القرطاجيون في هذا الميدان بل وكذلك من وجـــود معبـــد "التوفات" الذي يرقي إلى الفترات الأولى من تاريخ قرطاج والذي كان محلّ اهتمام الباحث ل.ستيجر وقد أثْرت النتائج التي تمّ التوصل إليـــها معرفتنـــا التاريخية بجوانب كانت حتى تاريخ قريب مجهولة وتتعلق بالحياة الدينية .

* البعثة الفرنسية: تركّزت أعمالها تحت إشراف س.لنســـال وج.ب. مورال (J.P.Morel) على هضبة بيرصا وبالتحديد على الســـفح الجنوبـــي منها حيث أمكن الكشف عن حي سكني يعود إلى الفترة المتأخرة من تـــاريخ قرطاج وقد ثبت أن هذا الحي أقيم على أنقاض ورشـــات تعدينيـــة أخـــذت بدورها مكان مجموعة من القبور ترقى إلى الفترة العتيقة (تطلق على هـــذه النقطة اليوم تسمية اصطلاحية: حي حنبعل).

* الفريق التونسي: اتخذت الحفريات التونسية غالبا طابع الحفريات العاجلة التي أملتها ظروف خاصة كالكشف عن لقى تستوجب تدخلا سريعا في نقاط هي على ملك البحث الأثري وسرعان ما تحوّلت هذه التدخلات إلى حفريات منظمة في نقطتين على الأقل توجد الأولى على مستوى ما يعرف بنهج عشترت فيما توجد الثانية بضاحية الكرم قبالة الملعب البلدي اليوم.

النسيج العمراني القرطاجي

ظلت معرفتنا بالنسيج العمراني القرطاجي على امتداد فترة طويلة محدودة ذلك أن ما أنجز من تنقيبات أثرية قبل الحملة العالمية لم يسمح بالكشف إلا عن مجموعة من المقابر تغطي زمنيا فترات ممتدة إضافة لمعبد التوفات الموجود جنوب موقع قرطاج ويتسنى للمتأمل في خريطة توزيع المقابر العتيقة (القرن السابع والسادس) أن يلاحظ دون صعوبة أنها تمتدّ على شكل هلال يحيط بسهل ساحلي يحدّه معبد التوفات جنوبا والبحر شرقا ومحور يخترق حمامات انطونيوس شمالا وأسفل هضبة بيرصا غربا وتتجه الدراسات اليوم نحو إثبات أن ما يسمى "مدينة الأحياء" كان يمتد على هذه السهل .

المدينة العتيقة : القرن الثامن – القرن السادس قبل الميلاد

إلى حدّ سنة 1983 لم تتوفق الحفريات في الكشف عن آثار مدينة قرطاج العتيقة إذا ما استثنينا طبعا المقابر ومعبد التوفات ولكن تدخلا عاجلا في ما تطلق عليه تقارير الحفريات تسمية "ملكية بن عيّاد" الواقعة بضاحية قرطاج حنبعل اليوم شرق الخط الحديدي سمح للبعثة الألمانية بالكشف عن حائط يرقى إلى أواخر القرن الثامن وقد مثّل هذا الاكتشاف الحلقة الأولى في سلسلة من الاكتشافات تعود جميعها إلى الفترة العتيقة ولعل أبرزها ما تمّ العثور عليه في النقاط التالية:

– في حي ماغون وبالتحديد في جزئه الغربي قرب نهج سبتيموس سيويروس اليوم تمّ الكشف عن حائطين يعودان إلى القرن السابع قبل الميلاد

– بعد إنجازها لسبر عميق على حافة البحر على مقربة من شارع الجمهورية اليوم توصلت البعثة الألمانية للتعرف على ستة عشر طبقة أثرية

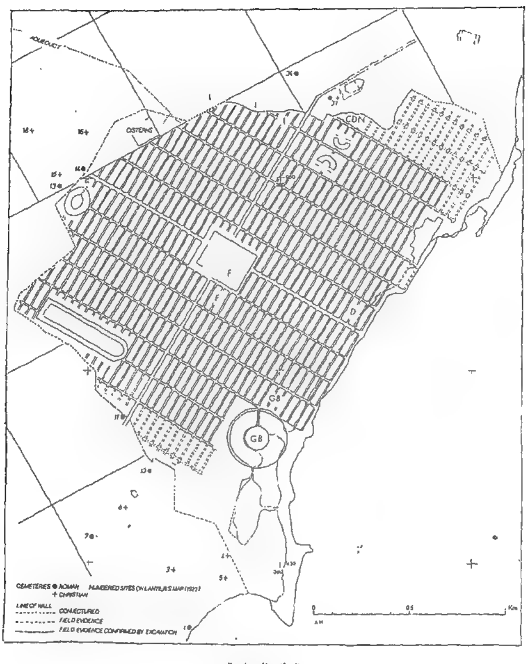
وتكمن أهمية النتائج المحقّقة لا فقط في ما تمّت الإشارة إليه بل وأيضا في نجاح أفراد البعثة في تحديد الخط الساحلي العتيق (القرن السادس قبل الميلاد) والذي كان يوجد على مسافة ثمانين مترا تقريبا غرب الساحل الحالي الموافق إجمالا لساحل القرن الخامس قبل الميلاد.

– توصلت البعثة البريطانية عند القيام بمدّ شبكة التطهير بقرطاج للكشف عن طبقة أثرية تعود إلى الفترة العتيقة وبالتحديد إلى القرن السادس قبل الميلاد وذلك على مستوى نهج سوفونسب اليوم ويشير تقرير البعثة الصادر بتاريخ أكتوبر 1989 (نشرية CEDAC) إلى شواهد عن وجود مباني خشبية؟ تختلط بطبقات أثرية تغطي فترة زمنية طويلة تمتدّ من الفترة العتيقة حتى تاريخ تحطيم المدينة وقد تمّ التعرّف على ذلك على مستوى نهج بلينوس اليوم.

أمكن لفريق البحث التونسي أن يحقّق إنجازات مماثلة في موضعين على الأقل: الأوّل بضاحية قرطاج حنّبعل وذلك عندما دعي للتدخل عند إنجاز منزل يوجد على مستوى الزاوية الواقعة بين شارع بورقيبة وشارع الجمهورية وتحملنا الطبقات الأثرية المكتشفة في هذا الموضع إلى النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد أما الموضع الثاني فيقع بين الكاردو XII والكاردو XIII شمال الديكومانوس I الشمالي مباشرة* (**انظر وثيقة قرطاج الرومانية**). وقد بلغ عمق السبر المنجز خمسة أمتار وأثبت تواصل الحضور البشري بهذه النقطة من الفترة العتيقة إلى تاريخ تحطيم قرطاج.

---

* تعودت تقارير الحفريات أن تحيل القارئ باعتماد التخطيط الروماني لمدينة قرطاج وهو تخطيط مبني على تقسيم الموضع المراد بناؤه إلى وحدات متساوية انطلاقا من محورين رئيسيين متعامدين وتتشكل بنقطة تقاطعهما الساحة العامة أو الفوروم وتطلق على المحور الأول تسمية ديكومانوس ماكسيموس (*decumanus maximus*) (اتجاه شرق ـ غرب) وتحمل الشوارع التي تتبع بنفس الاتجاه اسم دوكوماني (*decumani minores*) (جمع ديكومانوس) وتكون أقل عرضا من المحور الرئيسي وتسند لها أرقام. وبطبق نفس التصور على الاتجاه المقابل إذ يحمل المحور الرئيسي الثاني (شمال جنوب) اسم كاردو ماكسيموس (*cardo maximus*) وتسمى الشوارع الموازية كاردينس وتسند لها بدورها أرقام (*cardines minores*).



قرطاج الرومانية

المصدر: Hurst (H), ROSKAMS (S.P), in, Cahiers des Etudes Anciennes XVIII, 1985, fig4, p.151.

– أنجزت البعثة الألمانية تحت إشراف هـ.ج. نيمايرمجموعة من الأسبار على مقربة من "ملكية بن عياد" وبالتحديد تحت مستوى الديكومانوس الرئيسي الروماني على مستوى الزاوية مع الكاردو X وتوصلت للكشف عن حيطان تعود إلى أواخر القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد ثم وخلال شهري مارس – أفريل 1987 أنجزت نفس البعثة 6 أسبار عاجلة قرب نهج سبتيموس سيويروس على أرض هي على ملك البنك المركزي التونسي وتسنّى لها ملاحظة تواصل الحضور السكني إنطلاقا من القرن الثامن على الأقل.

قبل الخوض في ما يمكن استقراؤه من نتائج بالاعتماد على مجمل الملاحظات السابقة حريٌّ بنا أن نبدي ملاحظتين على قدر كبير من الأهمية.

يلاحظ كلّ مهتمّ بهذا الملف اعتماد الباحثين شبه الكلّي على ما تقدّمه الحفريات من نتائج وإذا ما رغبنا في الخوض بأكثر دقة في هذه النقطة يجدر التذكير بأن ما سنعرض له من نتائج ينبني في الحقيقة على ما تم إنجازه من أسبار في نقاط مختلفة من هذا السهل الساحلي نظرا لاستحالة القيام بحفريات ممتدة من شأنها أن تقدم أجوبة جازمة حول عديد التساؤلات. ولا يفوت كلّ متتبع لتقارير الحفريات أن يلاحظ منذ الوهلة الأولى غياب أعلى هضبة بيرصا من قائمة المواضع التي قدّمت شواهد عن حضور سكني عتيق وهو ما يتنافى ظاهريا على الأقل مع ما تحملنا بعض المصادر الأدبية على القبول به حيث تجعل من بيرصا مركز الاستقرار الفينيقي الأوّل (نص يوستينوس بالخصوص بالرغم من طابعه الأسطوري) غير أنه يمكننا اليوم القول دون خشية مجانبة للصواب أنه من المستحيل اليوم أن يقدم هذا الفضاء أدلّة مماثلة لتلك التي قدّمتها بسبب ما أصابه من تغيير خلال الفترة الرومانية خاصة.

بالرغم من هذه النقائص فإنّنا نستطيع أن نسوق بعض الملاحظات الأساسية المتعلقة بما تعودت الأبحاث تسميته بالنواة العمرانية الأولى بقرطاج.

تشكل المقبرة العتيقة الممتدة على ما يرجح بين هضبة يونو وحمامات انطونيوس الحد الشمالي لهذه النواة وتمثل شواهد نهج سوفونيسب والتي ترقى إلى القرن السادس قبل الميلاد أقرب الشواهد إلى هذه المقبرة.

في الاتجاه المقابل أي نحو الجنوب يمثل الخط الذي يمرّ على مسافة 35 مترا شمال الديكومانوس الرابع الروماني الحدّ الجنوبي للنواة السكنية القرطاجية العتيقة كما أثبت ذلك السبران المنجزان تحتَ مستوى الكاردو الثالث الروماني حيث تمّ العثور علىٰ آثار أفران لصنع الخزف تعود إلى أواسط القرن السابع والقرن السادس قبل الميلاد (أنشطة "ملوثة" توجد عادة على أطراف النواتات السكنية).

قدمت مجموعة الأسبار المنجزة غرب نهج سبتيموس سيويروس بين الكارد وXV والكاردو XVI أدلّة لا تدع مجالا للشك عن حضور حرفي تعود بداياته إلى القرن الثامن (خبث معادن، أفران، مستويات حرق عميقة بالإضافة إلى مخازن للمرّيق المفتّت) وهو ما يجعلنا نقبل فرضيّة وجود حي حرفي وقع إنشاءه منذ البداية على مقربة من ساحل الفترة العتيقة على هامش النواة العمرانية الأولى.

لابدّ لنا في هذا الموضع من الدراسة أن نذكّر بأنّ أقدم اللقى الفخارية قد تمّ الكشف عنها في هذه النقطة بالذات وتتمثل بالأساس في مجموعة من الأكواب الأوبيّةِ تثبت وجود مبادلات تجارية بين قرطاج والمدن الايجية تعود إلى الربع الثالث من القرن الثامن وربما إلى الربع الثاني من نفس هذا القرن وتعتبر الباحثة. م. فيقاس (M.Vegas) أنه من الطبيعي أن تبلغ هذه المنتوجات أرض قرطاج نظرا لاتساع انتشارها في حوض البحر الأبيض المتوسط (صقلية، منطقة كمبانيا، روما، أترو ريا، ووالبة بإسبانيا) ولذلك تقرّ نفس الباحثة بأن لا شيء يدعونا للشك في أن تكون نفس السفن التي بلغت جزيرة صقلية قد ربطت أيضا علاقات تجارية مع قرطاج. ومن جهة أخرى وبالعودة إلى تقارير الحفريات يمكن لنا اليوم تتبع شواهد عن المدينة

العتيقة على مسافة لا تقل عن 400 متر تقريبا أي من الخط الساحلي العتيق إلى السفوح المتوسطة لهضبة بيرصا حيث أمكن للمختصين أن يلاحظوا أن التنظيم العمراني اعتمد تخطيطا على شكل مروحي يراعي خصوصيات هذه الناحية من موقع قرطاج وحسب ف.راكوب سيظل نفس هذا التصوّر المروحي أو الشعاعي معتمدا خلال الفترات اللاحقة. أما بالنسبة إلى السهل الساحلي فقد أبرزت الأسبار المنجزة على ملكية بن عيّاد وشرق هذه النقطة أنّ القرطاجيين اعتمدوا تخطيطا متعامدا وهو تصوّر اعتمده المهندسون الرومان فيما بعد كما سنبرز ذلك لاحقا.

كيف تطورت هذه النواة الأولى خلال الفترة الموالية؟

التمدين القرطاجي : القرن الخامس أواسط القرن الثالث قبل الميلاد

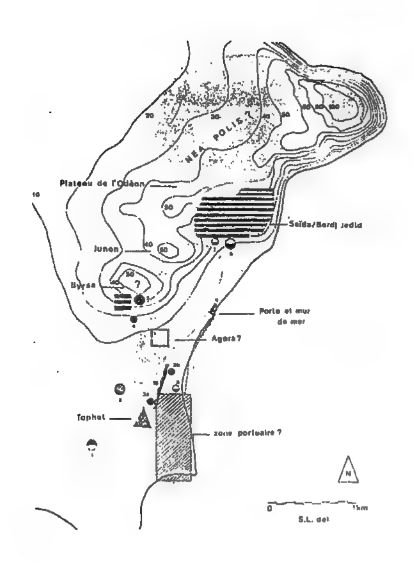
سمحت الأسبار المنجزة بين هضبة بيرصا والخط الساحلي بتتبع تطور التمدين القرطاجي في مراحله الكبرى على الأقلّ يضاف إلى ذلك ما يمكن استقراؤه من مجموعة المقاييس المساعدة على ضبط حدود امتداد المدينة خلال الفترة الموالية مقارنة بالفترة السابقة. لذلك يمكن الجزم أن التمدين بقرطاج عرف وبشهادة كلّ الدلائل الأثرية تطوّرا هاما خلال القرن الخامس ويعتبر امتداد النواة السكنية أبرز تجلّيات هذا التحوّل وقد أمكن رصد هذا الامتداد باعتماد سلسلة من المقاييس أهمّها:

– التعرّف على المواضع الجديدة للورشات الحرفية خلال هذه الفترة وخاصة منها تلك التي لا تتلاءم والأحياء السكنية. ومن هنا نشأت ضرورة إبعادها نحو الأطراف. ويعي القارئ أن مثل هذه النوعية من الاكتشافات الأثرية تساعد على ضبط حدود المدينة خلال الفترة التي تعنينا بالدرس.

نفس هذه الملاحظات يمكن أن تنطبق على المقابر المستعملة خلال نفس هذه الحقبة (مع ضرورة الحذر عند استعمال هذا المقياس نظرا لإمكانية استعمال نفس القبور على امتداد فترات مختلفة). هذا طبعا بالإضافة لما قدمته مجموعة

الأسبار المنجزة في مواضع شتى وسمحت بتأكيد نفس النتائج حول امتداد المدينة وحدودها الجديدة وهي أولى النقاط التي نتناولها بالدرس في عرضنا.

لم تعرف المدينة العتيقة على ما يبدو امتدادا كبيرا نحو الشمال ونحو الغرب باستثناء المنطقة المحاذية لهضبة يونو وذلك ربّما بسبب وجود عدد من الورشات التي تمّ تركيزها على أطراف المقبرة العتيقة وكانت على ما يبدو تعرقل امتداد المدينة في هذا الاتجاه ويستدلّ س.لنسال على ذلك بوجود أفران للخزافين على السفوح الأولى لهضبتي درمش والدويماس (= نحو الشمال) أما في اتجاه الغرب فقد كشفت الحفريات الفرنسية عن وجود مجموعة من ورشات التعدين على هضبة بيرصا تعود إلى الفترة الممتدة بين أواخر القرن الخامس وأواخر القرن الثالث قبل الميلاد ويتطابق ذلك تقريبا مع الفترة التي تهمنا في هذا الموضع من الدراسة. لذلك يجوز لنا القول أن التمدين القرطاجي لم يعرف امتداداً في هذا الاتجاه أيضا. نحو الجنوب تصبح الوضعية أكثر تعقيدا ولا بدّ من الاعتراف أنه من غير اليسير اليوم تقديم رؤية واضحة للمسألة وكلّ ما يمكن ملاحظته هو أن ف.راكوب يشير إلى توقّف الأنشطة الحرفية الواقعة جنوب النواة العتيقة (ضاحيتي صلامبو والكرم اليوم). وكنّا بيّنا في ما سبق أنها مثلت حدودا للمدينة العتيقة في هذا الاتجاه. ويعتبر الباحث الألماني ذلك دليلا على امتداد التمدين إلى ما وراء خط الديكومانوس الروماني الرابع بداية من النصف الثاني من القرن الخامس وأوائل القرن الرابع. لكن وبالرغم من هذا الامتداد يرجح أن المدينة لم تبلغ جنوبا معبد التوفات بدليل ما تمّ الكشف عنه من فضاءات حرفية في هذه الناحية من موضع قرطاج من قبل ف.شلبي وكذلك من قبل أعضاء البعثتين الأمريكية والبريطانية (بمحاذاة ما سيصبح في الفترة اللاحقة الميناء التجاري وداخل جزيرة الأميرال). ويتعلّق الأمر بورشات تعدين تظل مستعملة حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. **(انظر وثيقة قرطاج أواخر القرن الخامس بداية القرن الثالث ق.م.).**



قرطاج . أواخر القرن الخامس بداية القرن الثالث قبل الميلاد .

المصدر: LANCEL (S), CRAI, 1985; p.737.

– في الوسط وبمحاذاة الساحل نجد الأحياء السكنية تحدّها شمالا مقبرة السيدة/ البرج الجديد. أمّا في اتّجاه الجنوب فتحدّها المقبرة التي توجد على السفح الغربي لهضبة بيرصا.

– تمّ الرمز إلى الأنشطة الحرفية كالتالي:

ورشات تعدين

ورشات فخار

ورشات دعك

– نحو الشّمال موضع المدينة الجديدة التي أشار إليها ديودروس الصقلي عند تعرّضه لحملة أغاثوكلاس على إفريقيا XX، 44، 1 (على سبيل الافتراض).

يرى س.لنسال أن هذه الاكتشافات تدعّمُ ما وقع العثور عليه من آثار لورشات خزف منذ فترة طويلة من قبل ل.بوانسو (L.Poinssot) ور.لنتي (R.Lantier) لذلك يخلص للقول أن ضبط حدود دقيقة للمدينة جنوبا خلال هذه الفترة يظل أمرا غير هيّن. وتزداد القضية تعقيدا بالنسبة للجهة الجنوبية الشرقية وتحديدا ما يعرف بمنطقة المواني حيث تُجْمِعُ تقارير الحفريات على القول بأن طوبوغرافية هذه المنطقة قبل القرن الثالث قبل الميلاد تبقى مجهولة حتى الآن. فخلافا لما كان منتظرا أثبتت الحفريات الأمريكية والبريطانية أن إنشاء المواني القرطاجية الشهيرة لا يمكن أن يعود إلى تاريخ أقدم من النصف الأوّل من القرن الثالث (بالنسبة للشروع في تهيئة الميناء التجاري). أما أقدم ما عثر عليه فيتمثل في قنال يبلغ طوله حوالي 300 متر ويتراوح عرضه بين 15 و20 متر ويصل عمقه إلى حوالي مترين يخترق فضاء المواني في اتجاه شمالي – شمالي شرقي بموازاة الساحل الحالي تقريبا. ولم تتوصل الحفريات إلى تحديد فترة إنشائه بدقة والتي قد ترتبط بحركة الامتداد العمراني التي عرفتها قرطاج خلال القرن الخامس. وهي تعكس بالتالي رغبة الإدارة القرطاجية في استغلال هذه المنطقة التي تحتلّها المستنقعات بتجفيفها مستخدمة في ذلك القنال المذكور الذي قد يكون لعب دور قناة لصرف المياه. لكن هذا الاستعمال لا ينفي إمكانية استغلاله أيضا للملاحة. ولئن عجزت الحفريات عن تحديد تاريخ الإنشاء بدقة فإنّها تجمع على أن تاريخ ردم هذا القنال والتخلّي عنه يوافق أواسط القرن الرابع تقريبا.

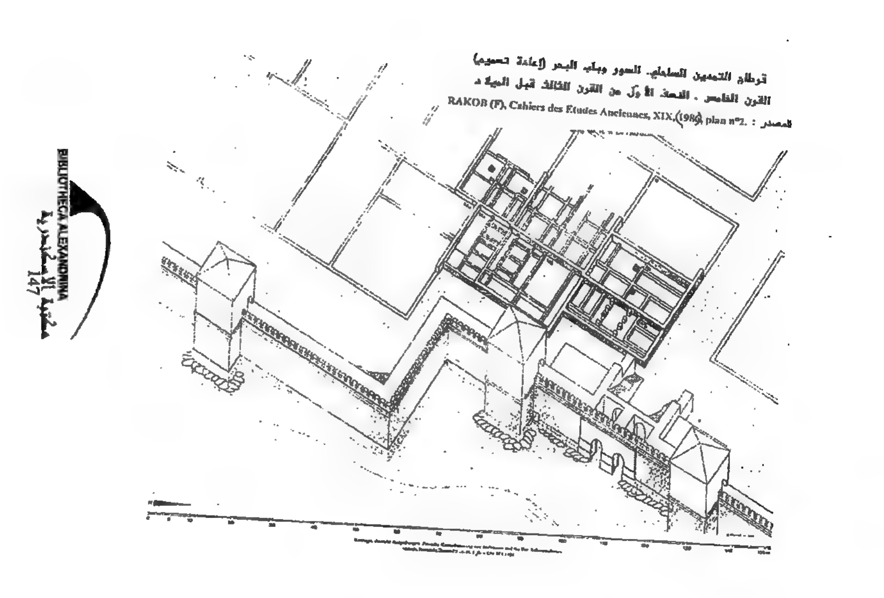
لئن وضعت الحفريات البريطانية والأمريكية حدّا لجدل طال كثيرا حول المواني القرطاجية بالنسبة للقرون الأخيرة من تاريخ هذه الحضارة فإن السؤال يظل مطروحا بالنسبة للفترة السابقة وهنا لابدّ لنا من الاعتراف بأننا نجهل كلّ شيء تقريبا حول مكان إرساء السفن التجارية والعسكرية البونية خلال القرون الأولى والوسطى من تاريخ قرطاج.

على النقيض من ذلك أمكن لأفراد البعثة الألمانية رصد امتداد النواة السكنية الأولى في اتجاه الساحل بفضل سلسلة الأسبار المنجزة. ولا تتردد تقارير الحفريات في الحديث عن تحولات عميقة شهدتها حركة التمدين القرطاجي على امتداد القرنين الخامس والرابع. ويبرز ذلك من خلال عملية الترفيع الملحوظة

على مستوى الأرض وهي عملية ارتبطت دون شك بإقامة وحدات سكنية جديدة أثبتت الحفريات تواضع أحجامها وتنوّع تخطيطاتها تنوعا كبيرا. لكن تبقى إقامة تحصينات دفاعية لحماية المدينة أبرز هذه التحولات التي شهدتها مدينة قرطاج ذلك أن البعثة الألمانية تمكّنت من التعرف على أسس سور بحري اتخذ شكل حائط مستقيم تتخلله مجموعة من الأبراج وتخترقه بوابة كبيرة ينتهي إليها شارع بلغ قدرا كبيرا من الأهمية (**انظر وثيقة قرطاج التمدين الساحلي – السور وباب البحر القرن الخامس النصف الأول من القرن الثالث ق.م**). ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد سعت الإدارة القرطاجية إلى حماية ما وقع إنجازه بواسطة قوالب ضخمة من الحجر الرملي لعبت دور كاسرات أمواج. وستشهد هذه المنطقة تحولات هامة خاصة وأن السور المشيّد ترك مساحة تقارب الستّين ذراعا (الذراع = 51.87 صم) تفصله عن الأحياء السكنية المقامة خلال هذه الفترة.

بقي لنا أن نشير إلى احتمال أن تكون النواة العتيقة قد امتدت بداية من القرن الخامس قبل الميلاد إلى ما وراء الربوات (ربوة يونو وهضبة الاوديون) بحكم تواجد المقابر التي شكلت حاجزا وقف أمام امتداد المدينة نحو الشمال والشمال الشرقي. لكن لا بد من التذكير أن عمدة الدراسات حول هذه النقطة يبقى كما أوضح ذلك س.لانسال نص الكاتب اليوناني ديودروس الصقلّي وهو يفتقر إلى الدقة المطلوبة أورده عند حديثه عن الظروف التي ألمّت بقرطاج إبان تدخل طاغية سرقوسة اغاتوكلاس (Agathocles) ومحاولة بوملقرت استغلال هذا الظرف للانفراد بالسلطة حيث يذكر تمكن هذا القائد من تجميع قواته في ما يطلق عليه تسمية "المدينة الجديدة" قبل التوجه للزحف على "المدينة القديمة" وبالرغم من اختلاف المحدثين حول تحديد موقع هذه المدينة الجديدة يميل س.لانسال إلى الاعتقاد متّبعا في ذلك س.قزال أن هذه التسمية تغطي أحياء ضحوية ذات سكن متفرّق توجد خارج حزام التمدين القديم معتمدا في تأويله هذا على سببين اثنين أولهما أن قراءة متمعّنة في النص المذكور توحي بأن عملية تجميع الأنصار المشار إليها سابقا تمّت في مكان يتميز ببعض الارتفاع مقارنة بالمنطقة الساحلية المنخفضة وثانيهما أن تحركا من هذا القبيل يتطلب بالضرورة فضاء رحبا نسبيا لا تتوفر عليه المدينة القديمة.

قرطاج التحصين الساحلي. السور وباب البحر (إعادة تصميم)
القرن الخامس . النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد
المصدر : RAKOB (F), Cahiers des Etudes Anciennes, XIX, (1986) plan n°2.



الإطار الحضري القرطاجي من القرن الثالث إلى سنة 146 ق.م.

أول ما يستوقف المتأمّل في تاريخ المدينة خلال القرنين الثالث والثاني هو إجماع كلّ المصادر بمختلف أصنافها (أدبية ونقائشية وأثرية) على القول بأن قرطاج شهدت خلال فترة الحروب البونية - الرومانية نموا كبيرا وهو ما يتنافى ظاهريا على الأقل مع ما يتوقّعه كلّ عارف بقسوة ما تكبّدته من خسائر سواء بسبب المعارك التي خاضتها أو نتيجة ما آلت إليه الحربان الأولى والثانية من معاهدات مجحفة فرضت على دولة قرطاج. وقبل البدء في استعراض أبرز مظاهر هذا النمو يتحتّم علينا التذكير بوفرة المصادر المعتمدة لدراسة تاريخ تمدين العاصمة البونية خلال هذه الفترة الأخيرة مقارنة بالفترتين السابقتين وهو ما يسرّ مهمّة علماء الآثار نسبيا ومكّن من مقارنة ما وقع العثور عليه من شواهد أثرية بالنصوص الأدبية في محاولة لمدّ المهتمين بتاريخ قرطاج بصورة أقرب ما تكون لواقع الفترة المدروسة.

لكن قبل الخوض في أبرز الأدلة الأثرية وما يمكن استقراؤه من نتائج تاريخية نرى أنه من الواجب علينا أن لا نغمط النص النقائشي الوحيد الذي يمكن استثماره عند الحديث عن حركة التمدين القرطاجي خلال هذه الفترة بالرغم من الإشكاليات التي لازال يطرحها حتى الآن ويتعلق الأمر بنص وقع الكشف عنه منذ سنة 1964 من قبل عمّار المحجوبي عند إنجاز هذا الباحث لسبر بمحاذاة شارع الجمهورية (في قرطاج) وتولّى فك رموزه ونشره لأول مرة بالاشتراك مع م.ح.فنطر ويعدّ النص سبعة أسطر تفتقد لسوء الحظ إلى الأحرف الأخيرة منها. وبحكم أهميتها، سرعان ما استأثرت "نقيشة التمدين" باهتمام الدّارسين وتضاربت التأويلات المقدمة خاصة في ما يتعلق بمعنى ما ورد في السطر الأوّل حيث يذكر النص إنجازا سعى القرطاجيون إلى تخليده ويمكن في اختصار شديد حصر الآراء المقترحة في

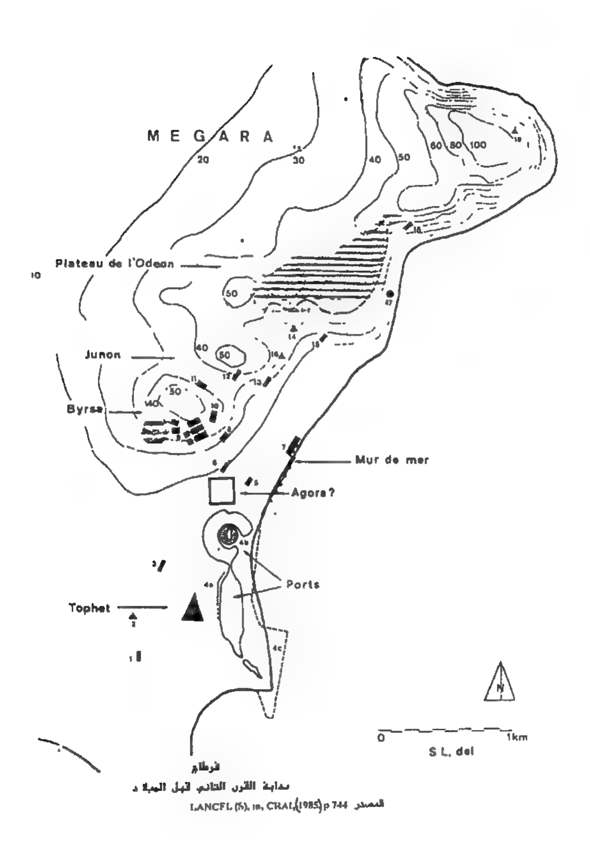
– فرضية أولى ترى أن الإنجاز يتعلق بحفر حوض.

– فرضية ثانية يرى متبنّوها أن الأمر يتعلق بفتح نهج.

– الفرضية الأخيرة يعتقد صاحبها أن المقصود هو فتح باب في الأسوار.

يجب التذكير في هذا الإطار أن النص المذكور قد اكتشف في غير موضعه الأصلي (طبقة ردم) لذلك يؤرخ عادة باعتماد مقياس الباليوغرافيا بالقرن الثالث قبل الميلاد. وبالرغم من هذا الاختلاف وأيّا كانت طبيعة الإنجاز الذي أراد القرطاجيون تخليده فإن كلّ الدارسين يتفقون على أهمية هذا العمل بدليل ثقل الغرامة المقررة والمضبوطة في آخر النصّ في حقّ كلّ من يلحق الضرر بهذه النقيشة التخليدية. وهو ما يقودنا مرة أخرى للقبول بفكرة وجود نهضة عمرانية في قرطاج خلال هذه الفترة وهو حكم تدعمه كما سنرى الآن الشواهد الأثرية وخاصة المكتشفة منها جنوب المدينة ولقد عنينا بالتأكيد منطقة الموانئ.

كنّا أسلفنا القول أن أقدم ما عثر عليه في هذه المنطقة يتمثل في قنال يبلغ طوله حوالي 300م ويتراوح عرضه بين 15 و20 م بينما يصل عمقه إلى حوالي مترين وهو يخترق فضاء الموانئ في اتجاه مواز للساحل الحالي تقريبا. وكنا أشرنا إلى أن تاريخ حفر هذا القنال يظل غير معروف فيما تجمع تقارير البعثتين البريطانية والأمريكية على القول بأن تاريخ ردمه يعود إلى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد تقريبا ثم وخلال النصف الأوّل من القرن الثالث تمّ الشروع في تهيئة الحوض المستطيل أو ما يعرف بالميناء التجاري كما تدلّ على ذلك بقايا الرصيف المكتشفة والتي تتبع اتجاها مستقيما شمال جنوب. ويفترض أن شكل الحوض تغيّر في المرحلة اللاحقة من حوض مستطيل إلى حوض مثمن الأضلاع. (انظر وثيقة قرطاج بداية القرن الثاني ق.م.)

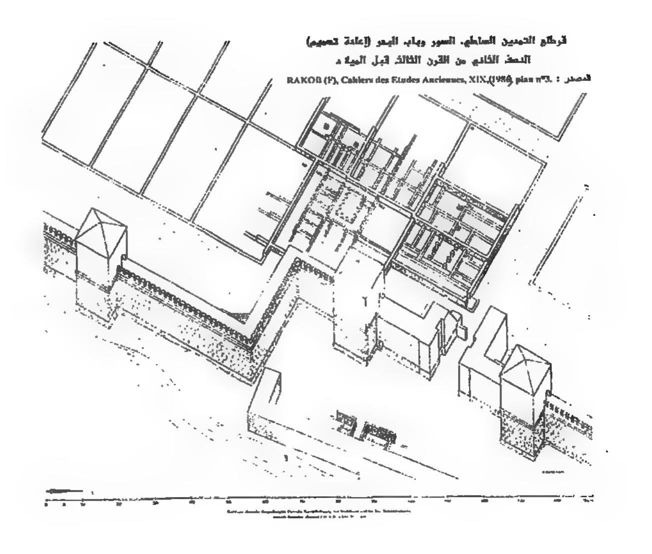


قرطاج
بداية القرن الثاني قبل الميلاد
المصدر LANCEL (S), in, CRAI, (1985) p 744

حوالي سنة 200 ق.م أو بعد ذلك بقليل أي في بداية القرن الثاني قبل الميلاد وقع تحوير رسم الرصيف المشار إليه بإضافة حائط نحو الشمال الغربي تبلغ درجة انحنائه 120 درجة. ويرجح أن يكون لهذا التحوير علاقة بما وقع إنجازه في نفس هذه الفترة ونعني بذلك حفر الميناء المستدير (الميناء العسكري) وإحداث ما يعرف بجزيرة الأميرال في وسطه إلى جانب تشييد الأرصفة الحجرية وهكذا تتخذ المواني القرطاجية شكلها النهائي الذي ستشتهر به خاصة من خلال الوصف الدقيق الوارد لدى الكاتب أبينوس عند تعرّضه لأحداث الحرب الثالثة بين روما وقرطاج وهو مأخوذ عن المؤرخ بوليبيوس.

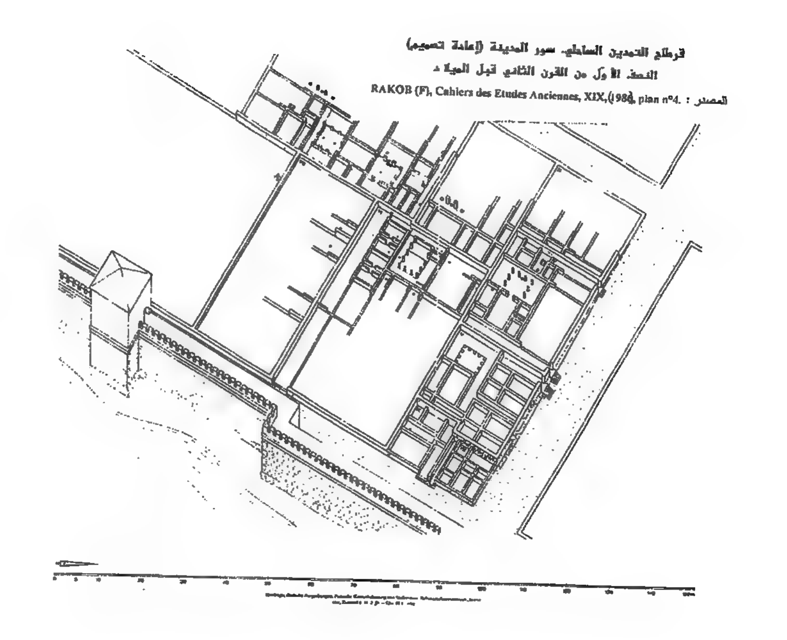
يمكن تبيّن ملامح هذه الانتعاشة الواضحة في موضع آخر من السهل الساحلي وبالتحديد شرق ما نطلق عليه اصطلاحا تسمية "حي ماغون". وكنا تعرضنا في ما سبق إلى هذه الناحية عند حديثنا عن إقامة القرطاجيين لسور بحري مع نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع. ويميز ف.راكوب بين مرحلتين أساسيتين في ما تبقى من حياة هذا الحي خلال الفترة البونية:

تؤرخ المرحلة الأولى بالنصف الثاني من القرن الثالث وتتميز بتحوير طفيف على مستوى الوحدات السكنية التي أقيمت على أنقاض المساكن السابقة. ويتجلى ذلك أساسا على مستوى الجهة الغربية من مكان إقامة الحفريات الألمانية. وقد اتبعت الوحدات الجديدة تخطيطا متعامدا تاركة مساحة شاغرة تقارب 60 ذراعا تفصلها عن السور المقام منذ بداية القرن الرابع. من جهة ثانية شملت التحويرات التحصينات الدفاعية وكنّا أشرنا في ما تقدّم إلى قوالب الحجر الرملي الضخمة التي لعبت دور كاسرات أمواج لحماية السور والأبراج وهي حماية سيقع تعزيزها بإقامة حائط مائل الاتجاه تمّ تعويضه خلال الفترة الموالية بحائط جديد بعد أن تقرّر التخلي عن البوّابة وهو ما يقودنا إلى الحديث عن المرحلة الثانية. (انظر وثيقة قرطاج التمدين الساحلي - السور وباب البحر النصف الثاني من القرن الثالث ق.م ووثيقة قرطاج التمدين الساحلي - سور المدينة النصف الأوّل من القرن الثاني ق.م).



قرطاج التمدين الساحلي، السور وباب البحر (إعادة تصميم)
النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد
المصدر : RAKOB (F), Cahiers des Etudes Anciennes, XIX,(1986) plan n°3.

قرطاج التمدين الساحلي، سور المدينة (إعادة تصميم)
النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد



المصدر : RAKOB (F), Cahiers des Etudes Anciennes, XIX, (1986), plan n°4.

- المرحلة الثانية تمتدّ من بداية القرن الثاني ق.م. إلى نهاية تـــاريخ المدينة: كنا أشرنا في ما سبق إلى التخلّي عن السور السابق وتعويضه بآخر حديث أكثر تقدّما نحو الساحل وهو ما سمح لحركـــة التمديـــن القرطـــاجي بربح مساحة أكبر لإقامة أحياء سكنية كبرى وتتميز الدور المقامة خلال هذه الفترة باتساع مساحتها وترفها الواضح.

في موضع ثالث من موقع قرطاج وبالتحديد على سفوح هضبـــة بيرصـــا أمكن للبعثة الفرنسية تقديم دليل إضافي على هذه النهضة العمرانية التـــي شـــهدتها المدينة على امتداد الخمسين سنة الأخيرة من حياتها وهـــي الفـــترة الممتـــدة مـــن 196 ق.م تاريخ تولّي حنّبعل لخطة سبط حتى 146 ق.م تاريخ تحطيم المدينة مـــن قبل الرومان. وقد أمكن للفريق الفرنسي أن يكشف عن حي سكني بولـــي يعـــود زمنيا إلى هذه الفترة المتأخرة من تاريخ المدينة وقد أثبتت الحفريات أن هذا الحـــي أقيم على أنقاض ورشات تعدين تعود إلى القرن الخامس قبل الميـــلاد. ويحتـــوي هذا الحي على مجموعة وحدات سكنية أطلق عليها الباحثون الفرنســـيون تســـمية رمزية "ABCDE" وتفصل بينها أنهج يتراوح معدّل عرضها بيـــن 6 و7 أمتـــار تتقاطع حسب زوايا قائمة. ويشير س.لنسال إلى أن هذه الأنهج لئن تمـــاثلت مـــن حيث قيس عرضها مع ما كان معهودا في كل المـــدن الكـــبرى خـــلال الفـــترة الهيلينستية، فإنها كانت تتفرد بكونها غير مبلّطة وهو ما كان يتطلب تدخـــلا بيـــن الفينة والأخرى خاصة بسبب ما كان يصيبها من تآكل عند نزول الأمطار وكـــان ذلك يتم بإلقاء طبقة من الرمل على السطح يضاف إلى ذلك غياب قنوات لصـــرف المياه المستعملة وهي ظاهرة سعى القرطاجيون إلى معالجتـــها باعتمـــاد الآبـــار المحفورة للتخلص من هذه المياه. وقد ربطت هذه الآبار بمجاري معدّة للصـــرف توجد في الممرّات داخل الوحدات السكنية بواسطة قنوات بســـيطة تمـــت تهيئتـــها بواسطة مجموعة من الجرار المتداخلة.

من جهة أخرى أثبتت الحفريات الفرنسية أن هذه الأنهج كانت لا تســـتعمل إلاّ من قبل المترجلين ولم يكن بإمكان العربات المجرورة ارتيادها بســـبب وجـــود

مجموعة من المدرجات وقعت تهيئتها خصيصا للتكيّف مع ظاهرة اختلاف الارتفاع من نقطة إلى أخرى إذ يبلغ معدل انحدار انهج حي حنبعل 15 درجة. ويمكن أن نستدل في هذا السياق بمدرجين A و B كشفت عنها الحفريات بين الوحدتين السكنيتين D و E. من الناحية الكرونولوجية مرت تهيئة حي حنبعل بأربع مراحل كبرى. (**انظر وثيقة حي حنبعل: السكن والورشات الحرفية والمتاجر**).

– تؤرخ المرحلة الأولى زمنيا ببداية القرن الثاني قبل الميلاد وقد شهدت إقامة الوحدات A و C و E التي تفصل بينها الأنهج I و III و V.

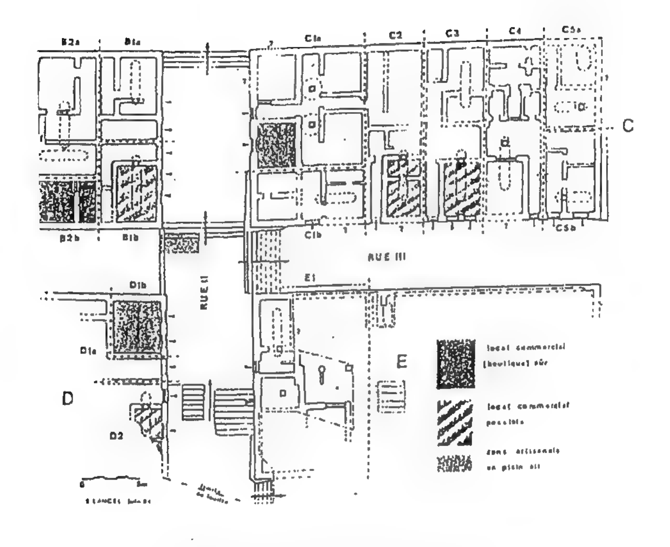
المرحلتان الثانية والثالثة: لم تشهد المرحلتان حسب س.لنسال إقامة مباني جديدة وتكمن الإضافة على مستوى تنظيم المسالك (الأنهج) وتهيئة المدرجات وخاصة المدرج A.

– المرحلة الرابعة والأخيرة عرفت إقامة الوحدتين السكنيتين B و D ممّا ترتّب عنه تهيئة أهم مسلك في هذا الحي وهو الذي يحمل رقم II وهو في اتجاه متعامد مع بقية الأنهج السابقة.

خضعت عديد الدور المشيدة في "حي حنبعل" إلى نفس التخطيط تقريبا وقد أورد الباحث س. لنسال وصفا دقيقا لإحداها نقدّمه كما أورده هذا الباحث في كتابه « La colline de Byrsa à l'époque punique » ويتعلّق بالمنزل C4 (المنزل عدد4 الوحدة C).

تبلغ أبعاد المنزل 15.65 مترا بالنسبة للطول و5.20 مترا بالنسبة للعرض ممّا يوفر مساحة تقارب 75 متر مربعا وهي مساحة متواضعة جدًا.

يوجد مدخل هذا المنزل على مستوى النهج رقم III وأوّل ما يعترض الداخل بهو يبلغ طوله 6 أمتار وعرضه 0.90 مترا يقوده إلى ساحة وقد تمّ الفصل بين هذا البهو والساحة المذكورة بواسطة باب.



حي حنبعل: السكن والورشات الحرفية والمتاجر

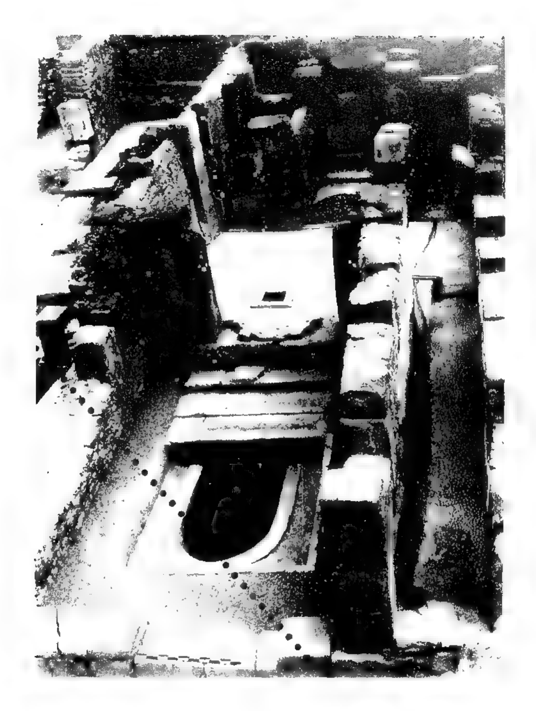
LANCEL (S), MOREL (J.P.). La colline de Byrsa: Les vestiges puniques, المصدر
in, pour sauver Carthage. ENNABLI (A), ed, Paris - Tunis 1995 p.52.

داخل البهو وبمحاذاة الحائط وقعت تهيئة مجرى صغير لتصريف المياه المستعملة نحو بئر صغيرة موجودة على مستوى النهج.

على مستوى الساحة نلاحظ وجود بئر ترتبط بصهريج للمياه. وفي الناحية المواجهة للمدخل نجد مجموعة من الغرف الصغيرة (كانت إحداها دورة مياه) تفصل بينها حيطان مبنية بالطوب وتتميز إحدى غرف هذا البيت باتساعها النسبي مقارنة بالمساحة الجملية (4.5 متر و3.30متر) وهو ما دفع س. لنسال للاعتقاد بأنها الغرفة المخصصة للاستقبال. وممّا يلفت الانتباه تواصل امتداد الصهريج الذي كنّا تعرضنا له في بداية هذا الوصف تحت مستوى هذه الغرفة وبالتالي فإنّ جزءا من الصهريج المذكور يمتد على مستوى ساحة المنزل فيما يمتد الجزء المتبقي تحت أرضية غرفة الاستقبال. (أنظر لوحة رقم1)

أشار س.لنسال إلى أنّ هذا التخطيط الذي تلعب فيه الساحة دورا محوريا يتكرّر على مستوى الدارين 2 و3 الموجودتين داخل نفس الوحدة C. لكن هذا لا يمنع وجود تخطيطات مغايرة أخرى تماما كتلك التي يمكن ملاحظتها على مستوى القطعة C1 والتي قسمت إلى جزئين C1b أقيم عليه منزل صغير يحوي صهريجا ممتدا وأربع غرف شيدت على جانبي ممر يطل على النهج III وC1a وهو جزء أكبر يمكن الولوج إليه انطلاقا من النهج II بواسطة بهو توجد على جانبيه غرفتان تطلان بدورهما على نفس النهج ولكن دون علاقة مع بقية المنزل وهو ما جعل نفس الباحث يعتقد أنّ الأمر يتعلّق بدكانين.

باعتماد الوصف الوارد لدى أبيانوس عند تعرّضه لوقائع الحرب البونية - الرومانية الثالثة وبالتحديد عند حديثه عن آخر معاقل صمود البونيين نرجّح أن الدور القرطاجية المشيّدة في هذه الجهة بالذات كانت قد شهدت امتدادا عموديا وبالتالي نميل إلى الاعتقاد أنّها كانت تعدّ مجموعة طوابق استخدمها سكان قرطاج للصمود أمام تقدّم الجيش الروماني في محاولة يائسة للدفاع عما تبقى من مدينتهم وهو ما نجد نظيرا له بموتيي في صقلية من خلال الوصف الوارد لدى ديودروس الصقلي عند استعراضه للمواجهات العنيفة التي حفّت باستيلاء ديونيزوس الأكبر على المدينة سنة 397 /396 ق.م.



المنزل 4، الوحدة C

المصدر: LANCEL S., MOREL J.P., La colline de Byrsa. Les vestiges puniques, in, Pour sauver Carthage. Exploration et conservation de la cite punique, romaine et byzantine. ENNABLI A., ed, UNESCO/INAA, 1992, p.51.

اللّوحة 1

أثبتت الحفريات المقامة على أرض العاصمة البونية على امتداد الفترة الأخيرة أن تحطيم المدينة من قبل الرومان سنة 146 قبل الميلاد لم يضع حدًا نهائيا لتصورات المدنين التي وضعها القرطاجيون ذلك أن قرطاج الأغسطية استمدت تخطيطها المتعامد في خطوطه الكبرى من التخطيط الذي أقرّه أسلاف الرومان وهي ظاهرة أجمعت على القبول بها كل الأبحاث الأخيرة على الأقل بالنسبة إلى السهل الساحلي فيما ظلت القضية موضوع اختلاف بين الباحثين س.لنسال وف.راكوب بالنسبة للتخطيط الشعاعي المعتمد على الهضاب المجاورة وخاصة هضبة بيرصا. ومهما يكن من أمر هذا الجدل القائم في شأن هذه النقطة فإن ذلك لا ينقص في شيء من أهمية النتائج التي توصل إليها البحث الأثري والتي يمكن اختزالها في خاتمة هذا الفصل في جملة من الملاحظات نقدمها كما وردت على لسان الباحث الألماني نيماير.

- ما كشف عنه حتى الآن من آثار مدينة قرطاج العتيقة يدفعنا إلى القبول بوجود هيكلة حضرية كثيفة عند تأسيس المدينة.

- أقيمت النواة العتيقة للمدينة على السهل الساحلي الواقع اسفل السفح الجنوبي الشرقي لهضبة بيرصا.

- بالتمعّن في امتداد الموقع وقدرته على التوسع منذ البداية وعلى امتداد الحقب الموالية تتراءى لنا عملية تأسيس قرطاج بمظهر يختلف تماما عن تأسيس مجرد محطة تجارية على طول الخط التجاري الرابط بين حوضي المتوسّط إذ خضع إحداثها خلافا لبقيّة المستوطنات الفينيقية إلى مقاييس إحداث المدن يضاف إلى ذلك أن قرطاج هي المستوطنة الفينيقية الوحيدة التي حفّت بإنشائها ظروف استثنائية (أشرفت على تأسيسها أميرة فينيقية ثم وجود أسطورة بلغت مسامعنا عن طريق المصادر الكلاسيكية).

مصادر الفصل الرابع ومراجعه

لا نعتزم مدّ القارئ بكل ما كتب حول الإطار الحضري لمدينة قرطاج ولكننا سنكتفي بمدّه بسلسلة من العناوين يمكن له اعتمادها لمزيد الاطلاع والحصول على إحالات أخرى أكثر إسهابا. وقد ركزنا إحالاتنا البيبلوغرافية على العناوين الحديثة وخاصة تلك التي صدرت بعد انطلاق الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج على وجه الخصوص.

يمكن للقارئ أن يجد جردا مفصلا بكل العناوين الصادرة في آخر صفحات نشرية مركز الدراسات والوثائق الأثرية للمحافظة على آثار قرطاج (*CEDAC*) الأعداد 1(1978) و2(1979) و3(1980) وخاصة 4(1981) بداية من الصفحة 56 وهو جرد مفصّل أعده W.A.Graham غطى كل العناوين الصادرة في ما بين سنتي 1975 و1981.

خصّصت نفس النشريّة على امتداد الأعداد 1 و2 و3 و4 و5 و6 و7 و8 و10 و12 و13 صفحات لتقديم تقارير موجزة عن الحفريات التي أنجزتها مختلف البعثات.

– يمكن أيضا العودة إلى مجلة *Cahiers des Etudes Anciennes* (*CEA*) وهي من نشر L'université du Québec à *Trois -Rivières*

وللحصول على تقييم عام لأعمال مختلف البعثات بالإمكان التعويل على مقالات محافظ موقع قرطاج ع. النابلي ونذكر من بينها

- « La campagne internationale de fouilles archéologiques à Carthage (1973-1979) », in, *Karthago, XIX, 1977-1978*, (1980), pp. 107-119.
- « La campagne internationale de sauvegarde de Carthage (1973-1984): Resultats et enseignements », in, *CEA*, *XVI*, (1984), pp. 21-35

- « La campagne internationale de sauvegarde de Carthage. Fouilles et recherches archéologiques 1973-1987: premiers bilans », in, *CRAI*, (1987), pp. 407-438.

كما صدر تحت إشراف نفس الباحث مؤلف جماعي يحمل عنوان

Pour sauver Carthage Exploration et conservation de la cité punique, romaine et Byzantine. Directeur de la publication A. Ennabli. UNESCO. (INAA 1992)

– ويتضمن مجموعات مقـــالات بـــأقلام ق.راكـــوب وهــــــ– ج – نيمايروس – لنسال و ج – ب نويلي وف – شلبي ول – ســـتيجر وهـــــ – هورست.

نضع الآن على ذمة القارئ أبرز العناوين مبوّبـــة حســب جنســيات مختلف البعثات المشاركة في حفريات اليونسكو.

البعثة الألمانية: إضافة إلى ما صدر فـــي نشـــرية *CEDAC* يمكـــن الاعتماد على التقارير الصادرة في *MDAI*.

كما يمكن الاستعانة أيضا بمقالات ف.راكوب

- « Carthage punique: Fouilles et prospections archéologiques de la Mission allemande », in, *REPPAL, I* (1985), pp. 7-69
- « Les fouiles allemandes de Carthage », in, *Cahiers des Etudes Anciennes, XIX*, (1986), pp. 6-67.
- « La Carthage archaïque», in, *Actes de la 113èm congrés international des sociétés savantes*, Strasbourg (1988), IVèm colloque sur l'Histoire et l'Acheologie de l'Afrique du Nord Tome I, Paris (1990), pp. 31-43.

خصّصت مجلّة *CEDAC* العدد 16–17 (جوان 1997) لترجمة سلسلة من مقالات ف.راكوب من الألمانية إلى الفرنسية.

- « Fouilles allemandes à Carthage ». pp. 7-15.

- « Topographie urbaine de la Carthage punique. Recherche stratigraphique sur la rue punique de la porte de la mer ». pp. 15-25.

- « Carthage. La ville archaïque. Nouvelle recherches », pp. 25-53.

- « Un temple punique à Carthage et l'édifice qui lui succède à l'époque romaine », pp. 53-82.

- « Recherche dans le centre de la ville de Carthage. Second rapport préliminéaire », pp. 83-110.

البعثة الفرنسية

نشرت هذه البعثة أعمالها تحت إشراف س.لنسال ضمن مؤلف فـــي جزئين يحمل عنوان:

- *Byrsa I, Rapports preliminaires des fouilles (1974-1976)* Rome, 1979.

Byrsa II. Rapports préliminaires sur les fouilles (1977-1978): niveaux et vestiges puniques, Rome, 1982.

بالإضافة إلى هذا المرجع الأساسي من المفيد جـــدًا الرّجـــوع إلـــى العناوين التالية لنفس الباحث.

- « Nouvelles fouilles de la mission archéologique », in, *CRAI,* (1976), pp. 60-78.

- « Fouilles de Carthage 1976-77. La colline de Byrsa et l'occupation punique », in, *CRAI,* (1978), pp. 300-331.

- « Fouille française à Carthage et l'occupation punique (VIIème siècle - 146 av. J.C). Bilan de Sept années de fouilles », in, *CRAI,* (1981), pp. 156-193.

- *La colline de Byrsa à l'époque punique: introduction à la connaissance de Carthage*, Paris, 1983.

- « La renaissance de la Carthage punique. Reflexions sur quelques enseignements de la campagne internationale patronée par l'UNESCO », in *CRAI,* nov-déc, (1985), pp. 727-751.

- « Problèmes d'urbanisme de la Carthage punique à la lumière des fouilles anciennes et récentes », in, *Actes du IVèm colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord réuni dans le cadre de la 113ème congrés national des sociétés savantes Strasbourg* (1988), Paris (1990), pp. 9-35.

البعثة البريطانية

من أهم ما يمكن الاعتماد عليه يمكن أن نشدد على أعمال هـ - هورست التالية:

- HURST (H), *Excavations at Carthage 1974. First interim report. The Antiquaries Journal*, Vol. LV, 1975, p. 11-40.
- *Excavations at Carthage 1975 - second interim report. The Antiquaries Journal*, vol LVI, (1977), pp. 177-197
- *Excavations at Carthage 1976, Third interm report. The Antiquaries Journal*, Vol LVII, (1977), pp. 232-261.
- *Excavations at Carthage 1977-78- Fourth interim report. The Antiquaries Journal*, Vol LIX , (1980), pp. 19-49.
- HURST (H), STAGER (L.E), « a metropolitan Landscape: tho late Punic port at Carthage », in, *World Archacology 9* (1978), pp 334-346.
- HURST (H), « The war harbour of Carthage », in, *Atti del I congresso di studi fenici e punici*, Rome, 1983, pp. 603-610.

مجموعة البحث التونسية يمكن العودة إلى

ANNABI (M.K), BEN ABDELLAH (Z), CHELBI (F), « Quartier punique au Kram », in, *CEDAC, 3,* (1980), p. 17-18.

CHELBI (F), « Découvertes d'un habitat punique sur le flanc Sud-Est de la colline de Byrsa », in, *CEDAC, 3,* (1980), pp. 29-39.

- « Quelques aspects de la civilisation carthaginnoise à l'époque hellenistique », in, *CEA, XVI,* (1984), pp 78-87

بالنسبة للنص النقائشي ننصح بالعودة إلى

- MAHJOUBI (A), FANTAR (M H), «une nouvelle inscription carthaginoise », in, *Rendiconte dell' Accademia Nazionale dei Lincei*, ser VIII, 21, Fasc. 7-12 Juillet - decembre (1966), pp. 201-210.
- DUPONT-SOMMER (A), « une nouvelle inscription de Carthage », in, *CRAI*, janvier -mars (1968), pp 116-133
- GARBINI (G) « note di epigrafia punica III, su una nuova inscrizione cartaginese », in, *Rivista degli Studi Orientali*, 43, (1968), p. 11 et suiv.
- SZNYCER (M), « sur une nouvelle inscription punique de Carthage », in, *Comptes Rendus du Groupe Linguistique d'Etudes Chamito - Sémitiques*, 12, (1967-68), pp. 5-6.

الفصل الخامس

المؤسسات السياسية القرطاجية

احتلت المؤسسات السّياسية القرطاجية حيّزا من اهتمامات المؤلفين القدامى. وتسمح الآراء والمعطيات التي أوردوها بتشخيص هياكل النّظام السّياسي في قرطاج وطبيعته على الأقلّ خلال مراحل محدّدة من تاريخها. وتتسم المعطيات المصدريّة بالتفاوت من حيث الكمّ والدقة. ويكاد أن يكون القاسم المشترك بينها اعتماد اصطلاحات إغريقيّة أو رومانيّة للدلالة على مؤسسات قرطاج مما يتطلّب حذرا منهجيّا في تحليل طبيعة مختلف المؤسسات ووظائفها. كما تقتصر مادة المصادر غالبا على ابراز واقع مؤسّسات قرطاج خلال مراحل محدّدة قامت بدراستها بصفة موازية للتاريخ السياسي – العسكري وهو ما يقتضي تفادي تعميم الاستنتاجات ومراعاة تاريخيتها.

ويمكن تبويب المصادر وفق منطلقات مختلفة، فإذا اعتبرنا شمولية معطياتها فإن كتاب السّياسة لأرسطو يتضمّن تعدادا لأغلب المؤسسات رغم أنه لم يدرس دستور قرطاج ومؤسساتها لذاتها بل في سياق المقارنة بينها وبين مؤسسات اسبرطة وكريت. والملاحظ أنّ غرض أرسطوَ كان متّصلا بالفلسفة السّياسية والقانون الدستوري أكثر منه بتاريخ النّظام السياسي القرطاجي.

أمّا بوليبيوس فقد تعرّض في كتابه "التاريخ" لتطور مؤسسات قرطاج من منطلق البحث في الأسباب المؤسسّاتية والدستورية لتفوق روما وهيمنتها على البحر المتوسط وانحدار خصومها بما في ذلك قرطاج. وقد دفعه ذلك إلى البحث في التطور التاريخي لدستور قرطاج ومؤسساتها.

أمّا لدى بقيّة المؤلفين، وأبرزهم يوستينوس وتيتيوس ليفيوس وديودوروس الصقلّي وتليوس نيبوس فإنّنا نلاحظ تلازم ذكر المؤسسات والتاريخ

العسكري – السياسي لقرطاج ومع ذلك فهي مصادر أساسيّة في إبراز إطار نشأة المؤسسات أو في انتباهها للتسميات البونية لبعض الوظائف السّياسية.

ونجد صنفا ثالثا من المعطيات تتخذ صيغة إشارات وجيزة أو تقدّم تقييما لدستور قرطاج ولنظامها وقد أتت على لسان مؤلفيها أو في شكل إحالات على مصادر اندثرت، ويكتسي البعض منها تدقيقا ذا قيمة مؤكّدة في ما يتعلّق بتشخيص آليّة بعض المؤسسات وطبيعة الوظائف السّياسيّة.

وتبقى مسألة المصادر المباشرة مرّة أخرى قائمة الذّات. وإذا استثنينا الإشارات المحدودة التي يمكن توظيفها انطلاقا من نصّي "رحلة حنّون" ومعاهدة حنبعل مع فليب المقدوني اللّذين بقيا في صيغة إغريقية فإنّ مجمل مصادرنا الأدبية غير مباشرة. وهذا يدعّم أهميّة المعلومات المستقاة من النقائش القليلة التي تذكر خططا سياسيّة أو مؤسسات بونيّة ومهما كان هامش الخطإ في تأريخها فهي المصدر المباشر الوحيد في مقاربة المصادر الأدبية وهو ما يدعو إلى اعتماد النقائش البونية الحديثة واللاتينية التي تنصّ على وظائف إدارية محلية ذات تقليد بوني تواصل وجودها خلال المرحلة الرومانية.

أمّا المقاربات الممكنة بين مؤسسات قرطاج والمؤسسات المميّزة للحضارات السّامية وخاصّة المدن – الدول الفينيقية فإنّها تطرح للبحث في عناصر التّواصل والتفرّد بين الحضارة البونية وأصولها الشرقيّة.

فكيف يبدو التقييم العام للدستور القرطاجي؟ وماهي امكانيات وحدود تبيّن واقع المؤسسات القرطاجيّة اعتمادا على الوثائق المذكورة؟.

يقارن الخطيب الإغريقي إيزوقرتاس (Isocrate) المعاصر لأفلاطون ولأرسطو القرطاجيين بالإغريق من وجهة تميّز أنظمتهم السياسية.

ويصدر أرسطو حكما إيجابيّا مماثلا لكن في إطار دراسة شاملة: "يُعرف القرطاجيون بأنّهم محكومون بصفة جيّدة ودستورهم – في جوانب عديدة منه – أفضل مما لدى غيرهم..."

يحيلنا سترابو (الجغرافيا I، 4، 9) إلى رأي مماثل لإراتوستينيس (Eratosthène) أحد أبرز علماء مدرسة الاسكندرية والمشرف على مكتبتها خلال القرن الثالث ق.م فينسب إليه رفض التقسيم السائد بين الإغريق و"البرابرة" ويحتكم لمبدأ الفضيلة ونزعة الشرّ التي تنطبق على الإغريق أنفسهم ويبرّر رأيه بذكر "البرابرة" الذين لهم حضارة متقدّمة مثل الهند والشعوب الإيرانية ثم أيضا "الرومان والقرطاجيين الذين يعرفون بمؤسساتهم السياسية ذات التنظيم المحكم".

وفي سياق الإحالات العامّة لمصادر مفقودة تجدر الإشارة إلى كتاب هيباقوراس (Hippagoras) الإغريقي الذي خصّصه "لدستور قرطاج" لكن المؤلّف والأثر ذكرا في مصدر وحيد ودون تفاصيل وهو "مأدبة السّفسطائيين" (Deipnosophistes) للخطيب والنّحوي الإغريقي أثينيوس أصيل نوكراتيس بمصر السفلى (Athénée de Naucratis) الذي كتب في بداية القرن الثالث.م وتولّى في الكتاب المذكور تجميع مقتطفات لمؤلّفين ولكتابات صالحة لأدب المجالس ويتداولها العلماء في مآدبهم.

ويمتد نفس التّقييم خلال القرن الثاني ق.م لدى بوليبيوس : "تعرف بعض الدّساتير بإحكامها ونجد صدى ذلك لدى أغلب المؤرّخين: دستور اللاّسيديمونيين والمانتيين والقرطاجيين" كما يعتبر أنّ "المؤسسات السّياسية لدولة قرطاج – بناء على خصائصها الرئيسية –، تستجيب لتصورّ جيّد".

فهذه النظرة الإيجابية لمؤسسات قرطاج ودستورها نجدها إذا تتوزع على الفترة الممتدّة من القرن الرّابع إلى القرن الثاني ق.م. ومهما كانت نسبيّة الأحكام التي قدمها هؤلاء المؤلّفون الإغريق فإنّ قرطاج لا تصنّف من منظور الإغريقي ضمن "البرابرة" المختلفين عنهم أو ممن هم دونهم تنظيما فقرطاج مدينة – دولة أقرب الى المدن الدّول الإغريقية أو هي على الأقل ذات دستور ومؤسسات جيّدة.

على أن دراسة المؤسسات في حدّ ذاتها تستوجب تجاوز هذه الأحكام العامّة والبحث في التّفاصيل التطبيقية لمنطلقات الدّستور ومبادئه. فما هي هياكل النّظام السياسي القرطاجي وطرق عملها؟

يحتّم علينا صمت المصادر بالنسبة للمرحلة الفاصلة بين تأسيس قرطاج وأواسط القرن السّادس ق.م. اعتبار هذه المرحلة خارجة تقريبا عن إطار البحث إذا استثنينا المعلومات المحدودة لرواية التأسيس او محاولة تبيّن وضع قرطاج السّياسي من خلال علاقاتها بصور.

أمّا سحب معطيات المراحل اللاّحقة على الفترة المشار إليها بناء على "التصورّ الثابت" لمؤسسات قرطاج منذ نشأتها واستمرارية بعض الوظائف فيصعب دعمه اعتمادا على المصادر تماما مثل النظرة التطوّريّة التي ترى في قرطاج نموذجا مماثلا للمدن – الدّول الإغريقية، انتقلت من ملكيّة الحق الإلهي الى الديمقراطية وتوازن السلط. وقد استند الرّأي المذكور إلى تطوّر السلطة التنفيذية من الملكيّة إلى الحكم الثنائي للمسبطين* المنتخبين وتطوّر السلطة التشريعية إلى توازن بين تمثيلية الأرستقراطية في مجلس الشيوخ والعامة في

* – فضلنا استعمال مصطلح سبط وأسباط عوضا عن تطويع الأصل الفنيقي– البوني شفط وشفطيم، الذي نقل في اللّغة اللاّتينية بمفرد سوفاس (*suf(f)es*) وجمع سوفتاس (*suf(f)tes*) ومرجعنا في ذلك التسمية العربيّة لهذه الوظيفة المميزة للمجتمعات السّامية القديمة، فإلى جانب فنيقيا كان الأسباط يمثلون السلطة المدنية العليا لقدرالية القبائل اليهودية قبل عهد الملكيّة. وقد تم ذكرهم في القرآن بمعاني مختلفة منها: (وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، – البقرة 136)؛ (وقطعناهم إثنتي عشر أسباطا أمما. – الأعراف 160). واعتبر المفسّرون الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب كما رأوا فيهم أحيانا أحفاد يعقوب عامّة.
واستعمل العرب السبط والسّبطين والأسباط بمفهوم خاصة الأولاد ويغلب في ذلك ولد البنت مقابل الحفيد لذلك أطلق نعت سبطا رسول الله على الحسن والحسين في الحديث والسّيرة. (انظر لفظ سبط في القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي وفي لسان العرب لابن منظور. انظر أيضا محمّد اسماعيل ابراهيم. معجم الألفاظ والأعلام القرآنية – القاهرة 1969.)

مجلس الشعب. ثمّ نشأت محكمة المائة والأربعة التي أفرزهـا مجلـس الشـيوخ واعتبرت دعما لصلاحيات الأرستقراطية تجاه القادة العسكريين.

تمثل مجمل هذه المؤسسات أهم ما عرف به النظام القرطاجي إضافة الـى التنظيم الدّاخلي لبعض المجالس التي أفرزت مجالس مضيقة ولجانا ذكـرت فـي المصادر.

ولئن كانت تاريخية هذه المؤسسات مثبتة أحيانا عـبر المصـادر الأدبيـة والنقائش فإن الاستثناء الوحيد يهمّ الملكية خاصة اذا حاولنا سحبها على المرحلـة العتيقة من تاريخ قرطاج، وقد درست الملكيّة فـي سـياق جـدل حـول تـأويل المصطلحات الإغريقية – اللاتينية مقابل الغياب الكلّي لمصادر مباشرة ؛ فالنقـائش ذكرت مؤسّسة الأسباط التي تقوم مقام السلطة التنفيذية دون أن تتعرّض للملكيـة. ورغم ذلك فقد أرست الدراسات المعاصرة جدلا حول وجود أو انعدام الملكية فـي قرطاج. وتبقى الفرضيات المميزة لهذا الجدل مفيدة في الوقوف علـى اختـلاف المصادر والمنطلقات في مقاربة طبيعة السلطة التنفيذية في قرطاج.

1 – إشكالية الملكية في قرطاج

يقوم الافتراض القائل بأن قرطاج شهدت سلطة ملكيّة على تاريخيـة هذا النّظام السّياسي في الحضارات السّامية وتحديدا فـي المـدن – الـدّول الفينيقية – كصور وصيدا وجبيل وامكانية امتداده إلى الغرب الفينيقي إضافة إلى تشخيص المصادر الإغريقية – اللاّتينية لمن يشغلون القيادة السياسية في قرطاج باعتبارهم ملوكا، فالمؤلّفون الإغريق أشاروا إلـى سـلطة الملـك "بازيلوس" (*basileus*) والملوك "بازيلاييس" (*basileis*) في قرطاج تمامـا مثل المؤلفين اللاّتنيين الذين ذكروا (*rex*) و(*reges*).

كما اعتمد هذا الافتراض على انحصار القيادة العسـكرية داخـل عائلـة الماجونيين من منتصف القرن السّادس ق.م إلى بداية القرن الرابع ق.م. واعتـبر ذلك من قبيل الجمع بين السلطتين العسكرية والسياسيّة في إطار ملكيّة وراثية.

إن امتداد الملكية الفنيقية إلى قرطاج لا تستند إلـــى قرائـــن مقنعـــة فليـــس لرواية علّيسة أو ما ورد في شأن القائد ملكوس في أواسط القرن الخـــامس ق.م. قيمة تاريخية مُجمع حولها. فعلاقة قرطاج بصور إلى حدود القرن الخـــامس ق.م على الأقلّ قائمة على «مؤسسة العشر». وقد تفيد هذه العلاقة أن قرطـــاج كـــانت مستوطنة تجارية عند تأسيسها ولم تكن مملكة. وتمثّل المستوطنات الفنيقيـــة فـــي قبرص استثناء حيث ذكرت النقائش ملوك كيتيون (Kition). وورد فـــي روايـــة فلافيوس جوزاف (التاريخ اليهودي IX، 284) أنّ لولي (Luli) ملك صيدا قـــام بحملة لإعادة بسط نفوذه على هذه المدينة دون أن يبرّر طبيعة السلطة المتمـــرّدة بها. أمّا نقائش قرطاج قبرص فبينت أن إدارتها موكولة لـــممثل لسلطة حـــيرامII ملك صور ذكر بوظيفة (س ك ن) ورأى البعض في ذلك مرادفا لـ"ملـــك تـــابع" ونصّت نقائش سرجون II (Sargon II) (721–705 ق.م) بصفة صريحة علـــى المدن الدول الملكية بقبرص والملاحظ أن م.سنيسار يشدد على اســـتحالة امتـــداد هذه الظاهرة إلى الغرب الفنيقي.

وقد ساد استعمال المصطلحات الإغريقية – اللاتينية الدالة علـــى الملكيّـــة لعدم معرفة التسمية البونيّة للوظيفة التنفيذية العليا. إن الانتباه إلى ســـياق اســـتعمال هذه المصطلحات والبحث في أقربها إلى واقع المؤسسات البونيّة يبدّد شـــيئا مـــن غموضها. فأرسطو يستعمل صيغة الملوك (*basileis*) من خلال مقارنتـــه بيـــن الملكية الاسبرطية والملكية القرطاجية والمقارنة مبنية عنده على عنصـــر تمـــاثل عدديّ وهو ثنائية السلطة الملكية فالنظام الاسبرطي قائم علـــى تمثيليـــة الآجيـــاد (*Agiades*) والأوريبونتيد (*Eurypontides*)، القبيلتين الرئيسيتين ومن المرجّـــح أنّ أرسطو كان على بيّنة من ثنائية السلطة التنفيذية بقرطـــاج أي ســـلطة الســـبطين ومصطلح (*basileis*) في اسبرطا كما في قرطاج يعني لديه المثنّـــى لا الجمـــع، سيما وأنّ أرسطو أشار إلى الطابع الوراثي للملكيّة الإسبرطية التي تمارس مـــدى الحياة واختلافها مع الملكية القرطاجية الانتخابية والمحدودة في الزّمـــن. وهكـــذا

يتضح أن سياق تناول أرسطو المسألة كفيل بإبراز المحتوى الضمني لمؤسسة السبطين رغم استعماله مصطلح الملوك والملكية.

أمّا المصادر اللاّتينيّة فقد استعملت بصفة واسعة الإصطلاح اللاّتيني الدال على الملكيّة في صيغة المفرد والجمع: (*reges-rex*) وعلى غرار نصّ أرسطو الذي يسمح باستجلاء مدلول ضمني وعدم التّوقف عند المدلول الحرفي لـ(*basileis*) فإنّ ترجمة حنبعل في مؤلّف كرنليوس نيبوس تنطوي على تدقيق يفيد ثنائية القيادة التنفيذية في قرطاج: "تفرز قرطاج ملكين ذوي سلطات سنوية على غرار القنصلين في روما... »

وتبدو المسألة أقلّ تعقيدا لدى تيتيوس ليويوس الذي يتعرّض للوظيفة السياسية بالصيغة البونية: (*sufetes, sufes*) أي السبط ثم في صيغة الجمع الذي قد يعني أيضا المثنى. وتجدر الإشارة إلى أنّ فلافيوس جوزاف ذكر في مؤلفه "ضدّ آبيون I، 156–158" الأسباط الذين حكموا صور بعد الحصار البابلي للمدينة واعتمد في تسمية خطتهم المصطلح الإغريقي "دكستاس" (*dikastes*). ولا يفوتنا التذكير بمناقشة س.قزال للدراسات التي أعطت مفهوما ضيّقا لمعنى "بزلوس" أو "بزيلاييس" في المصادر الإغريقية إذ يرى أنّها لا تدلّ بالضرورة على الملكيّة بل الأرجح أنّ الإغريق أطلقوا هذه الصفة على الماجونيين الذين استمرت في صفوفهم القيادة العسكرية باعتماد اعادة الانتخاب وهو ما فهم خطأ بوجود ملكيّة داخل نفس الأسرة. وهكذا فإنّ المرادفة بين الملكيّة بمعناها الإغريقي – اللاّتيني: (*rex = reges / basileis = basileus*) والسبط = السبطين والأسباط. تبقى قائمة الذات أو على الأقلّ ممكنة. ولما كانت النقائش هي مصدرنا المباشر الوحيد في خصوص هذا الموضوع فهي لا تذكر الملكيّة في حين نجد فيها تنصيصا على مؤسسة الأسباط.

أمّا الألقاب العسكرية التي تضفيها المصادر اللاّتينيّة على القادة القرطاجيين من قبيل "إمبيراطور" (*imperator*) و"دكتاتور" (*dictator*) فإنّ مدلولها الأصلي لا يسمح بإعطائها بعد القيادة السياسيّة أو الملكية.

فلقب "إمبيراطور" الذي يعني في بعض معانيه القيادة العليا للجيش يضفيه الجيش المنتصر على قائدة في حين يمثل الـ"دكتاتور" في روما أثناء العهد الجمهوري السلطة العليا في ظروف استثنائية لمدّة محدّدة دستوريا لا تتجاوز عادة ستة أشهر ويعيّنه أحد القنصلين بقرار من مجلس الشيوخ. ولم تتخذ هذه الوظيفة بعدا استبداديا إلاّ في مرحلة متأخّرة أثناء أزمة الجمهورية الرّومانية خلال النّصف الأوّل من القرن الأوّل ق.م. وقد قام م.سزنيسار بمراجعة عميقة لهذه الإسقاطات الإغريقية – اللاتينية في مقال نشره سنة 1988 وتولّى فيه دراسة تسميات الوظائف العسكرية في النقائش البونية والبونية الجديدة فأبرز أنّ وظيفة "ربّ م خ ن ت" تعني قائد الجيش أو الجنرال. وقد استعملت في ترجمة وظيفة عسكرية رومانية في النّقيشة المزدوجة النص (بونية جديدة – لاتينية) التي عثر عليها في لبدة سنة 1929 والمؤرّخة بالسنة الثامنة ق.م حسب الإشارات التي تهمّ أغسطس، فترجمت رتبة قنصل في النّص البوني الجديد بـ"ربّ م خ ن ت" أي قائد الجيش.

أمّا النّقيشة الثانية فنصّت على (ربّ. ت ح ت. ربّ. م خ ن ت) ومعناها الحرفي "القائد الذي تحت قائد الجيش" واعتبرها كلارمون قانّو (Clermont - Ganneau) ترجمة بونية لوظيفة "بروقنصل". وعلاوة على الوظائف العسكرية العليا أبرزت النّقائش الفينيقية والبونية خططا دنيا مثل "ربّ س ن ي " أي القائد الثاني و"ربّ. ش ل ش"، القائد الثالث أو "ربّ م أ ت" أي قائد "كتيبة" المائة".

وتبدو في ضوء ما سبق حدود تأويل ما أورده يوستينوس في تقديمه للعائلة الماجونية. فأوّل أفرادها ماجون "إمبيراطور" (*imperator*) بمعنى قائد عسكري. ويضيف أنّه تولى هذه الخطة اعتبارا لخصاله بمعنى أنّ ذلك تمّ إثر

اختيار وليس اعتمادا على حقّ وراثيّ. وصيغة "إمبيراطور" لا تتضمن الجمع بين القيادة العسكرية والسياسية. أما ابنه عزربعل فقد تولى القيادة بصفة "ديكتاتور" (*dictator*) إحدى عشر مرّة قاد خلالها حملات عسكرية خارج قرطاج دون أن يعني ذلك الإنفراد بالسّلطة السّياسيّة داخل قرطاج. فسلطة الماجونيين هي سلطة قادة عسكريين مكّنوا قرطاج من أهم عمليات التوسّع سواء في صقلية وسردانيا أو في المجال الإفريقي.

وقد بدأت مناقشة الملكيّة في الدراسات المعاصرة في نطاق المدرسة الألمانيّة منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث أثارها الباحث أ.ملتزار (O.Meltzer) في "تاريخ قرطاج" الذي أصدره سنة 1896 واستبعد أن تكون قرطاج قد شهدت نظاما ملكيا لكن ج.بلوك (J.Beloch) طرح المسألة من وجهة نظر مناقضة في مقال أصدره سنة 1907، بناء على قراءة لنصّ أرسطو وحاول فيه إثبات تاريخية الملكيّة في قرطاج.

وتناول ستيفان قزال المسألة بالتحليل والنّقد في الجزء الثاني من "التاريخ القديم لشمال افريقيا" الذي أصدره سنة 1918 وعبّر عن تحفظات عديدة متفاديا الجزم في الاستنتاج. ويمكن تفهّم هذا الحذر في مرحلة لم تبلغ خلالها دراسة النّقائش النّتائج الحاسمة التي تبلورت لاحقا والتي جعلت أبرز المهتمين بالمؤسسات القرطاجية مثل س.موسكاتي وم.سنيسار وم.ح.فنطر يجمعون بين مناقشة المصادر الأدبية والاستنتاجات التي توفرها النّقائش.

أمّا جلبار ش.بيكار (G.Ch.Picard) فإنّه يدافع عن أطروحة وجود ملكيّة في قرطاج بناء على تأويل النّصوص المصدريّة والتّحفظ من النقائش ويرى أنّها لا تكتسي طابعا سياسيّا. ووفقا لتصوّر تطوّري للنّظام السياسي القرطاجي يعتبر أنّه شهد على غرار المدن – الدول الإغريقية وروما انتقالا من ملكية الحق الإلهي إلى الدّيمقرطية. ومن هذا المنطلق يؤوّل مكانة علبسة في نصّ يوستينوس كانعكاس لذكريات تاريخية وأساطير تفسّر الوظيفة الدينيّة للملكيّة فانتحارها هو تعبير عن التزام ملوك قرطاج بحماية المدينة من الأخطار أو إعلانا لمسؤوليتهم

في وقوعها كما هو الحال بالنسبة إلى عبد ملقرت الماجوني إثر هزيمة هيمرلس سنة 480 ق.م. وتقوم قراءة بيكار لنصّ هيرودوت – الذي استعرض الحدث – على البحث في الوظيفة الدينيّة لعبد ملقرت فقد كان هذا الأخير إلى جانب وظيفته العسكرية بمثابة ملك – كاهن إذ بقي أثناء المعركة يقدّم الأضاحي للآلهة التي لم تبارك حملته وهذا مبرّر انتحاره. والملك الذي يختار هذا المآل يقع تأليهه. ويؤكّد بيكار أيضا امتداد الملكيّة العسكرية للقادة الماجونيين واختيار الملك بناء على خصاله الحربيّة داخل نفس العائلة ويتساءل عن دور الكهنة والجيش في عملية التعيين مفترضا أن تكوّن النّخبة العسكرية مرتبطة بالملك عن طريق ولاءات شخصيّة. أمّا إشارة ديودروس الصقلي الصّريحة "لتقيّد سلطة الملك بالدّستور" فيرى فيها بيكار وجه تشابه بين الملكية القرطاجية والملكيات الشرقية المرتبطة بالهيكلين التّشريعين مجلس الشيوخ ومجلس الشعب وتطورهما في قرطاج إلى جانب محكمة المائة والأربعة ممّا أدّى إلى تراجع الملكية الماجونيّة.

إنّ نقد وجهة نظر بيكار يقوم على تجنّب استقراء مصدر أدبي كمنطلق أساسي للتأويل خاصة إذا تسرّب النّقد لمدى تاريخية ما يقدّمه وهو ما ينطبق على العناصر الأسطورية في رواية عليسة ورواية هيرودوت. وتبقى مقاربة مجمل المصادر واستنتاجات النّقائش منسجمة في دحض وجود ملكيّة في قرطاج.

2 – سلطة السبطين ومؤسسة الأسباط

عرفت وظيفة الأسباط في الحضارات السّامية وقد وردت في النّصوص الأوغاريتية للألف الثانية قبل الميلاد وفي سفر القضاة وفي نقائش المدن – الدّول الفينيقية وفي النّقائش البونية. وعبارة "سبط" لها مدلول القاضي وأيضا القيادة والحكم وهي أيضا مؤسسة إدارة محليّة أو بلديّة في المدن البونية.

ولئن ارتبط الأسباط بسلطة ملكيّة في المدن الدّول الفينيقية فيبدو وضعهم مختلفا في قرطاج حيث تذكر النّقائش النذرية أسباطا في شجرة

نسب النادرين إذ يتّضح أنّ لقب سبط يصبح علَمًا على من شغل هذا المنصب (fonction éponyme). كما ورد ذكرهم في تأريخ نصوص النّقائش. فالمعروف أن اسمي السبطين يقترنان بسنة حكمهما. ويذكر م.سنيسار نقيشة « تنص على سنة انتقال الحكم من سبطين إلى خلفهما". ويجدر التساؤل حول إمكانية وجود قائمة رسميّة للأسباط فهي السّند المادي الذي يمكن أن يمثل الحوليات الرّسمية المعتمدة للتأريخ بقرطاج.

واعتمادا على النقائش يُرجّح م.سنيسر وجود هذه المؤسسة قبل 400 ق.م. بناء على إمكانية تأريخ إحدى النقائش بأسلوب كتابتها على الأقلّ بالنّصف الثاني للقرن الخامس ق.م والتي تذكر "...سنة السبطين في قرطاج ». كما تظهر هذه المؤسسة في إطار الإدارة البلديّة لمدن دقة، مكثر والتيبروس (المديّنة) وذلك في نقائش مؤرخّة بالقرن الثالث ق.م.

أمّا في المصادر الأدبية فإنّنا نلمس إشارة ضمنيّة لوظيفة الأسباط في مؤلّف "القوانين" لأفلاطون (427– 346 ق.م)، فقد ورد في خاتمة الكتاب الثاني على لسان الأثيني الذي كان يحاور كلينياس (Clinias) حول الخمر ما يلي: "إنّي أفضّل على ما يمارس في كريت ولسدمونيا قانون القرطاجيين الذي يمنع على كلّ حاملي السلاح شرب الخمر خلال كامل مدّة الحرب. وينطبق المنع في المدينة [قرطاج] على العبيد من الجنسين وعلى الحكام خلال سنة حكمهم وعلى القضاة عند القيام بمهامهم وعلى كلّ أعضاء المجالس عند التّفاوض والتصويت على مسائل هامّة...".

يمكن أن نرى في الحكام ذوي السلطة السنويّة مرادفا للأسباط لدى أفلاطون الذي سبق أرسطو في المقارنة بين كريت ولا سيدمونيا من جهة وقرطاج من جهة ثانية. ولعلّ رحلات أفلاطون الثلاث إلى سرقوسة وإقامته بها دفعته إلى الاهتمام بالقرطاجيين ونجد أثرا لهذا الاهتمام في "رسائله" (Lettres) إلى قادة سرقوسة.

وكنّا أشرنا الى الطابع الانتخابي للسبطين وقد ذكره كرنيليوس نيبوس حيث تعرّض تحديدا لانتخاب حنبعل سبطا سنة 196 ق.م وقام بمبادرات إصلاحيّة -مثل انتخاب مراقب الماليّة- لا يمكن أن يتولاّها إلاّ ممثل السلطة التنفيذية العليا المدعم بتمثيليته لقاعدة انتخابية وهي على الأرجح المواطنون أو مجلس الشعب.

أمّا تيتيوس ليويوس الذي كتب بعد مواطنه كرنليوس نيبوس فإنه يبدي فهما أعمق للمسألة. ففي روايته لأحداث الحرب الثانية في غادس سنة 206 ق.م يذكر أسباط هذه المدينة مفسّرا وظيفتهم بأنّها "تعلى الحكام لدى القرطاجيين". ولمّا استعرض أحداث سنة 203 ق.م وتحديدا مهاجمة الرّومان لمعسكر عزربعل وسيفاكس التي بعثت التخوّف من مهاجمة سيبيو لقرطاج، فإنّ "الأسباط [السبّطين؟]. الذين تشبه سلطتهم سلطة القناصل [القنصلين؟] تولّوا دعوة مجلس الشيوخ للإجتماع...".

وتتمثل صلاحيات السبطين في رئاسة مجلس الشيوخ ومدّه بجدول أعمال جلساته أو المسائل المبرمجة للمداولة وبين ارسطو لجوءهما إلى مجلس الشعب في حال انعدام اتفاق بينهما وبين مجلس الشيوخ. وثمة مسائل يحيلانها على مجلس الشعب لإبداء رأيه فيها.

أمّا قيادة الحملات العسكرية التي يذكرها ايزوقراتاس فهي أقرب إلى واقع اسبرطا حيث يقود أحد الملكين الحملات العسكرية. ولا نملك باستثناء هذه الإشارة الوجيزة معطيات تسمح بإثبات التطابق بين القيادة العسكرية التي يشغلها ملكوك اسبرطا وأسباط قرطاج دون أن نستبعد تولّيهما القيادة العسكرية خلال المرحلة العتيقة من تاريخ قرطاج أو في ظروف استثنائية لمّا تكون العاصمة البونية مهدّدة ويرجّح ج.ش.بيكار أنّ المهام العسكرية لم تعد تسند للسبطين منذ نهاية القرن الرابع ق.م. وإلى جانب هذا الغموض فنحن نفتقر للمستندات التي تدعم افتراض وجود توزيع للمهام بينهما أو قيامهما بوظيفة دينيّة.

أما ممارسة القضاء بمساعدة هيأة أو قضاة آخرين فهي رهينة تأويل المجلس القضائي (*ordo judicum*) الذي يذكره تيتيوس ليويوس إن لم يكن مرادفا للهيأة القضائية العليا أو محكمة المائة والأربعة.

تلك هي محدودية ما يمكن استقاؤه من المصادر رغم أنّ سنكا (*Sénèque*) (4 ق.م – 65 م.) يذكر بإيجاز سعة مشمولات السبطين في «إدارة الشؤون العامّة».

3 – مجلس الشيوخ

ذكر هذا المجلس في قرطاج منذ أواسط القرن السادس ق.م إلاّ أنّ تجذّره في الشرق الفينيقي وذكر الشيوخ في رواية تأسيس قرطاج يسمحان بترجيح وجوده في قرطاج قبل القرن السادس ق.م. فمفهوم المجلس أو الهيأة التشريعية جوهري في كلّ الحضارات الساميّة حيث يعرف بـ"مجلس كبار المدينة" وذكره المؤلفون الإغريق بتسميات بعض مجالسهم. فلدى أرسطو نجد تسميتين موحّدتين لكل من شيوخ قرطاج واسبرطا لمجلسيهما: "جيروزيا" و"جرونتس" (*gerousia و gerontes*). ولدى بوليبيوس يرد مجلس شيوخ قرطاج وفق ثلاث تسميات اغريقية: "بُلي"، "سُندريون" و"سونكلتُس" (*boulé و sunedrion-synkletos*). أمّا النصوص اللاّتينية فجمعت بين عبارة "سيناتوس" (*senatus*) المنطبقة على مجلس الشيوخ الرّوماني والمصطلح الأقرب للتسمية الفينيقية بمعنى "كبار" أو "شيوخ قرطاج" وهو "سنيُرامس" (*seniores*).

وخلافا للأسباط فإنّ النّقائش تذكر أشخاصا ذوي مراتب رفيعة لكنّها لا تذكر الشيوخ ومجلسهم الذي يبقى معروفا من خلال النّصوص الأدبية فحسب.

أمّا شروط الانتماء للمجلس والمدّة النيابيّة للشيوخ وعددهم فهي أسئلة تصعب الإجابة عليها في غياب نصوص صريحة أو قابلة للتأويل. واقترح أ.ملتزر عدد ثلاثة مائة بناء على عدد الأسرى من أبناء الشيوخ الذي اشترطه

الرومان سنة 149 ق.م. إلاّ أنّ الانتماء الارستقراطي للشيوخ يعكسه تصور بوليبيوس لمجلس شيوخ قرطاج كطرف ارستقراطي في مؤسّساتها، مقابل تمثيل السبطين للعنصر الملكي ومجلس العامّة للعنصر الديمقراطي وهي الأبعاد الثلاثة لدستور قرطاج وتوازن مؤسساتها في تصوّر المؤلف المذكور.

وقد قارن أرسطو بين شيوخ كلّ من إسبرطا وقرطاج من حيث طريقة اختيارهم ويرى أن "اختيار شيوخ قرطاج أفضل من الطّريقة المعتمدة في اسبرطا حيث لا يُنظر في اختيار الشيوخ لمقياس السّنّ بل الفضيلة فالشيوخ قائمون على أمور هامّة فإذا كانوا غير أكفاء أضرّوا بالدولة كما أضرّ شيوخ لاسيديمونيا بدولتهم".

ويمكن تفسير رأي أرسطو بناء على مقاييس اختيار شيوخ اسبرطا وهي بلوغ ستين سنة والتزكية عن طريق التصفيق ويعتبر أرسطو طريقة الاختيار هذه صبيانيّة لكنّ هذه المفاضلة لفائدة طريقة اختيار شيوخ قرطاج لا تجعلنا نستبعد وجود حدّ أدنى عمري لدخول المجلس أو وجود مقاييس كفاءة معتمدة كأساس لاختيار. كما تعرض أرسطو إلى سعة الصلاحيات التشريعية التي يتمتع بها مجلس الشيوخ في حال اتفاقه مع السبطين ونعلم أيضا صلاحياته في اتخاذ قرارات الحرب والسلم وإدارة السياسة الخارجيّة لقرطاج. ومن أمثلة ذلك رفض مقترحات السلم التي قدمها القائد الرّوماني ريجولوس سنة 255 ق.م. أثناء الحرب الأولى ضدّ روما أو قبول خيار الحرب ضدّ روما سنة 218 ق.م. إثر المفاوضة مع الوفد الروماني إضافة إلى إصدار القرارات لتكوين الجيوش وانتداب المرتزقة. ويمكن أن يتولى ممثلون عن مجلس الشيوخ هذه العملية مثل انتداب مرتزقة من جزر الباليار وايبيريا للمشاركة في الحرب الأولى. وتنصّ معاهدة حنبعل مع فيليبوس المقدوني سنة 215 ق.م على وجود شيوخ إلى جانب القائد القرطاجي. والملاحظ التأكيد على صفتهم في الصّيغة التمهيدية للمعاهدة وفي خاتمتها.

تذكر المصادر الأدبيّة عدّة مجالس ولجان ويقطع النظر عـــن التقديـرات العدديّة لمجلس الشيوخ سواء ثلاثمائة أو تجاوز عددهم ذلـــك فمـــن المرجّــح أن يكون ثمة مجلس قارّ مضيق إضافة إلى لجان وهيئات ذات صلاحيـــات محــددة. وقد أورد أرسطو دون غيره اللّجان الخماســيّة (*pentarchies*) مــبرزا اتســاع صلاحيتها وأهمها اختيار الحكّام المائة.

والتفسير الأولّي يدفع إلى اعتبارها لجانا مكونة من خمســة أعضـــاء لكنه يدعو بناء على استعمال صيغة الجمع إلى التساؤل عن عددها فأرســطو يقدمها بصفة إقراريّة ووجيزة لا تيسّر الوصول إلى استنتاجات أكيدة.فـــهي مبدئيا نابعة عن مجلس الشيوخ، ذلك أنّ اختيار أعضاء هـــذه اللّجـــان يتـم حسب أرسطو من منطلق الاصطفاء (*cooptation*). وقد كانوا يمارســـــون سلطتهم مدى الحياة ولهم دور في تعيين قضاة محكمــــة المائـــة. وظـــاهرة توظيف الثروة في تولّي المناصب مجسّمة للبعد الأوليغرشي (حكم الأقليـــــة من الأغنياء والأعيان) في النظام السياسي القرطاجي.

ومما يمكن تصنيفه في اطار المجالس – مجلس القادة – (*consilum principum*) حسب رواية تيتيوس ليويوس. لقد كان هذا المجلـــس يجتمـــع سنة 172 ق.م. بصفة سريّة داخل معبد اسكلابيوس (أشمون) وذلك خــــلال فترة الخلافات بين قرطاج ونوميديا والالتزامات المتشـــددة التـــي فرضتـــها روما على قرطاج بمقتضى اتفاقية 201 ق.م التي أنـــهت الحـــرب الثانيـــة بينهما. كما تعرّض نفس المؤلّف للقادة الثلاثين من بيـــن شـــيوخ قرطـــاج (*triginta seniorum principes*) الذي تفاوضوا سنة 203 ق.م. مع سيقبيو الإفريقي حول شروط السلم الممكنة وتولت لجنة بنفس العدد من بين الشيوخ في ظروف حرب المرتزقة (241–238 ق.م) السعي للمصالحة بين القـائدين العسكريين عبد ملقرت البرقي وحنّون.

تختصر هذه الإشارات أبرز ما تقدمه المصادر في شأن المجالس المضيّقـة واللّجان. وبحكم الإيجاز والتعميم الذي يطغي عليها تتضـــح صعوبـــة الاســـتنتاج

بكونها مجالس قارّة أو مجرّد لجان مكونة لإنجاز مهام محددة أو الربط بينها وبين اللّجان الخماسيّة. ووردت في النقائش "لجنة العشرة" التي تتولى الأشراف على المعابد ولجنة الثلاثين المشرفة على الضرائب ومن المرجح أن تكون لها علاقة بالسبطين والهيكل التشريعي الرئيسي أي مجلس الشيوخ.

4 – مجلس الشعب

يمثل هذا المجلس على غرار مجلس الشيوخ مؤسسة معروفة في الحضارات السّامية القديمة تتخذ تسمية "شعب المدينة" مثل "شعب صور" وهي أيضا مؤسسة إداريّة محليّة تذكرها النّقائش في العديد من المدن البونية أو ذات التّقليد الإداري القرطاجي.

والملاحظ أنّ مصطلح "شعب" يعكس نفس هامش التعميم أو الدقة لمرادفه اللاّتيني (*populus*) فالسّياق يمكن أن يعطي للعبارة معنى "شعب المدينة" أو "السلطة النابعة عن الشعب" أو "الهيكل الرّسمي الممثّل لهذه السلطة".

ويُجمع المؤلفون القدامى على أهميّة مجلس الشعب في الحياة العامّة بقرطاج وعلى دوره في تغير التوازن المؤسساتي لفائدته على الأقل انطلاقا من الثلث الأخير للقرن الثالث ق.م.

ويؤرّخ ظهور مجلس الشعب بمنتصف القرن السادس ق.م. وفقا لأقدم الإشارات المصدريّة وهي تخصّ اعتزام القائد العسكري مالكوس (Malchus) الانفراد بالسلطة وتوجّه إلى مجلس الشعب ليعلمه بخياره يحاول كسب تأييده.

ويحدّد نص أرسطو صلاحياته كما يلي: "ومن صلاحيات الملوك= [السبطان؟] بالاتفاق مع الشيوخ إذا أجمعوا على الأمر ألاّ يعرضوه على [مجلس] الشعب وفي غياب الإجماع يحتكم للشعب الذي يحسم الأمر. أمّا تدابير السلطة التي يعرضها [السبطين؟] والشيوخ على الشعب فلا يكتفون بأن يحملوها إلي مسامعه فقط بل من صلاحياته أن يبدي حكمه فيها كما أنّه متاح لأيّ –

مواطن – ممّن تولوا التداول في شأنها أن يعارضها وهو ما لا أثر له في بقيّة الدساتير ».

ويبدو من خلال نص أرسطو أنّ مجلس العامّة خلال القرن الرابع ق.م على الأقل يتمتع بسلطات تشريعيّة فعلية ويلعب دورا في التوازن المؤسساتي بقرطاج لمّا يتمّ اللّجوء إليه، فلا شيء يجبر السبطين أو مجلس الشيوخ اذا لم يكن ثمّة خلاف بينهما على الاستئناس برأي مجلس الشعب أو تصويته. فسلطته تختلف عن نموذج الديمقراطية المباشرة التي أبدى أرسطو تجاهها موقفا نقديا عندما تنقلب إلى ديماغوجية وتملّق ومحدودية الكفاءة في ادارة الشؤون العامة. ويؤثر عليها التوازن الجمهوري من خلال مساهمة مختلف الفئات الاجتماعية للمواطنين في سياسة المدينة الدولة من ذلك مساهمة الشعب الممثل في المنتجين والفئات الاجتماعية الوسطى إلى جانب الأرستقراطية ذات المثل أو المرجعية الأخلاقية والملتزمة بالدستور وهي نقيض حكم الأوليغارشية الذي يتطوّر بتركّز واحتكار الثروة إلى المونارشية أو الملكية حسب تصور أرسطو.

ومن صلاحيات مجلس الشعب القرطاجي أيضا انتخاب القادة العسكريين. ومن المرجح أنّ ذلك يرقى إذا اعتمدنا رواية ديودروس الصقلي إلى القرن الخامس ق.م وانتخاب القادة العسكريين الذين خاضوا مجابهات ضدّ الإغريق. وهو ما نجده لدى بوليبيوس بشأن انتخاب عبد ملقرط البرقي الذي عهد له الشعب قيادة الحملات العسكرية ضدّ المرتزقة واللوبيين بالمجال الإفريقي ثم قيادة عمليات التوسّع بإيبيريا سنة 237 ق.م. وقد أقرّ مجلس الشعب القيادة العسكرية لحنبعل سنة 221 ق.م.

وتماما مثل انتخاب السبطين فإنّ انتخاب القادة العسكريين من طرف مجلس الشعب من المرجّح أنّ يتمّ بعد عملية اختيار أولى لهؤلاء من قبل مجلس الشيوخ. إلاّ أننا نلاحظ تدعم وزن مجلس الشعب إثر المصاعب التي جابهتها قرطاج بعد الحرب الأولى ضدّ روما وحرب المرتزقة التي أثرت بدون شكّ على مصالح الأرستقراطية القرطاجية ويتناول بوليبيوس تحليل النّظام –

السياسي- القرطاجي لهذه المرحلة من منطلق التغيّر في توازنه التقليدي حيث "أصبح صوت الشعب مهيمنا في المداولات وكان رأي الأغلبية هو المرجح في قرطاج" ومن منظور المؤلف يمثل هذا الوضع اختلالا في التوازن الثلاثي للدستور القرطاجي حيث أصبح العنصر الديمقراطي (مجلس الشعب). يتمتع بأولويّة على حساب العنصرين الأرستقراطي (مجلس الشيوخ) والملكي (سلطة السبطين).

وتجدر الإشارة إلى أهميّة هذه المؤسسة أيضا في المدن البونيّة حيث تذكرها النّقائش بصيغة "عَمّ" أي شعب المدينة. والملاحظ أن ستيفان قزال يرجح إمكانية وجود شروط للانتماء إلى هذه المؤسسة أساسها المواطنة وبلوغ سنّ محددة وتوفر حدّ أدنى من الدّخل.

كما يشير م.ح.فنطر إلى إمكانية وجود مجالس أو لجان مضيّقة في صلب مجلس الشعب مثل اللّجنة التي تمسك دفاتر العبيد الذين يتم عتقهم. وهو ما يحيلنا إلى إمكانيات إسناد المواطنة القرطاجيّة ويطرح افتراضا بخصوص اللّوبيي- فينيقيين. وذكر كلّ من تيتيوس ليويوس وأبيّانوس إسناد المواطنة في ظروف استثنائية حيث عرض حنبعل قبيل معركة كانّي (Cannes) سنة 216 ق.م على جنوده من الحلفاء مكافآت عديدة في صورة الانتصار ومنها أن يصبحوا مواطنين قرطاجيين إن رغبوا في ذلك.

هل كان مجلس الشعب القرطاجي موزّعا إلى خلايا أو وحدات انتخابية؟

طرح هذا التساؤل في علاقة بمقارنة أرسطو لأوجه التشابه بين اسبرطا وقرطاج المتمثّلة في "المآدب الجماعية لأعضاء الهيتيريات (*hétairies*) التي تشبه الفيديتيات (*Phidities*). وقد كانت هذه المقارنة محلّ تأويلات مختلفة، ذلك أن الهيتيريات الإغريقية مختلفة في حدّ ذاتها من حيث تركيبتها وأغراضها. فهي تجمع في اسبرطا "المتساويين" من العسكريين في حين كانت في أثينا بمثابة جمعيات سياسية ذات نزعة أوليغارشية مناهضة للديمقراطية وتتسامح المدينة-

الدولة مع نشاطها. أمّا في جزيرة كريت فإنّ الهيتيريات تجمع المواطنين وتلعب دور التعاونيات التي تتولّى خدمة أعضائها. وتجدر الإشارة إلى أن أرسطو أبرز العلاقة التقليدية بين قادة الأوليغارشية الذين يطمحون إلى الحكم وأعضاء الهيتيريات (13 v, 6,6;) ممّا يضفي دورا سياسيا على هذه الجمعيات. وفي هذا السياق فقد كان يطلق اسم الهيتيريين (*hétaires*) على مساعدي وأعوان الاسكندر المقدوني. وهكذا فقد اتخذت هذه المقارنة معنا واسعا فاعتبرت الهيتيريات القرطاجية مجرّد مجموعات حرفية أو خلايا اجتماعية ودينية يرجّح أنها ذكرت في النقائش البونية باسم "مزراح" كما هو الحال في نقيشة الأضاحي المعروفة "تعريفة مرسيليا" أو في نقيشة مكثر. وافترض ف.س.موفرس (*F.C.Movers*) مقابل ذلك أنها وحدات ممثّلة للعائلات الارستقراطية القرطاجية تشبه الفراتري (*phratrie*) الاغريقية والكوريا (*curia. curiae*) الرومانية التي كانت تمثّل خلايا انتخابية. ويأخذ س.اقزال بهذا الرأي مضيفا أن كلّ المواطنين لا الارستقراطية فحسب كانوا موزّعين على الهيتيريات التي كونت وحدات انتخابية، تحتسب نتيجة اقتراع المواطنين في كلّ منها صوتا عند تجميع اقتراع مختلف الوحدات لمعرفة نتيجة التصويت العام.

تدعّم هذا الرأي بناء على ازدياد عدد النقائش اللاتينية التي تذكر الوحدات الانتخابية (*curiae*) لمواطني المدن الافريقية خلال العهد الروماني. ويرى ت.كوتيلا (T.Kotula) في تركيبة الكورياي –الموزّعة في إطار وحدات انتخابية لمجلس الشعب– امتدادا للخصائص المحلية للهيتيريات القرطاجية معتبرا أن معرفتنا الغامضة بتنظيم وطرق عمل هذه الأخيرة اعتمادا على نص أرسطو يقابلها وضوح آليات عملها خاصة في المدن البونية النومدية اعتمادا على النقائش اللاتينية.

لكن تجدر الإشارة إلى أبرز النقائش اللاتينية التي تمّت دراستها في علاقة بالمؤسسات القرطاجية وهي نقيشة دقة والمؤرخة بسنة 48 م. فقد مثّلت دقة نموذجا فريدا لتواصلي المؤسسات البونية في إدارتها المحلية إلى حدود

حصولها سنة 205 ق.م على رتبة "مونيقيبيوم" (*municipium*). لذلك حاول وسستون (W.Seston) في دراسته للنقيشة المذكورة البحث فيما يساعد على فهم أعمق للمؤسسات القرطاجية. تذكر النقيشة السبطين الحاكمين ومجلس وشعب مدينة دقة ثم "حامي المدينة" يوليوس فنستوس (Julius Venustus) الذي ينتمي إلى المجموعة الرومانية. أما محتوى النقيشة الذي يعنينا فهو اختيار السّبطين باتفاق "كلّ أبواب المدينة: *Omnium portarum sententiis*". اقترح وسستان مقارنة "الأبواب" (*portae*) بالوحدات الانتخابية الرومانية "كورياي" ، ثم أيضا بالهيتيريات الواردة في نص أرسطو كما قارن الأبواب المذكورة في نقيشة دقة بمنافذ (*ovilia*) الساحة العمومية (*forum*) ووظيفتها كفضاءات انتخابية في المدن الرومانية تماما مثل "القطاعات العشرة" بالأغورا (*Agora*) الأثينية حيث يدلي المواطنون بأصواتهم في قضايا الاقصاء (*ostracisme*).

إلاّ أن ج.قاسكو (J.Gascou) عبّر عن موقف نقدي تجاه هذه الفرضيات التي يصعب البرهنة عليها معتبرا أن الوحدات الانتخابية الرومانية تطورت بالمدن الافريقية خلال العهد الروماني بفضل ما عرفته من حيوية استثنائية للنشاط البلدي سواء خلال العهد الامبراطوري المتقدم أو المتأخر منه. وفي هذا السياق نشير إلى أن مختلف الفرضيات التي قدّمت كتفسير لنصّ أرسطو المذكور لا تجد سندا في المصادر الأدبية التي أبرزت عائلات كبرى ذات نفوذ فعليّ ولها قدرة التأثير على مجلس الشيوخ والسبطين، فلا حاجة لتنظيم الشعب في خلايا انتخابية مادام اللجوء إليه يتمّ بصفة استثنائية. لكنّ المشاركة الواسعة للشعب أو العامّة تأكّدت خلال المرحلة الأخيرة من تاريخ قرطاج وتحديدا فيما بين نهاية الحرب الأولى حتى سقوط المدينة (241-146) والملاحظ أن كتاب السياسة يغطّي في أحسن الحالات واقع المؤسسات القرطاجية خلال منتصف القرن الرابع ق.م. وما سبقه.

5 – محكمة المائة والأربعة

تعتبر محكمة المائة والأربعة أبرز الهيآت القضائية المعروفة في قرطاج ويبيّن يوستينوس ظروف نشأتها ويفسّر ذلك "بتنامي نفوذ العائلة الماجونية التي أصبحت تضغط بثقلها على الحريات العامّة وتجمع بين السلطة السياسية والقضاء فأنشئت هيأة القضاة المائة الذين اختيروا من بين الشيوخ ويلتزم القادة العسكريون تجاهها بتقديم تقارير عن حملاتهم إثر كلّ حرب حتّى تلهمهم هيبة القوانين والأحكام التي يمكن أن تُنزل بهم في قرطاج الالتزام باحترام سلطة الدولة أثناء قيادتهم". ويؤرّخ س.قزال نشأة هذه المحكمة بمنتصف القرن الخامس ق.م مبرزا تطور نفوذ العائلة الماجونية وقادتها من جهة وتحكّم الأرستقراطية في مؤسسات الدولة من جهة ثانية.

يمدّنا أرسطو بالإطار الدستوري لتكوينها حيث يقارن سلطة الحكام المائة والأربعة بسلطة "مجلس القضاة" أو "الرقباء الخمسة" (Les Ephores) في اسبرطا مبرّزا الاختلاف بينهما ففي اسبرطا ينتخبون من طرف مجلس العامّة (*apella*) في حين تختار اللّجان الخماسية من بين الارستقراطية الحكام المائة الذين يمثلون أهم سلطة في قرطاج. ويبدو أساس المقارنة لدى أرسطو الصلاحيات القضائية الواسعة للرقباء الخمسة وللقضاة المائة في كلّ من اسبرطا وقرطاج وتحديدا مراقبة قادة الجيش علما بأن أحد الملكين يتولّى هذه الخطة في اسبرطا. أمّا المفاضلة التي يبديها لفائدة النموذج القرطاجي فهي تقوم على تحفّظه تجاه انتخاب القضاة الاسبرطيين من بين العامّة في حين يقع اختيارهم في قرطاج من بين الارستقراطية والملاحظ أن الارستقراطية تتخذ عند أرسطو مفهوما قيميّا أكثر منه طبقيا.

ولئن لم يذكر بوليبيوس هذا الهيكل القضائي تماما مثل تيتيوس ليفيوس فإنّ هذا الأخير تعرّض للمجلس القضائي (*ordo Judicum*) مؤكدا على سلطاته الواسعة والسلطة المطلقة للقضاة في قرطاج لكننا لا نملك الجزم باعتباره مرادفا لمحكمة المائة والأربعة أو مجرد لجنة من لجان مجلس الشيوخ. ويعتقد س.قزال

في هذا السياق أن المؤسسات السياسية القرطاجية تطوّرت منذ منتصف القرن الخامس حتى بداية القرن الثاني ق.م. ممّا يسمح بافتراض تتطوّر صلاحيات محكمة المائة والأربعة وتنامي دور قضاتها وذلك من محكمة عليا إلى النظر في مختلف القضايا في إطار المحاكم المدنية.

سجّلت خلال القرنين الرابع والثالث أهمّ تدخّلات محكمة المائة والأربعة ضدّ القادة العسكريين وأبرزهم حنّون الأكبر الذي يذكر أرسطو محاولة انفراده بالسلطة ويقارن بينه وبين بوزانياس (Pausanias) الاسبرطي المنتصر ضدّ الفرس في واقعة "بلاتي" سنة 479ق.م (Platée) والذي سعى إلى نفس الغاية أو وجّهت له نفس التهمة. وتؤرّخ فترة قيادة حنّون بأواسط القرن الرابع ق.م. سعى إلى تركيز الملكية (*regnum*) حسب رواية يوستينوس وذلك اعتمادا على عشرين ألفا من العبيد وعلى الأفارقة (*Afri*) وعلى ملك ماوري (*rex Maurorum*). لكن، محاولته فشلت فأعدم وطالت العقوبات الجماعية أفراد عائلته باستثناء ابنه جرسكون الذي عاش في المنفى بصقلية إلى حدود سنة 342 ق.م.

عيّنت قرطاج قائدين للجيش للتصدي لحملة حاكم سرقوسة أغاتكلاس على قرطاج سنة 310 ق.م. وهما حنّون وبدملقرت وقد هزما في مواجهة أولى قتل خلالها حنون. أما بدملقرت فقد كان آنذاك حسب رواية ديودروس الصقلي متواطئا مع اغاتكلاس بهدف الانفراد بالسلطة. وتأكّد الأمر سنة 308 ق.م. وبمجرّد فشل في محاولته تمت إدانته بتهمة الخيانة وعمَل مناهض للدولة حسب رواية ديودروس الصقلي ويوستينوس اللّذين يشيران في نفس الوقت إلى أن بدملقرت كان يذكّر مواطنيه بالأحكام الجائرة التي سُلّطت على حنّون وابنه جرسكون. ومن المرجّح أن هذا التبرير يعكس دور محكمة المائة والأربعة وتوظيفها في الصراع بين العائلات الأرستقراطية في قرطاج. ونجد أثرا لتدخّل هذا الهيكل القضائي ضدّ القادة العسكريين خلال الحرب القرطاجية–الرومانية الأولى. ومن مظاهره إعدام الأميرال حنّون قائد الحامية القرطاجية بـ"مسينا"

سنة 264 ق.م. بتهمة التقصير في الدفاع عن المدينة التي أرست بها الحملة الرومانية. وأقرّ نفس الحكم ضد حنّون المنهزم في آخر وقائع هذه الحرب بـ"إغادس" ضدّ القنصل الروماني "لوتاتيوس" سنة 241 ق.م. والمرجّح أن "الإجماع" الذي حصل حول القادة البرقيين منذ حرب المرتزقة حتى نهاية الحرب الثانية ثم تطور مشاركة الشعب في الحياة السياسية إلى حدود سقوط قرطاج خلق توازنا جديدا للمؤسسات السياسية.

يتّفق أغلب دارسي ومحقّقي كتاب السّياسة أنّ هذا الأثر هو إلى حدّ ما خلاصة دروس دوّنها أحد تلامذة أرسطو، فلحتفظ المخطوط بالإلقاء والكلام الحرّ المليء بالتكرار والاستدراك والتراجع أو التلميح إلى تفسير ما. ويعتقد أ.ريفو (A.Rivaud) أن أرسطو كان يوزّع على تلامذته قبل كلّ درس ملخّصات تبرز العناصر الرئيسية للمحور المدروس وكانوا يجيبون عليها أثناء الدرس وتمّ تداول نفس المسائل خلال سنوات وجمّعت إثر ذلك من طرف أرسطو أو أحد تلامذته في محاور متجانسة.

ولعلّ هذه الملاحظات تساعدنا على فهم الصيغ المختلفة التي ذكر بها النظام السياسي القرطاجي وقرطاج عامة فقد تراوحت بين الأوليغارشية والأرستقراطية والديمقراطية خاصة وأن غرض أرسطو هو تصنيف لا تحليل النظام السياسي القرطاجي. أمّا الاستدراك الرئيسي الذي نلاحظه والمتعلّق بحصول محاولة تركيز نظام فردي في قرطاج فإنّه يندرج في إطار بعد أساسي في فلسفة أرسطو السياسية القائمة على تطور الدساتير والنظم السياسية وتغيّرها الدائم.

أمّا قراءة بوليبيوس للدستور والنظام السياسي القرطاجيين فقد خضعت لنظرية التاريخ الدائري –الآنكوكلزيس– (*anacyclosis*) التي تجعل من أفول قرطاج وبروز روما حركة طبيعية. وخصّ بوليبيوس النظام السياسي الروماني بامتياز التواصل باعتباره "نظاما مختلطا" يمزج العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية مما يعني امتزاج سلطة الفرد والأقلية والأغلبية. ويبدو تصوّر

بوليبيوس منسجما مع المدرسة الرواقية الوسطى التي أثّرت في أسرة سيقبيو. وقد كان بنيتيوس (حوالى 185-112 ق.م.) (Panétius) في روما إلى جانب سقيبيو الاميلي من 146 إلى 129 ق.م. تاريخ تولّيه إدارة المدرسة الرواقية الوسطى في أثينا. وقد صاحب بوليبيوس سنة 146 ق.م. في الرّحلة الاستكشافية على طول شاطئ شمال وغربي إفريقيا. وهكذا فإنّ تأثير المفاهيم الرواقية على بوليبيوس يبدو مؤكّدا وتتلخّص منطلقات الرواقيين السياسية في مبدأ التّوازن في الحكم والالتزام بمرجعية أخلاقية في ممارسة السلطة وتتبنّى أيضا مفهوم الكسموبوليتية و"المجتمع العالمي" وإتمام التاريخ في دولة عالمية وهي نظرية الحكم التي أثّرت بصفة عميقة في الأوساط الحاكمة الرومانية وخاصّة في عائلة سقبيو التي ارتبط بها بوليبيوس. لذلك فإنّنا لا نجانب الصّواب إذا اعتبرنا قراءته للمؤسسات السياسية القرطاجية قد قامت على نوع من المراوحة بين التصوّر الدائري للتاريخ وبين تثمين النموذج الروماني وهو ما يعكس التجاذب بين مهمّة المؤرخ وبين دور منظّر للدولة الرومانية.

إن هذه الملاحظات حول المصدرين الرئيسيين لدراسة المؤسسات القرطاجية، تبرز صعوبة الإستفادة من معلومات وردت في سياق المقارنة واتسمت بالإيجاز والغموض أحيانا. وتفسر هذه الحقيقة إلى حد ما الحذر الذي ميز استنتاجات الدراسات الأكاديمية لكنها أدت أيضا إلى التردد في إدراج النموذج القرطاجي ضمن مرجعية النظم السياسية للمجتمعات القديمة، من ذلك مثلا صورة قرطاج لدى منتسكيو في كتابه "التأملات حول أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم" الذي صدر سنة 1734، فقد خصص حيزا في الفصل الرابع منه للمقارنة بين قرطاج وروما. والملفت للنظر أن مؤلف "روح القوانين" اقتصر في هذه المقارنة على إبراز ظاهرة شراء الوظائف وسيادة مبدأ الثروة في قرطاج مقابل مبادئ الفضيلة واحترام القوانين التي تسود في روما. وقد وردت هذه الأحكام في المصادر القديمة، لكننا لا نجد صدى يذكر لدى منتسكيو لأرسطو أو بوليبيوس اللذين بينا دعائم النظام

القرطاجي. ولعل هذا التوجه يعكس مركزية أثينا وروما في المرجعية الرمزية والسياسية لفكر النهضة وفلسفة الأنوار.

ونجد مؤثرات هذا التوجه لدى ألفراد كروازي (A. Croiset) مؤلف "الديمقراطيات القديمة" الذي صدر سنة 1911 وخصص فيه ثلاث صفحات لقرطاج تساءل فيها عن "طبيعة هذه الديمقراطية السامية المعزولة في العالم القديم خارج المجال الإغريقي-الروماني؟".

ولعل هذا التساؤل يلخص المنطلقات الإيديولوجية التي أثرت في دراسة المؤسسات القرطاجية وغذت إلى حد ما أطروحة الملكية على حساب السلطة التنفيذية المنتخبة.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى غياب قرطاج في أغلب الدراسات القانونية للنظم السياسية القديمة(أنظر مثلا دراستي ج.قودمي J.Gaudemet وج.إلول J.Ellul).

وإجمالا فإن التناول الإيجابي لمؤسسات قرطاج ونظامها السياسي يكاد يكون القاسم المشترك للمصادر الإغريقية ولا يبرر القول بعزلة أو هامشية "ديمقراطية سامية" مقابل المركزية الإغريقية الرومانية، ذلك أن قرطاج أرست حضارة ونظاما ومؤسسات مدنية متوازنة في الفضاء الرحب للمتوسط القديم أثّرت بصفة خاصة في الضفة الجنوبية منه وقد أدرجها أرسطو في إهتماماته وفي دروس "المعهد" بناء على قواسمها المشتركة مع المدن – الدول الإغريقية وعلى تفردها في الآن نفسه.

مصادر الفصل الخامس ومراجعه

المصادر

- ARISTOTE., - *Politique, - II, 11, 1 à 16, III, 1, 11, 9, 6; IV, 7, 4; V, 7,4,12,12; 14; VII, 2,10.*
- ATHENNEE., - *XIV*,27.
- CORNELIUS NEPOS -*XXIII.*
- DIODORE DE SICILE. - *XIII, XX, 43, 1; 44; 6.*
- FLAVIUS JOSEPHE., Contre Apion., I,156-158.
- HERODOTE - *VII, 165-166.*
- ISOCRATE. -*Nicocles*, 24.
- JUSTIN, XVIII, 7, *XIX, 5,13; XXI, 4, 3; 7; XXII, 7, 7-14.*
- PLATON.-Lois, II, 6, 74 a
- POLYBE. - *I, 31,8; 82, 12, III, 33, 4, VI, 43-51, XIV, 61.*
- SENEQUE. - *De la tranquillité de l'âme*, IV,5.
- STRABON, *Géographie, I, 4, 9*
- TITE LIVE - *XX,7, 5; XXVIII, 37, 2; XXX, 10, 24, XXXIII, 46, 5-7; XXXIV, 61, 15*

المراجع

- CHEVALIER (J.J), *Histoire de la pensée politique TI de la Cité-Etat à l'apogée de l'Etat-nation monarchique*, Paris 1979.
- CROISET (A), *Les démocraties antiques*, Paris, 1911.
- ELLUL (J), *Histoire des institutions de l'Antiquité*, Paris,
- FANTAR (M.H), "Que savons-nous des institutions municipales dans le monde de Carthage", in, *Revue des Etudes phéniciennes puniques et d'Antiquités Libyques, IV*, (1988). pp. 205-214.
- *Carthage. Approche d'une civilisation.* T1, Tunis ,1993.
- FEVRIER (J.G), "La constitution municipale de Dougga à l'époque numide, in, *Cahiers de Byrsa*", 10, (1964 - 1965), pp. 85-91.
- GASCOU (J), "Les curies africaines: origine punique ou italienne?", in, *Antiquités Africaines n°10*, (1976) pp 33-48.

- GAUDEMET (J), *Les institutions de l'Antiquité*, Paris, 1984

- GSELL (S), *H.A.A.N.*, 1972. TII, Livre 2: Le gouvernement de Carthage... pp. 183-248.

- HUMBERT (M), *Institutions politiques et sociales de l'Antiquité.* 2ème édition, Paris, 1986.

- KRAHMALKHOV (C), "Notes on the rule of the sofetim in carthage", in, *Rivista di Studi Fenici*, IV, (1976), pp.153-157.

- MAURIN (L), "Himilcon le magonide, crises et mutations à Carthage", in, *Semitica*, XII, (1962) pp. 5-43.

- MONTESQUIEU, Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence. Chronologie et préface par J.EHRARD, Paris, Garnier-Flammarion 1968

- MOSCATI (S), "Il popolo di Bithia", in, *Rivista degli studi orientali*, 43, (1968), pp. 1-4.

- PICARD (G Ch) et Colette, *vie et mort de Carthage*, Paris, 1970.

- PICARD (G.Ch), "Les sufètes de Carthage dans Tite Live et Cornelius Nepos", in, *Revue des Etudes Latines*, 41, (1964), pp 269-281.

- "L'administration territoriale de Carthage", in, *Mélanges A. Piganiol*, II, (1966), pp. 1257-1265.

- "La révolution démocratique à Carthage" in *Latomus*, 62, (1968), pp.113-130.

- "De la fondation de Carthage à la révolution barcide", in, *Archéologie vivante*, 1-2, (1968-1969), pp. 149-153.

- RIVAUD (A), *Histoire de la philosophie* T1: *des origines à la scolastique*, Paris, 1960

- ROUSSEL (P), *Sparte*, Paris, 1960

- SESTON (W), "Des portes de Dougga à la constitution de Carthage", in, *Revue Historique*, T.237, (1968), pp. 277-294.

- SZNYCER (M), "L'Assemblée du peuple dans les cités puniques d'après les témoignages épigraphiques",in, *Semitica*, XXV, (1975), pp. 47-68.

- "Carthage et la civilisation punique",in, *Rome et la Conquête du monde méderranéen*. sous la direction de Claude Nicolet. T2, *Genèse d'un empire*, Paris, (1978), pp 545-593.

- "Le problème de la royauté dans le monde punique", in, *Bulletin du Comité des Travaux Historiques. nouv. Ser., Fasc. 17 B,* (1984), pp. 291-301.

- "Les titres puniques des fonctions militaires à Carthage",in, *113. congrès national des sociétés Savantes. Strasbourg,* (1988), - IV *colloque d'histoire et d'archéologie d'Afrique du Nord.* T1. pp.113-121.

- WEIL (R), *Aristote et l'histoire* - Paris, 1960.

الفصل السادس

الحضور القرطاجي في المجال الإفريقي

اقترنت صورة قرطاج بالبحر وذلك منذ تأسيسها إلى حدود سقوطها، واعتبر شرط الرّومان في مفاوضاتهم مع القرطاجيين قبيل الحرب الثالثة بنقل عاصمتهم إلى موقع قاري أمرا يصعب قبوله من طرف شعب أرتبط دوما بالتجارة البحرية. كما سادت صفة الإمبراطورية البحرية في المصادر والقراءات المعاصرة فأوّل حدث نعرفه عن قرطاج بعد تأسيسها يتمثّل في إنشائها لمستعمرة إيبزا (إيشيم في الأصل الفنيقي) (Ibiza) سنة 654 ق.م ولعلّ القدرة على تأسيس مستوطنات دون اللّجوء لصور تفسّر بروز قرطاج خلال النصف الثاني من القرن السّادس ق.م على الأقلّ كقوّة عسكريّة هدفها حماية المرافئ والمستوطنات الفينيقية من حركة الاستيطان والقرصنة الإغريقية التي اتخذت بعدا جديّا بعد تأسيس "الفوقيين" لمسّاليا (Massalia) سنة 600 ق.م ولعلّ التّحالف القرطاجي الأترسكي يمثل البعد الدّبلوماسي – العسكري لحماية مناطق نفوذ تجارية أصبحت محلّ منافسة.

إنّ النشاط المتوسطي وصورة الإمبراطورية البحرية التجارية القرطاجيّة الحريصة على تأمين حركة الملاحة ومناطق نفوذها، بدت أيضا من خلال تنظيمها للرحلات البحرية الكبرى وأبرزها رحلة حنّون ورحلة خميلك. لكن ذلك لم يمنع تطوّر قرطاج في محيطها الإفريقي الذي يمثّل عمقا قاريّا مختلفا عن الظهير الزّراعي المحدود للمدن–الدول الفينيقية سواء من حيث إمكانياتها الطبيعية أو تركيبتها السكانية. والبحث في هذه المسألة كفيل بتقدير أهميّة الحضور القاريّ لقرطاج وتحديد مراحل تطوره وطبيعة العلاقة بالأهالي والانعكاسات الاقتصادية والحضارية لهذا الارتباط الذي ساد على امتداد تاريخ قرطاج خلافا للمقاطعة الترابية في إسبانيا التي تحكمت فيها قرطاج لمدّة محدودة.

1 – القرطاجيّون والأهالي الأفارقة من تأسيس قرطاج إلى منتصف القرن الخامس ق.م.

يتوقف البحث في هذه المرحلة على روايات تاريخيّة وجيزة يطرح بعضها صعوبات في هامش التأويل الممكن. ومن ذلك رواية تأسيس قرطاج التي أشرنا لعناصرها في الفصل الثالث. ويعنينا هنا ما تذكره الرواية عن الأهالي "الماكسيتاني" وملكهم "هيارباس" الذين تعاقدت معهم المجموعة المؤسّسة لقرطاج على دفع ضريبة سنويّة. لكنّ معرفتنا بطبيعة التنظيم السياسي للأهالي المذكورين ومدى قدرتهم على فرض التزام ضريبي على قرطاج تبقى محدودة جدّا ولا تتجاوز إمكانية مقاربة اسم الشعب المذكور في رواية يوستينوس ماكسيتاني (*Maxitani*) مع مقاطعة موكسي (Muxi) التي تذكرها نقيشة لاتينيّة عثر عليها بأوتيكا والمؤرخة بسنة 60ق.م والتي غذّت الافتراض بأن يكون اسم المقاطعة في علاقة باسم متساكني منطقة غرب قرطاج وتحديدا سهل مجردة الأسفل وظهير أوتيكا. وكنّا أشرنا إلى أهمية الخزف المحلّي المقولب في قرطاج خلال القرن السابع ق.م وهي مؤشّرات لارتباط مبكّر بين الطّرفين. ومن مؤشّرات ذلك أيضا استغلال مقاطع الهواريّة وربّما التّحكم فيها منذ القرن السابع ق.م. وقد اتخذت علاقة قرطاج بالأهالي خلال القرن السادس ق.م. منعرجا جديدا وفقا لما يذكره يوستينوس من عمليات عسكرية قادها مالكوس (Malchus) ضدّ الأفارقة في منتصف القرن السّادس ق.م في محاولة لوضع حدّ للالتزام الضريبي المفروض على قرطاج. وتواصل ذكر هذه الحملات خلال الربع الأخير من نفس القرن من خلال حملة عزربعل الماجوني ضدّ الأفارقة. وتنصّ المصادر على فشل هذه الحملات الأولى في المجال الإفريقي. وإذا سلّمنا بتاريخيّة الحملات المذكورة فإنّنا نلاحظ تزامنها مع نجاح قرطاج في التّحكّم في سردينيا وكورسيكا والتصدّي للقرصنة الإغريقية في البحر التريني تماما مثلما نجحت في التصدّي لمحاولة استيطان إسبرطية في ساحل خليج سرت شرق لبدة حيث أنشأ دوريوس (Dorieus) الإسبرطي مستوطنة وتمكّنت قرطاج من وضع حدّ لها

وطرد الإغريق بمساعدة قبائل المكاس (*Maces*) من الأهالي حوالي 510 ق.م. ولا نرى تناقضا بين محاولة السّيطرة على المجال القارّي للأفارقة المحيطين بقرطاج وتحالف أهالي منطقة لبدة معها ضدّ الإغريق. يرى أدي فيتا (A. Di Vita) إن قرطاج تحكمت في لبدة وصبراطة وأويا (طرابلس) منذ نشأتها. واستبعد انشاء مستوطنات فينيقية بصفة مستقلة عن قرطاج خلال القرن الخامس. وإذا اعتمدنا رواية تيتيوس لويوس (XXXIV,62,3) فقد كانت لبدة عاصمة "الأمبوريات" التي تؤلّف وحدة إدارية. والمقصود بالأمبوريات (Emporia) المرافئ والمدن التي تمتد بمنطقة سرت الصغرى وسرت الكبرى. ولئن كانت هذه المقاطعة خارجة المنطقة الخاضعة مباشرة لقرطاج فقد كانت تابعة ضريبيا. ولعلّ وطأة هذه التبعية لقرطاج تتّضح بصفة غير مباشرة من خلال التطوّر الملحوظ لكل من لبدة وصبراطة وأويا خلال القرن الثاني ق.م. بعد أن أصبحت مستقلّة بمواردها.

يمكن دراسة العلاقات السياسية والإدارية بين قرطاج من جهة واللوبيين والنوميديين من جهة ثانية من خلال أحداث المرحلة الممتدّة من القرن الخامس ق.م. إلى حدود حرب المرتزقة والأفارقة إثر الحرب الأولى. ومقابل حالات الاندماج المذكورة بين الفينيقيين والأهالي واقتصار بعض المدن الفينيقية البونية بشمال إفريقيا على ظهير زراعي محدود، تمكنت قرطاج من اكتساب مجال زراعي والتحكّم في منطقة قارية هامة اقتصاديا وعسكريا. ومثّلت واحد من أهمّ مجالات تأثير الحضارة البونيّة.

2 – المجال الإفريقي لقرطاج

يلخّص يوستينوس (*XIX، 2–4*) البُعد الجديد لعلاقة قرطاج بالأفارقة والذي تأكّد بعد أن "أجبر القرطاجيون – غداة هزيمة هيمراس – اللّوبيين المجاورين لهم على التنازل عن الضريبة التي التزمت قرطاج بدفعها لهم بدون انقطاع تقريبا منذ تأسيس المدينة، وحاربوا النّوميديين وبلغت المجابهات

الماوريين". ويؤرّخ المؤلف لهذه الأحداث بعد واقعة هيمراس التي جدّت سنة 480 ق.م وقد هزم فيها الإغريق بقيادة جيلون (Gélon) حاكم سرقوسة وتيرون (Théron) حاكم أكرقاس (Acragas) جيش قرطاج ممّا أدّى إلى تراجع نفوذها في صقليّة. ونظرا للانعكاسات المستقبلية العميقة لهذا الحدث فإن ج.ش.بيكار يعتبره منعرجا محدّدا في تاريخ قرطاج"! فالتراجع الظرفي لنفوذها في الجزيرة كان حافزا لنشأة مجال حيوي جديد على حساب اللّوبيين المجاورين لقرطاج والنّوميديين وهو ما يمكن أن نؤرخه بين 480 و450 ق.م.

أمّا عن تفاصيل هذه الأحداث والمدى الجغرافي لعمليات التوسع خلال القرن الخامس ق.م. فمعرفتنا بها تبقى محدودة أمام اختصار أو صمت المصادر. ومن الإشارات الوجيزة في هذا الصّدد رواية ديون كريزستوموس (Dion Chrysostomos) ومفادها أنّ حنّون ابن عبد ملقرت "حوّل القرطاجيين من صوريين – كانوا – يعيشون في لوبيا، وبفضله استوطنوها بدل فينيقيا وغنموا ثروات طائلة وأسواقا كثيرة وموانئ وسفنا وسيطروا بحرا وبرّا".

إنّ تأويل هذه الرّواية يفترض الإلمام بمصدرها، فنحن بصدد رواية وجيزة لخطيب إغريقي من بيثينيا (Bithynie) عاش في ما بين 40 و111م. وكانت خطبه سياسيّة وفلسفيّة غرضها إفادة متلقّين من أوساط متنوّعة عبر تنقلاته ببلاد الإغريق وآسيا الصّغرى. وقد أضطرته معارضته للإمبراطور دوميسيانوس (T.F.Domitianus) (81–96م) لمغادرة روما لكن الإمبراطور ترايانوس (M.U.Trajanus) أعاد له الاعتبار والمعروف أنّ هذا الإمبراطور أشرف على أهمّ حركات التّوسّع وبلغت في عهده الإمبراطورية الرّومانية أوج امتدادها في العديد من نواحيها. ولعلّنا نجد في هذه الظرفيّة مبرّرا لنصّ خطابي يبرز فيه ديون كريزستوموس ثنائية الاستيطان والإثراء.

وهكذا فإنّ السّياق الخطابي وإطار هذه الرّواية يفسران غرضها ولكن ذلك لا ينزع عنها قيمتها التاريخيّة، فالمصادر التاريخية تتفق في تواصل القيادة العسكرية خلال القرن الخامس ق.م. داخل العائلة الماجونية. ووفقا للرواية

المذكورة يمكن اعتبار حنّون بن عبد ملقرت الماجوني الذي قاد عمليات التوسّع في المجال الافريقي هو نفسه قائد الرّحلة البحرية التوطينيّة والتّجارية التي انطلقت من قرطاج عبر ساحل شمال إفريقيا ثم تواصلت حتى خليج غينيا. لكن شدّة اختصار نصّ ديون كريزستوموس اعتُبرت مصدر غموض ومبرّرا لتأويلات مختلفة ومنها ما يعتبر دور حنّون في تحرير القرطاجيين من المدينة ـ الأمّ صور لكنّنا نرجح أنّ رمزيّة هذه الرواية في أوج مراحل التّوسع الرّوماني تؤكد على امتيازات الاستيطان والارتباط بمجالات جغرافية جديدة خاصة إذا اعتبرنا إلمام المؤلف المذكور بالمرجعية الإغريقية التي تولي قيمة قصوى للتأصّل في المدينة – الدّولة والمجال التابع لها وهو مفهوم تجاوزته النّظرة الكسموبوليتية للإمبراطورية الرومانية. فإلى أي مدى يمكن القبول بمصداقية المثال القرطاجي الذي يبدو أن كريزستوموس ديون اعتمده لمجرّد التّفسير والبرهنة؟

ويقدّم ق.بونّس (G.Bunnens) مقاربة تاريخية لهذه الرواية مفادها أنّ قرطاج أصبحت "ملزمة في أواسط القرن الخامس ق.م. على القطع مع سياسة انتظارية للتّحكّم في مجالها القارّي المباشر".

أستعرض أرسطو في ثنايا كتاب "السّياسة"، صيانة الدّيمقراطيات (*VI، 5، 9*) فأشار إلى آليات استفادة عامّة المواطنين من موارد المدينة الدّولة ومساهمة الأثرياء في خلق توازن اجتماعي داخلها ثم يخلص إلى أن "القرطاجيين بتوخيهم هذا الأسلوب في الحكم كسبوا ودّ العامّة، فهم يوفدون بدون انقطاع إلى المدن الخاضعة لهم أناسا من العامّة ويسهمون بذلك في رفاههم ».

يبدو هذا الإجراء من ثوابت سياسة قرطاج، أي تخفيف العبء الدّيمغرافي بها عن طريق الاستيطان. وليس من المبالغة أن نرجّح مطابقة هذه الإشارة لعمليات التّوسع خلال القرن الخامس ق.م. خاصّة إذا اعتبرنا إمكانية استقبال قرطاج لمهاجرين من الشرق الفينيقي خلال القرن السّادس ق.م ووجود صعوبات ظرفية بعد سنة 480 ق.م وإن لم تفض إلى انقطاع المبادلات وانطواء قرطاج

في محيطها الإفريقي كما يبدو من خلال الصورة التي سادت لمـدّة معينـة فـي الدّراسات المعاصرة والتي أمكن مراجعتها اعتمادا على أهميّة الخزف الإغريقـي الأتيكي المؤرّخ بالقرن الخامس ق.م في قرطاج والمدن البونيّة. وفي هذا ما يدعـم مبدئيا القراءات التي ترى في تواصـل المبـادلات اسـتقرارا لمـوارد قرطـاج ولاستثمار الارستقراطية في المجال الزراعي المكتسب ولتنويـع مـوارد الدولـة سواء اعتمادا على المناطق التي تملّكها القرطاجيون بالوطن القبلي وسـهلي وادي مليان ومجردة الأسفلين أو مناطق السّهول الكبرى التي أخضعتها قرطاج لعلاقـات ضريبيّة وألزم أهاليها بالتجنيد في جيش قرطاج.

إنّ التغيرات المشار إليها تقوم على مقاربة منطقية يمكن تدعيمها بناء علـى أحداث أواخر القرن الخامس ق.م، ففي سنة 410 ق.م أمكن لقرطاج تجهيز حملـة عسكرية باتّجاه صقلّية بقيادة حنبعل الماجوني تواصلت مـع خلفـه فـي القيـادة العسكرية خميلك ابتداء من سنة 406 ق.م. إلى حدود سنة 396 ق.م. وقد اضطـرّ خميلك إثر فشل حصار سرقوسة وتفشّي الوباء في جيوشه إلى مغادرة الجزيـرة ويذكر ديودروس الصقلي (*77،XIV*) أنّـه أنشـغل بمصـير العسـكريين مـن المواطنين القرطاجيين فقط وتخلّي عن فيالق الأهالي والمرتزقـة. وتؤكّـد هـذه الرّواية أهميّة عنصر الأهالي الأفارقة في جيش قرطاج كمجنّدين وليس كحلفـاء وكان هذا الحدث منطلقا لأولى انتفاضات الأفارقة ضدّ قرطـاج سـنة 396 ق.م. وكان المنتفضون في عداد مائتي ألف حسب نفس المؤلف. فـهل هـو تضخيـم عددي متعارف عليه لدى ديودوروس الصقلي أم أن الأمـر يتعلّـق بـردّ فعـل الأهالي اللّوبيين واللّوميديين ضدّ علاقـات هيمنـة اقتصاديـة وضغـط الإدارة العسكريّة القرطاجيّة؟.

إنّ استحالة ضبط مجال التوسّع القرطاجي وتقديـر أهميّتـه الاقتصاديـة خلال القرن الخامس ق.م يحيلنا إلى البحث في علاقات قرطاج بالمدن والمرافـئ الفينيقية. فاعتمادا على نصّ رحلة سيلاكس المنحول (Pseudo-Scylax) المؤرّخ بالقرن الرابع ق.م يذكر المؤلف المرافئ والمستوطنات من سرت الكـبرى إلـى

مضيق أعمدة هرقل معتبرا أنّ "مجمل هذه المدن والمرافئ تابعـــة للقرطـــاجيين". ولا نملك معطيات واضحة عن آليات هذه التبعية سوى ما يذكره آبيـــانوس إثـــر هيمنة نوميديا على مدن سرت الصغرى والكـــبرى بأنّـــها الـــتزمت بـــأن تدفـــع للنوميديين الضريبة التي كانت تدفعها لقرطاج والمؤكّد أنّها كانت تتمتّع في نفـــس الوقت بهامش استقلالية في إدارة شؤونها المحليّة أو البلدية تماما مثـــل هدرمتـــوم ومدن البيزكيوم ومدن السّاحل النوميدي.

يستبعد ق.كامبس (G.Camps) سيطرة قرطـــاج المطلقـــة علـــى المـــدن الموجودة بسواحل نوميديا. ويرى عوضا عن ذلك نسيج علاقات هشـــة ومتغـــيّرة بين المرافئ التي تحكّمت فيها قرطاج ثمّ قبـــائل أو ممـــالك الأهـــالي النوميديـــين والماوريين ثم العاصمة البونية. ويعتبر أن هذه الأخيرة لم تفرض هيمنة أو نفـــوذا على المنطقة المذكورة، لكن أحداث سنة 213 ق.م. تدعـــو إلـــى مراجعـــة هـــذا الرأي، فالنزاع الذي نشب بين قرطاج وحليفها قايا ملك نوميديا الشرقية من جهـــة وسيفاكس ملك نوميديا الغربية من جهة ثانية كان مداره على الأرجـــح السـيطرة على المدن الساحلية التي كانت ذات وزن استراتيجي من حيث علاقتـــها بســاحل المقاطعة القرطاجية في ايبيريا التي كانت آنذاك احدى أهمّ جبهات الحرب الثانية.

3 – الإدارة القرطاجيّة للمجال الإفريقي

تنبني معرفتنا بهذه المسألة على إشارات محدودة فـــي المصـــادر الأدبيّـــة وتأويل نقائش بونيّة أو مزدوجة النصّ أي بونيّة – لوبيّة إضافة إلى نقائش لاتينيـــة من المرحلة الجمهورية أي أنّها تعود إلى الطـــور الأوّل مـــن تـــاريخ المقاطعـــة الرّومانيّة – الإفريقية. وتسمح هذه المصـــادر بـــالبحث فـــي الوضـــع القـــانوني والإداري لمجالين ارتبط أوّلهما مباشرة بقرطاج أي امتدت به ملكيات القرطـــاجيين ويمكن اعتبار ثانيهما مجال نفوذ بوني يلعب دور المصـــوّن بـــالحبوب ويخضـــع رعاياه للتّجنيد في الجيش البوني.

وتُعتمد النّقائش والمعطيات الأثريّة وتحديدا الخزف والمعالم الجنائزية اللّوبيّة والنّوميديّة في محاولة لبلوغ الإلمام المقبول بمسألة تبدي بعض المفارقات: فالمجال الإفريقي الذي ضمته قرطاج احتفظ بمعالم الحضارة البونية بعد سقوط قرطاج. وهذا المعطى لوحده يدعونا إلى مراجعة القراءات القائمة على ثبات علاقات الهيمنة والصراع بين الطرفين وهي التي تبدو خاصة من خلال المصادر الأدبية. على أنّنا نجد نقيضها بصفة محدودة في نفس المصادر. وتساعد المعطيات الأثرية والنقائش على مقاربة المسألة بصفة شاملة أي في جوانبها السّياسيّة والاقتصاديّة والحضاريّة.

إنّ الترتيب الزّمني للمصادر الأدبية التي تستعرض امتداد الحضور القاري لقرطاج بصفة صريحة أو ضمنية يبيّن أن بداية هذا الحضور تعود إلى أواخر القرن الخامس ق.م حيث يتضح من خلال تركيبة الجيش القرطاجي الذي وجه إلى صقليّة سنة 410 ق.م حضور الأهالي الأفارقة كمجنّدين.

على أنّنا لا نستبعد وجود نوميديين أو ماوريين مرتزقة أو حلفاء. وتهمنا الفئة الأولى التي تعبّر عن الارتباط القانوني الذي أرسته قرطاج مع المجال المكتسب بفضل توسعات أواسط القرن الخامس. وكنّا قد أشرنا إلى ردّ فعل هؤلاء الأفارقة الذين تخلّى عنهم خميلك قائد آخر حملة سنة 396 ق.م لمّا انسحب بمعية المواطنين القرطاجيين إثر انتهاء حصار سرقوسة. ويذكر ديودروس الصقلي حيثيات ردّ فعل الأفارقة و"امتعاض رعايا قرطاج المنهكين من ثقل إدارة استبدادية وانضمت مجموعات من العبيد المنتفضين الذين هاجموا قرطاج عددهم في عداد"مائتي ألف".

والملاحظ تواصل ردود فعل الأفارقة إثر مصاعب مرت بها العاصمة البونية بسبب تفشي أوبئة خلال سنوات 378 و365 و367 ق.م. واقترنت محاولة حنّون الأكبر الانفراد بالسلطة في قرطاج في أواسط القرن الرابع ق.م بالاعتماد على العبيد وعلى ملك ماوري وضع على ذمته جيوشه وهي إشارة صريحة لوجود كيان سياسي منظّم لا يحدد يوستينوس منطقته الجغرافية وهي مبدئيا

غرب المناطق النوميديّة المتعارف عليها خلال القرن الثالث ق.م وهو مؤشّر لعمق الحضور القارّي لقرطاج الذي نتبيّنه في أواخر القرن الرابع ق.م اعتمادا على نصّ ديودروس الصقلي المتعلّق بحملة آغاتوكلاس التي بدأت سنة 310 ق.م. فبعد اكتساح الوطن القبلي ومهاجمة منطقة هدرمتوم، قام أحد مساعديه أوماكوس (Eumakos) بالتوغل داخل البلاد فاستولى على دقة (Tocai) وهي "مدينة ذات امتداد بديع" فيما يذكر ديودروس الصقلي مشيرا إلى أنّه كسب تحالف عديد النّوميديين الذين يعيشون في ضواحيها ثم أيليماس (Ailymas) ملك اللّوبيين الذي حالف الإغريق ثم انقلب ضدّهم لفائدة قرطاج.

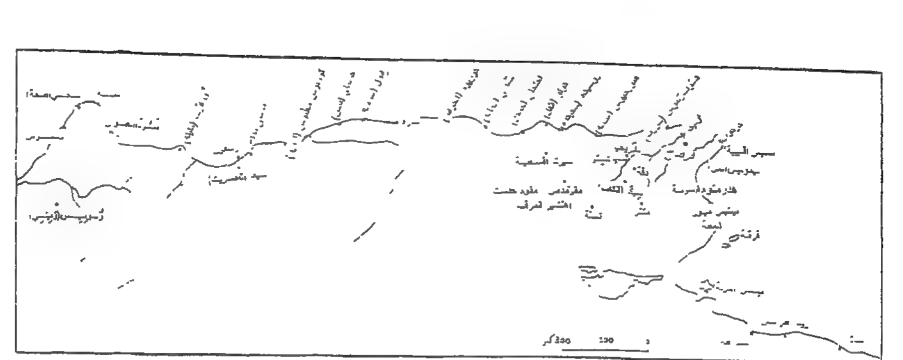
وتتجاوز الشهادات المتعلّقة بأحداث منتصف القرن الثالث ق.م منطقة دقة باتجاه المناطق الجنوبية الغربية، فقد قام الأفارقة بنهب المجال الزّراعي القرطاجي في ظروف حملة القنصل الرّوماني ريجولوس سنة 256 ق.م على قرطاج أثناء الحرب الأولى ويشير بوليبيوس إلى ردّ فعل قرطاج من خلال حملة حنّون سنة 254 ق.م التي بلغت مدينة إفريقية كبيرة وهي (Hecatompylos) التي اعتبرت مدينة تبسّة. وإذا كان الحضور القرطاجي بتبسة محلّ نقاش سواء اعتبرناها منطقة دفاعيّة متقدّمة أو تابعة فإنّ سيكّا (Sicca) – الكاف – تجسّد هذه العلاقة القانونية حيث نُقل إليها مرتزقة الحرب الأولى من العاصمة البونية سنة 241 ق.م. أمّا إذا اعتمدنا دلالات أسماء الأماكن فإنّنا نلاحظ غرب سيكّا بين تبسّة وسرتا (Cirta) –قسنطينة– موقع مكُومَداس (Macomades) (هنشير المرقب) وهي صياغة لاتينية لاسم مكان بوني شائع الاستعمال: مقوم حدشت (Maqôm hadasht) أي "المركز الجديد". والملاحظ أن أوريليوس (Aurelius) أسقف هذه المدينة كان في بداية القرن الخامس ممن يتقنون اللغة البونية حسب ما ورد في إحدى رسائل القدّيس أوغسطينوس.

لكن هل يمكننا اعتماد أسماء الأماكن أو مؤشّرات التأثير الإداري واللّغوي والدّيني لضبط حدود النّفوذ القرطاجي؟ يشكّ س.قزال في مصداقية المقياس الأوّل فيمكن أن يكون مصدر سوء تقدير لفرضية إضفاء القرطاجيين لتسميات

فينيقيّة على مواقع أهلية معروفة أو تبنّي الأهالي لهذه التسميات من منطلق تـأثّرهم بالحضارة البونيّة فالأسماء الفينيقيّة القليلة للمواقع الدّاخلية لا تكفي لتـأكيد تبعيّتـها لقرطاج. (أنظر الخريطة رقم 1).

وتؤكّد المصادر الأدبيّة حقيقة التّحكّم في مواقع ومدن حصينة مثـل تبسّـة وسيكّا لكنّ تقديراتها لامتداد المجال القرطاجي تبدو تقريبيّة. يذكـر أبيـانوس أنّ "قرطاج تحكّمت في نصف لوبيا" بعد أن بيّن "استيطان القرطاجيين لمدن معزولـة في ما وراء الخندق الحدودي وفرضهم لنظـام استخلاص ضرائـب وتجنيـد الرّعايا". أمّا سترابو فيشير إلى "ضمّ الفينيقيين [القرطاجيين] لكلّ المناطق التـي لا يسود فيها التّرحال". فهل يعني ذلك سيطرة قرطاج على الأراضي الخصبة التـي يعيش فيها اللّوبيون أو النوميديون المستقرون؟. فقد بيّن بوليبيوس اعتماد قرطـاج" على موارد لوبيا، أي المجال الإفريقي في كلّ ما يتجـاوز احتياجاتـها اليوميّـة". ويمكننا اعتبار لوبيا مجالا مموّنا خاضعا إداريّا لقرطاج دون أن يكون بـالضّرورة مجال استيطان.

ذكر بوليبيوس حنّون –الذي بلغ تبسّة سنة 254 ق.م وهـو الـذي بـادر بمفاوضة المرتزقة في سكّا سـنة 241–240 ق.م– باعتبـاره القـائد العسـكري للمقاطعة القرطاجية ولعلّه مدلـول وظيفـة بويتـاركوس (boétharque) التـي يستعملها نفس المؤلّف لما تعرّض للحملة العسكريّة التي وجّهتـها قرطـاج سـنة 238 ق.م لوضع حدّ لتمرّد مرتزقة سردينيا وكـان قـائد الحملـة البويتـاركوس حنّون، ولا يمكن اعتباره بالضرورة نفس القائد المذكور سابقا نظرا لتطابق أسـماء العديد من القادة العسكريين. يجدر التساؤل عن المكانـة الإداريـة أو العسـكريّة للمنطقة المتقدّمة في المجال الإفريقي والتي لعبت فيها تبسّة وسيكّا (الكـاف) دور مركز الحامية القرطاجيّة أو المعسكر. يحاول بوليبيوس تبرير انخراط الأهـالي وحماسهم في ثورة المرتزقة بإدارة حنّون المتشدّدة مشيرا إلى أنّ "الـولاة الذيـن يحضون بالتّقدير والتكريم أكثر من غيرهم هم أولئك الذين يمدّون قرطاج بـأوفر العائدات والمؤن لا أولئك الذين يعاملون رعاياهم بلين وإنسانيّة...".



المراكز الفينيقية - القرطاجية شمال إفريقيا و مدن الأهالي المتأثرة بالحضارة البونية

كما يذكر آبيانوس "البويتارك" كرتالون (Carthalon) القائد العسكري للمقاطعة البونيّة الذي اكتسح الأراضي التي سيطرت عليها نوميديا في عهد ماسينيسا وأخذ غنائم وحرّض اللّوبيين ضدّ النّوميديين".

إنّ المعلومات المذكورة التي تهمّ قادة أو ولاة المقاطعات الإفريقيّة تفترض وجود هيكلة إداريّة، لا نجد لها سندا في المصادر الأدبيّة باستثناء ما ذكره أرسطو بشأن "المواطنين القرطاجيين الذين يتولون وظائف ضريبيّة تجاه الرّعايا".

إلى أي مدى تمكننا النّقائش من مراجعة الإدارة الترابيّة القرطاجيّة ومعرفة مقاطعاتها؟

نعتمد في هذا الصّدد على أربعة نصوص وهي:

- النّقيشة البونيّة المعروفة باسم الملك النّوميدي مكبسا (Micipsa) والمؤرّخة بالسنة الحادية والعشرين من حكمه أي سنة 128-127 ق.م وقد عثر عليها بجبل المسوّج سنة 1940 على بعد 25 كيلومترا شمال مكثر. وهي بمثابة العلامة الحدوديّة ويذكر النّص "المسؤول عن منطقة تشقت" أي هضاب مكثر وهي المنطقة التي امتدّ فيها نفوذ نوميديا بعد أن فقدتها قرطاج حوالي سنة 152 ق.م حسب شهادة آبيانوس الذي قدمها كمقاطعة إداريّة بونيّة. وتدعمت مناقشة هذه المسألة بعد اكتشاف نقيشة لاتينيّة بالسّاحة العموميّة - فوروم - لمدينة مكثر (Mactaris) سنة 1963 وهي تذكر مقاطعة توسكا وقونزوزي (*Pagus Tuscae et Gunzuzi*) وهذه النّقيشة مؤرّخة بفترة حكم الأمبراطور ترايانوس (Trajanus) - (96-117م) وتحديدا سنة 113م وقد مكّنت من معاينة اسمي "تشقت" و"توسكا" (Tusca) في النّصين ومقاربة مدلول المقاطعة الترابيّة أو الإداريّة "أرس" (أرض - أراضي) في النقيشة البونية وباقوس (*pagus*) في النقيشة اللاتينية. ولهذا المصطلح مفهومان الأوّل يعني المجال الترابي للمستوطنات أو جزء منه وهو المحتوى الذي اتخذه في مختلف مناطق

الإمبراطورية الرومانية. أمّا المفهوم الثاني فينطبق على مقاطعة ترابية تضمّ العديد من المدن وهو ما انفردت به المقاطعة الافريقية وتحديدا المجال التابع لقرطاج البونية قبل سقوطها، مما دفع إلى اعتبار المقاطعات الترابية المذكورة في النقائش اللاتينية وريثة مقاطعات إدارية قرطاجية وهذا الاستنتاج محلّ إجماع على الأقلّ بالنسبة لمقاطعة مكثر أو توسكا التي قدّرت مساحتها بين 2500 و3500 كلم² وتضمّ حسب آبيانوس خمسين مدينة وهو تعداد للمدن والتّجمعات القرويّة. ويهمنا هذا التواصل في طبيعة المنطقة كمقاطعة إداريّة من المرحلة القرطاجية إلى المرحلة النوميديّة فالرّومانيّة. ويرجّح ج.ش.بيكار أنّ هيمنة قرطاج على المنطقة المذكورة تعود إلى أواسط القرن الرابع ق.م. بفضل حملات حنّون I الأكبر ضدّ الأفارقة.

بقيت منطقة توسكا تحت السيادة النوميديّة إلى حدود 46 ق.م حيث أنشأ يوليوس قيصر ولاية إفريقيا الجديدة (*Africa Nova*) التي امتدت على جزء هامّ من مملكة يوبا الأوّل (Juba Ier). وأدّى إدماج ولايتي إفريقيا القديمة (*Africa Vetus*) وإفريقيا الجديدة في إطار البروقنصلية (*Africa Proconsularis*) إلى الرّبط بين المنطقة التي اكتسبتها روما على حساب قرطاج سنة 146 ق.م والمجال المكتسب حديثا وهو ما يساعدنا على تفسير اتساع مقاطعة توسكا خلال الفترة الرّومانيّة لتضمّ مقاطعة تابعة لقرطاج إلى حدود سنة 146 ق.م وهي قونزوزي (*Gunzuzi*) وتقع شمال – شرق توسكا، وكان يفصلهما الرّسم الحدودي المعروف "بالخندق الملكي" (*Fossa Regia*). ويفترض ج.ش. بيكار أنها كانت تمتدّ على المنخفض الأوسط لوادي الكبير ومليان وسهل الفحص وتضمّ 14 مدينة. ويرجّح أيضا أنّها تمتدّ على منخفض الوادي الكبير. ويفترض أن تكون هذه المقاطعة قائمة الذّات قبل ضمها إلى توسكا بناء على محتوى النّقيشة الإهدائية التي عثر عليها بأوتيكا والمؤرّخة بسنة 60 ق.م وهي موجّهة لمراقب الضّرائب في ولاية إفريقيا نوماريوس روفوس (Numerius Rufus) من طرف الرّعايا الأفارقة لثلاث مقاطعات: مُوكْسي، قوزوزي

وزوقايي" (*Stipendiarii pagorum Muxi, Guzuzi, Zeugei*). تتفق مختلف الدّراسات في التّطابق المُمكن بين قونزوزي (*Gunzuzi*) المدمجة في مقاطعة توسكا وقوزوزي (*Guzuzi*) المذكورة في نقيشة أوتيكا كمقاطعة قائمة الذّات. وتدعّم هذه النّقيشة معرفتنا بمقاطعتين إداريتين وهما مقاطعة موكسي (Muxi) المذكورة في المقام الأوّل ومن المحتمل أن تكون الأقرب للموقع الذي أقيمت به النّقيشة أوتيكا، عاصمة المقاطعة الإفريقيّة الرّومانيّة آنذاك. وممّا يدعّم تحديد الإطار الجغرافي لهذه المقاطعة في ظهير أوتيكا وحوض مجردة الأسفل التّشابه الجلّي بين تسميتها (*Muxi*) وشعب الماكسيتاني (*Maxitani*) الذي يذكره يوستينوس في رواية تأسيس قرطاج والتي تفيد ضمنيا أنّه كان متحكما في الظهير القاري القريب من قرطاج. وتجدر الإشارة إلى أن اسم هذا الشعب يمكن أن يتّخذ مفهوما وامتدادا واسعين في حال مقاربته مع "مزياس" (Mazies) الذي يخفي تحريفا لاتينيا لاسم أمازيغ الاسم المتعارف عليه للأهالي.

أمّا مقاطعة زوقايي (*Zeugei*) فهي في تقدير أ. مرلان (A.Merlin) توافق المناطق القريبة من قرطاج التي تمتدّ بين وادي مليان ومجردة. وربّما تكون مطابقة – حسب جلبار بيكار – للمنطقة الزراعية لقرطاج التي يذكرها بوليبيوس بصيغة كُورا (*chôra*) أي المقاطعة القريبة من قرطاج دون أن ينقل اسمها البوني. وتمتد هذه المقاطعة على الأرجح على منطقة واسعة بين واديي مجردة ومليان. وقد تمّت مقاربة اسم هذه المقاطعة مع اسم زوجتانيا (Zeugitane) الذي أطلق على المقاطعة البروقنصلية بعد اصلاحات ديوقليسيانوس (285–305م) (Diocletien). (أنظر الخريطة رقم 2)

قدّم بوليبيوس بوزاكيس (Byzakis) البيزاكيوم (Byzacium) في المصادر اللاّتينيّة – بصفتها مقاطعة إداريّة وينقلنا بذلك إلى المنطقة التي توافق السّاحل التونسي ومركزها هدرمتوم (Hadrumetum). (أنظر الخريطة رقم 3) وتنسب المصادر الأدبيّة عملية التأسيس لصور أو للفينيقيين دون تخصيص وتطورت في نفس المنطقة المدن الساحليّة بدءا من تيمترا (Themetra) 15كلم

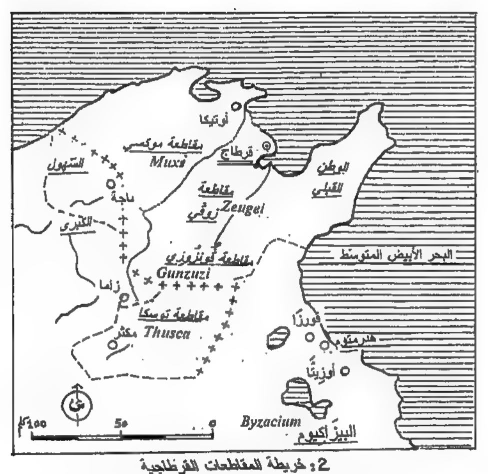
شمال غرب هدرمتوم إلى أكولا –الشابة– (Acholla) ومرورا بتابسوس –رأس الديماس (Thapsus) – ولمطة (Lepti Minus) أمّا العمق القاري فيمتـــدّا إلـــى تيزدروس –الجم– (Thysdrus) التي عثر بها على بقايا جنائزيّة بونيّة وسـميرات (Smirat) أبعد المواقع الداخليّة غربا. وتشترك أهمّ المصادر في التنصيص علـــى الهويّة اللّوبى – فينيقيّة لسكّان هذه المنطقة، ورغم ارتباطـــها بقرطـــاج اقتصاديـــا وسياسيّا فالأقرب للظنّ أنّها تتمتّع باستقلاليّة في الإدارة المحليّـــة. وقبـــل مناقشـــة الخصائص الحضاريّة للبيزاكيوم في الفترة البونية لابدّ لنا من التساؤل عن وحـــدة هذه المقاطعة بناء على النّقيشة اللاّتينيّة التي تدلّنا على مقاطعة قـــورزا (*Pagus* *Gurzensis* / Gurza) وتذكر معها مدينة أوزتّا (Uzitta) ومحتواها عبارة عـــن عقد رعاية لهما من جانب والي إفريقيـــا البروقنصليّـــة الرّومانيـــة لســـنة 12ق.م دوميسيوس أهنوباربوس (Domitius Ahenobarbus) وتوافق قـــورزا القلعـــة الكبرى أي شمال غرب هدرمتوم.

يبقى التساؤل حول تاريخيّة هذه المقاطعة فهل هي امتداد لوضع إداري لمـــا قبل 146 ق.م أم هي مترتبة عن تطورات الفترة الرّومانية.

استعرضنا مختلف المقاطعات الإدارية التـــي نصّـــت عليـــها النقـــائش أو المصـــادر الأدبيّة. ورغم افتقارنا لمعطيات ذات صبغـــة إداريـــة فإنّنـــا نلاحـــظ إجماعا حول اعتبار الوطن القبلي مقاطعة تابعة مباشرة للإدارة القرطاجيـــة وقـــد ذكرنا كمؤشر على ذلك الاستغلال المبكر لمقاطع الهوّاريـــة. وتـــبرز المصـــادر الأدبية الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للمنطقـــة التـــي امتـــدّت بـــها ملكيـــات القرطاجيين وسنعرض في الفصل المخصّص للاقتصاد القرطاجي التي أبـــرزت المكانة الزراعية لهذه المنطقة. (أنظر الخريطة رقم 4)

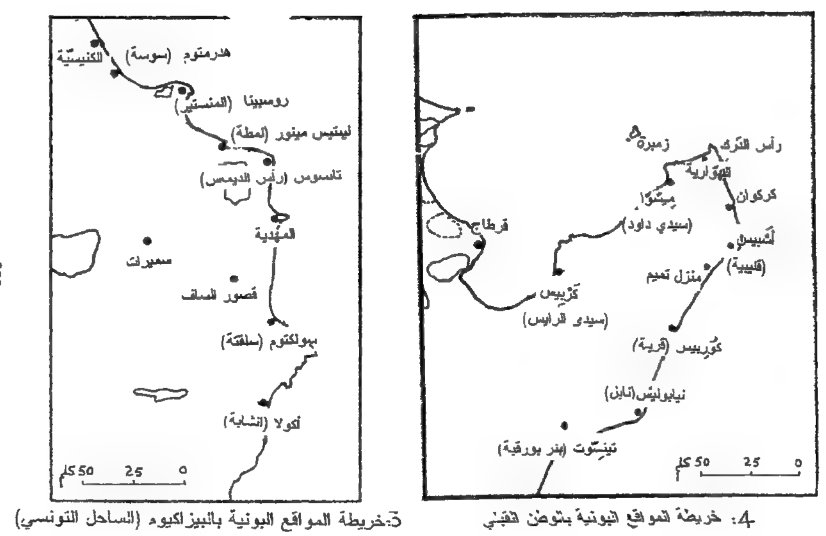
امتدّت سلطة نوميديا على منطقة السّهول الكبرى (*Magni Campi*) التـــي تمسح بلاد باجة (Vaga) والتي كـــانت بمثابـــة عاصمتـــها، وســـهول بوســـالم وبولاّريجيا (Bulla Regia) سنة 152 ق.م ويفترض ضمنيا أنّها كـــانت قـــاعدة مقاطعة إدارية على غرار توسكا – مكثر – . ولهذه المنطقـــة مكانـــة اقتصاديـــة

مؤكدة ودور الممون الرئيسي لقرطاج بالحبوب. وكانت إلى جانب المقاطعات الإداريّة البعيدة والتي يسود بها الأهالي من اللّوبيين والنّوميديين خاضعة لقرطاج في إطار علاقات ضريبيّة تختلف المصادر في تقديرها وتشير إلى أنّها تبلغ نصف المحصول زمن الحروب، وتلحّ على علاقات الهيمنة وإخضاع الأهالي فما هي سبل مناقشة هذه المسألة؟.



2 : خريطة المقاطعات القرطاجية

(المصدر : G.Ch.Picard, L'administration territoriale de Carthage.p1260)



4: خريطة المواقع البونية بالوطن القبلي

3: خريطة المواقع البونية بالبيزاكيوم (الساحل التونسي)

4 – قرطاج والأهالي : الوجه الآخر للعلاقات والتّفاعلات الحضاريّة

يطغى على النّصوص التاريخيّة إبراز انتفاضات الأهالي في صورة رفض الخضوع والعداء الدّائم لقرطاج. وتفترض هذه الشهادات وجود نخبة قادرة على تجميع الأهالي وتنظيمهم وتعبئتهم وتحديد أهداف تحركاتهم. لكننا أقرب إلى الظنّ أنّ هذه الانتفاضات لا تعبر عن تناقضات هيكليّة بل تحتدها الصعوبات الظرفيّة المختلفة التي تلمّ بقرطاج.

وقد مثّل الأهالي منذ التصدي لمحاولة دوريوس الإسبرطي تأسيس مستوطنة في المنطقة الطرابلسيّة في أواخر القرن السادس ق.م، إلى الحرب الثالثة طرفا ثابتا إلى جانب قرطاج سواء كرعايا خاضعين أو كحلفاء.

واقترنت حرب المرتزقة بأقصى درجات انحسار هذه العلاقة وألّف الأهالي في بدايتها جبهة موحّدة ضد قرطاج سرعان ما تصدّعت في مرحلتها الحاسمة بانضمام أحد قادتها نرافاس (Naravas) إلى قائد الجيش القرطاجي عبد ملقرط البرقي وهو حسب بوليبيوس "من أشهر القادة النّوميديين وكان دوما مواليا للقرطاجيين على غرار أبيه". تبدو هذه العلاقة أقرب لارتباط قادة الماسيل النوميديين الأوائل بقرطاج وتأثرهم بالحضارة البونيّة فجدّ مسنبسا، زلالسان (Zilalsan) مثلا قدّم – بناء على وظيفته الإدارية – باعتباره شفطا ممّا يعني تبني النوميديين للنموذج الإداري القرطاجي منذ منتصف القرن الثالث ق.م. على الأقل. ويبقى مؤشر استيعاب التنظيم الإداري واللّغة والدّيانة البونيّة أهمّ معالم التواصل بين الأهالي وقرطاج.

إنّ تجاوز المستوى العسكري لحضور الأفارقة في الحملات القرطاجية يدفعنا إلى التفكير في انفتاحهم على أنماط عيش وثقافات متنوّعة ومدى أهميّة آليات الغنائم في تبنّيهم لمظاهر حضارة ماديّة جديدة عند عودتهم إلى مواطنهم. وقد بيّنت القرائن الأثريّة عينات من الخزف الإغريقي – اللاّتيكي المؤرخ بأواسط القرن الخامس ق.م في "هنشير مدد" (Mididi)، وترقى بداية استيراد

الخزف ذو الطلاء الأسود والجرار البونية في شمتو إلى بداية القرن الرابع ق.م. وقد تدعّم خلال هذا القرن وجود الخزف المستورد في المواقع النوميديّة بمنطقة السّهول الكبرى.

تبقى قراءة المعطيات الأثرية – وخاصّة الأواني المستوردة سواء من قرطاج أو من مختلف مراكز الإنتاج في بلاد اليونان وإيطاليا محلّ مراجعة دائمة فالمبادلات التجارية خلال القرن الخامس أو الرابع ق.م. يمكن أن تفهم كظاهرة عادية، ولا تمثّل مبررا مقنعا للبت في هوية المواقع المدروسة وأصولها. أمّا الأثاث والتقاليد الجنائزية فهي سواء في المواقع الساحلية أو الداخلية تعكس التقاليد المحلية النوميدية اللوبية. ويؤكّد ق.كامبس على مفارقة ازدهار الحضارة البونية في سيرتا التي لم تكن أبدا تابعة لقرطاج تماما مثل وليلي (Volubilis) بالمملكة الماورية.

وقد درس ف.راكوب (F.Rakob) تطور هندسة المعالم الجنائزية التي عبّرت عن هذه الحقائق الاجتماعيّة والاقتصادية ابتداء من القرن الثالث ق.م. إذ تطوّرت التصوّرات الهندسيّة في شمتو من الدّلمان المفتوح المدخل والقائم على ثلاثة صفائح حجريّة تنصب عموديا وتغطّى بصفيحة رابعة، ويفتقر لأثاث جنائزي، إلى البازينة وهي قبر دائري مقبّى ومبني بالحجارة الكبيرة المصقولة ويتكوّن من رواق وغرفة الميّت ويستجيب هذا القبر لتصوّر هندسي مسبق. أمّا المعلم الجنائزي الثالث فهو القبر المدرّج، وهو مكعّب الشكل به فتحتان لإدخال الموتى فهو مدفن جماعي ذو طابع مَعْلَمي يؤكّد الانتقال النّوعي للهندسة الجنائزية في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م ويُعبّر الأثاث الجنائزي المؤلّف من خزف مقولب وخزف مستورد عن هذا الانتقال النّوعي.

إنّ حظوظ تشخيص نخب الأهالي ممكنة إذا احتكمنا لإجماع المصادر على ظهور الممالك النّوميديّة خلال القرن الرابع ق.م فقد حاول حنون الأكبر في منتصف القرن الرابع الانفراد بالحكم اعتمادا على ملك ماوري وتحالف آغاتوكلاس لمدّة محدودة مع إيليماس ملك اللّوبيين.

وظهرت الممالك النوميدية خلال القرن الثالث ق.م كطرف قائم الذات مع عمق ارتباطها بأوجه الحضارة البونيّة رغم هشاشة العلاقة السياسيّة مع قرطاج وهي هشاشة أفضت إلى التّحالف بين مسنّيسا والرّومان في أواخر الحرب الثّانية بين قرطاج وروما ولم يمنع ذلك وجود نزعة في قرطاج تنشد الوفاق مع النوميديين.

تعرّضنا عند تقديم مقاطعة البيزاكيوم للظّاهرة اللّوبية – الفينيقيّة بها فما هي دلالاتها وسبل مراجعتها؟

أبرزت المصادر اللّوبيين باعتبارهم سكان شمال إفريقيا الأصليين من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي ثم اتخذت هذه التسمية الإغريقية المبكرة مفهوما ضيقا ينطبق على الأهالي الخاضعين لسلطة قرطاج. ويمدّنا بوليبيوس وديودروس الصّقلي ثم تيتيوس ليويوس بتسمية مختلفة لسكّان البيزاكيوم وتتمثل في اللّوبي – فينيقيين (*Libyphoenices*).

وقد أُخضعت هذه التّسمية لتفسيرات مختلفة منها تلك التي يقترحها س.قزال وهي قراءة عرقيّة – ثقافيّة معتبرا أنّها تسمية تنسحب على فينيقيّ لوبيا الذين يسكنون المستوطنات المنشأة على السّاحل الإفريقي سواء كانوا من الفينيقيين الشرقيين أو أصيلي قرطاج. ويُضيف أنّ هذه التسمية تنطبق في مرحلة لاحقة على سكان المناطق الدّاخليّة من الأهالي الذين استوعبوا مظاهر الثقافة القرطاجية فهم لوبيّون أصبحوا فينيقيين، كما يفترض تأويلا قانونيا وإداريّا مفاده أنّ اللّوبي – فينيقيين هم أيضا مواطنو المدن الفينيقيّة والبونيّة التابعة لقرطاج والمتمتّعين بنفس الحقوق المدنية لمواطني العاصمة ولهم مؤسسات بلدية مشابهة لها.

وأعطى س.ف.بوندي (S.F.Bondi) بعدا جديدا لهذه القراءة مختصرا تأويل تسمية اللّوبي – فينيقيين في فئة الفينيقيين الذين يقطنون خارج مدينة قرطاج

أي الطبقة المهيمنة في المجال القرطاجي وهي العمود الفقري لنظام ضمن لقرطاج سلما داخليّة طويلة وثراء اقتصاديّا.

والملاحظ غياب هذه الدّلائل العرقية في المصادر باستثناء تيتيوس ليويوس الذي يرى في اللّوبيفينيقين "خليطا من الفينيقيين والأفارقة". فعند تعرّضه للقوات التي تركها حنّبعل تحت تصرّف شقيقه عزربعل في إسبانيا في بداية الحرب الثانية ضد روما يذكر عدد الجنود وجنسياتهم ومن ذلك كتائب الخيالة التي تضمّ "أربعة مائة وخمسين لوبي – فينيقيا وهم نتاج تهجين بين البونيين والأفارقة" ثمّ يذكر النوميديين والماوريين.

وتتمثّل أهمّ مراجعة لهذه المسألة – اعتمادا على المعطيات الأثريّة وبعض النّقائش – في دراسة الحبيب بن يونس للحضور البوني في منطقة السّاحل وأفضت إلى تبيّن قطب فينيقي منسجم في عناصره الثقافية وتقاليده الجنائزية وهو هدرمتوم. ولاحظ في بقيّة المواقع ثنائية وامتزاجا بين الثقافتين اللّوبيّة والفينيقيّة. وقد عبرت عن ذلك التّقاليد الجنائزيّة فدفن الميّت ممدودا على ظهره هو تقليد فينيقي – شرقي أمّا الطريقة اللّوبيّة فتعتمد دفن الميت على جنبه في وضع جنيني.

ومن عناصر التّقاليد الجنائزية: الترميد (L'incinération) وهو تقليد شرقي واستعمال طلاء المغرة الحمراء (L'ocre rouge) من طرف اللّوبيين – وتعتمد في طلاء عظام أو جماجم الأموات وأحيانا التّوابيت الخشبيّة وزخرفة المدافن الجُبْابيّة و"الحوانت". واستعمال هذا الطلاء نادر بقرطاج وواسع الانتشار بمقابر الساحل التونسي سواء كانت القبور ذات تصوّر هندسي بوني أو لوبي مثل "الحوانت" أو "الغرف" المنقورة في الصّخر. وبالرّغم من أهميّة عنصر الأهالي ضمن سكان البيزاكيوم وخاصّة في المناطق الدّاخلية تبنّى هؤلاء تقاليد فينيقيّة وبدت الثنائية الثقافية في حالة تفاعل دائم.

يدفعنا استقراء المصادر إلى التساؤل عن الإبعاد السياسية لظاهرة الإندماج الثقافي والحضاري المذكورة آنفا ؟

ولعلنا نجد إجابة – ولو جزئية – على هذا التساؤل في رواية تيتيوس ليويوس لإحداث شتاء 212 – 211 ق م على هامش الحرب الثانية بين قرطاج وروما وتحديدا سقوط مدينة سرقوصة بيد الرومان بعد أن دخلت منذ سنة 215 ق م في حلف مع قرطاج. وقد بقي أمل المقاومة قائما ورهين مبادرة القائدين حنون وإيبكوداس (Epicyde) القرطاجي ذي الأصول السرقوسية. لكن حنبعل أرسل أيضا إلى صقلية قائدا ثالثا وهو موتيناس (Muttines) ويقدمه المصدر المذكور كلوبي – فينيقي أصيل هيبوديارتوس (بنزرت) ويضيف أنه "رجل جرئ تعلم فن الحرب في مدرسة حنبعل". ولعل إسم هذا القائد المذكور أقرب إلى الإسم اللوبي الشائع متان (Mattan). بادر موتيناس بنجدة حلفاء قرطاج للإبقاء عليهم في الحلف، وشاع إسمه في وقت وجيز بمختلف أرجاء الجزيرة. وأصبحت المبادرة العسكرية بيده مما أثار القائدين القرطاجيين وخاصة حنون الذي أزعجته حظوة ومكانة موتيناس "هذا الإفريقي الذي يوجه الأوامر لجنرال معين من طرف مجلسي شيوخ و شعب قرطاج ؟ "ونشأت بذلك أزمة قيادة بين حنون وإيبكوداس من جهة وموتيناس من جهة ثانية أدت في نهاية المطاف إلى تمرد النوميديين تضامنا مع قائدهم مما يسر إنتصار الرومان وسيطرتهم النهائية على صقلية.

إننا لا نشك في وجوب الحذر من هذه الرواية التي توفر "تبريرا مقنعا" للإلتحاق موتيناس بصفوف الرومان. لكن يمكن أن نقتصر على المقابلة بين اللوبي – فينيقي من جهة والمواطن القرطاجي من جهة ثانية والتي تؤكد غياب آليات إدماج قانونية قائمة تحديدا على المواطنة الكاملة لنخب الأهالي الأفارقة. وهو ما يفسر تراجع نعت اللوبي فينيقي إلى الإفريقي من منظور حنون. وإجمالا فإن هذه الرواية تعيد إلى الأذهان صورة قرطاج التي أثرت ثقافيا وبلغت امتداد إمبراطورية لكن بقيت مؤسساتها أقرب إلى واقع المدينة – الدولة المركزية.

مصـــادر الفصـــل الســادس ومراجعـــه

المصادر

- APPIEN, *Libyca, 54, 68-69.*
- ARISTOTE, *Politique. VI, 5, 9.*
- DIODORE DE SICILE, *XIII, 88,2; XIV, 77, XV, 24, XX, 8; XX, 57, 4-6; XX, 79, 5.*
- JUSTIN, *XVIII, 7n2; XIX, 2-4, XX, 5, 13.*
- PLINE L'ANCIEN, *V, 22-23-24.*
- POLYBE, *I, 71,1*
- SALLUSTE, *la Guerre de Jugurtha, XIX, 1-2, LXXVIII, 1-4.*
- TITE LIVE, *XXI, 22,3.*

المراجع

- BEN YOUNES (H), *Présence punique au Sahel d'après les données littéraires et archéologiques,* Thèse IIIe Cycle Dacty. Tunis - Fac. des Lettres et des sciences Humaines, 1981.

-"La necropole punique d'El Hkayma, Mai, 1984", *in Revue des Etudes Pheniciennes Puniques et d'Anqutés Libyques. 2* (1986) pp. 31-172

- BONDI (S.F), "I. Libifenici nell' ordinamento Cartaginese", in, *Rendiconti dell' Accademia Nazionale dei Lincei, 8é Sér, 26* (1971) pp. 653-662.

- CAMPS (G), *Aux Origines de la Berbérie· Massinissa ou les débuts de l'histoire.* Alger, (1960).

"Les Numides et la civilisation punique", in *Antiquités Africaines*, (1979) pp. 43-53.

- DI VITA (A), "La date di fondazione di Leptis e di Sabratha sulla base dell'indagine archeologica. e l'eparchia cartaginese d'Africa", *in, Hommages à M.Renard III (coll. Latomus 103)*, 1969, pp.196-202.

- FOUCHER (L), *Hadrumetum.* Paris, 1964

- FEVRIER (J.G), "La borne de Micipsa", in, *Cahiers de Byrsa VII* (1957) pp. 119-121

- GASCOU (J), "Les pagi Carthaginois", in *Villes et campagnes dans l'Empire romain,* Aix-en-provence (1980) pp. 139-175.

- GHAKI (M), *Recherches sur les rapports entre les phénico-puniques et les Libyco-numides (V-Is.avant J.C)* Thèse de 3ème cycle. Paris I - Sorbonne Panthéon, 1985.

- GSELL (St.), *H.A A N T II (Chap II. p 93-181),* 1972.

- KRANDEL – BEN YOUNES (A), La présence punique en pays Numide (Thèse 3ème cycle) Faculté des lettres et Sciences Humaines. Tunis 1984.

- Les pratiques funéraires, in, les ancêtres des Berbères. (Texte français-arabe) Tunis, INP, 1994, pp. 28-34.

- LANCEL (S), *Carthage*. Paris, 1992.

- PICARD (G) - Ch., MAHJOUBI (A), BECHAOUCH (A), "Pagus Tuscae et Gunzuzi", in *CRAI*, (1963), pp. 124-130.

- PICARD (G) - Ch, "L'administration territoriale de Carthage", in, *Mélanges A. Piganiol*, Paris, (1966), pp. 1257-1265.

- "Le pagus dans l'Afrique romaine", in, *Karthago, XV* (1969) p. 1-12.

- RAKOB (F), "Architecture royale numide", in, *Architecture et société de l'archaïsme grec à la fin de la République romaine*, (1981), pp. 325-335.

- REBUFFAT (R), "Où étaient les Emporia?", in *Semitica* 39 (1990)

- SZNYCER (M), "Permanence de l'organisation administrative des territoires africains aux époques punique et romaine d'après les *témoignages épigraphiques*", in, *Des Sumériens aux Romains d'Orient: La perception géographique du monde. Espaces et Territoires au Proche - Orient ancien*: Paris, (1997) pp 119-132.

VUILLEMOT (G), *Reconnaissances aux échelles puniques d'Oranie (Fouilles aux Andalouses)*. Paris, 1965.

الفصل السابع

الاقتصاد والمجتمع

1 – التجارة القرطاجية

تعوّدت المصادر والمراجع على حدّ السواء تقديم اقتصاد قرطاج على أنّه اقتصاد تجاري بالأساس. ويبدو أن التجارة كانت سبب ثراء العاصمة البونية وللتدليل على ذلك يكفي التذكير بما ورد على لسان المؤرخ اليوناني بوليبيوس الذي يشير إلى أن قرطاج أصبحت أغنى مدن العالم بفضل تجارتها لذلك لا نستبعد أن يكون التجار البونيون قد ارتادوا جلّ موانئ البحر الأبيض المتوسط وتاجروا بكل المواد المتبادلة في تلك الفترة محقّقين بذلك الربط بين حوضي هذا الفضاء البحري الذي شهد أيضا دون شكّ حضورا للتجّار الاغريق والأترسكيين. ولكن القرطاجيين احتلّوا على ما نرجّح مكانة متميزة منذ القرن السادس على الأقل.

على غير ما يتوقّعه الدّارس لم يثر هذا النشاط على أهميته اهتمام المصادر الأدبية. لذلك تظل معرفتنا بجوانب عديدة من تاريخ المبادلات القرطاجية محدودة. من ذلك مثلا مسألة تحديد الخطوط التجارية بدقة والبضائع المتبادلة وتنظيم التجارة البونية. وأمام صمت الوثائق الأدبية يلجأ الدّارس إلى استقراء المصادر الأثرية بالرغم ممّا يطرحه استعمال هذه النوعية من الوثائق من صعوبات كنّا أشرنا إليها (انظر الفصل الأوّل من هذه الدراسة).

المبادلات التجارية القرطاجية مع صقلية وسردينيا

أ – مع صقليـة

لعبت الجزيرة دورا مهمّا في المبادلات التجارية البونية بصورة عامة. ويقيم تواتر التدخلات العسكرية القرطاجية بالجزيرة الدليل على وجاهة هذا الحكم

وهي تدخلات سعت على امتداد قرون للمحافظة على الوجود السامي في هذه المنطقة مع ما يعنيه ذلك من محافظة على مصالح قرطاج الاقتصادية وتستمد جزيرة صقلية أهميتها في الواقع من مجموعة عوامل نعرض لها بإيجاز.

- الموقع الممتاز: تتوسّط صقلية حوض البحر الأبيض المتوسّط وتوجد بالتالي على مسافة وسطى بين شرق وغرب المتوسط وهو ما أهّلها للتّحكم في خطوط المبادلات التجارية التي تخترق هذا البحر. من جهة أخرى لا تفصلها عن شمال افريقيا سوى مسافة صغيرة لا تتعدّى 140كلم وهو ما جعل منها موقعا متقدّما في اتجاه سردنيا وإيطاليا.

- اكتسى الحضور البوني في صقلية طابعا متميزا ينبع من هذا التعايش بين العنصرين الإغريقي والسّامي وتفصل بين دائرتي نفوذ الطرفين حدود غير ثابتة لم تمنع إقامة مبادلات بين المنطقتين بالرغم من فترات الحرب التي عرفتها الجزيرة.

- يتمثل العامل الثالث الذي سنعرض له لاحقا بأكثر إسهاب في السياسة المتّبعة من قبل الإدارة القرطاجية التي لم تسع إلى إخضاع الجزء الغربي الواقع تحت نفوذها لسيطرة مطلقة على نقيض سردينيا مثلا وهو ما جعل من الجزيرة فضاء مفتوحا أمام التجّار الأترسكيين والإغريق والرومان. ويبدو أن التجار الأجانب كانوا يتمتّعون بنفس حقوق التّجار القرطاجيين. ويكفي أن نذكّر في هذا السياق بما ورد في بنود المعاهدة الأولى المبرمة بين روما وقرطاج في أواخر القرن السادس على ما نرجّح.

بالتأمل في ما ورد لدى ديودروس الصقلي نميل إلى الاعتقاد أن المبادلات بين صقلية وقرطاج اعتمدت بالدرجة الأولى على تبادل المواد الغذائية والنسيج إذ يشير مصدرنا إلى أن سبب الثراء الذي بلغته مدينة سيلينونت (Sé linonte) (الواقعة على مسافة قريبة من دائرة النفوذ القرطاجية) يرتبط بتجارتها مع قرطاج. ويبدو أن تجارا أجانب كانوا يقيمون داخل المدينة المذكورة ومن بينهم

تجار قرطاجيون تمتّعوا على ما نرجّح بامتيازات كبيرة جدّا يمكن تفسيرها بالضغوطات التي مارستها قرطاج على قادة المدينة وكذلك بالكره الذي كان يكنّه هؤلاء لكل من مدينتي جيلا (Géla) وأقريجنت (Agrigente) المنافستين. وباعتماد نفس المصدر يبدو أن تصدير الخمور وزيت الزيتون نحو العاصمة البونية كان أيضا وراء ثراء مدينة اقريجنت حتى القرن الخامس على الأقلّ، تاريخ قيام قرطاج بسلسلة من التوسعات على حساب الأراضي الإفريقية.

لم تقتصر مبادلات قرطاج على غرب الجزيرة بل مسّت دون شك أيضا شرقها إذ تشير المصادر إلى تجار بونيين قطنوا مدينة سرقوسة لذلك لا نستبعد أن يكون جزء من الفخار الكورنثي قد بلغ أرض العاصمة البونية عبر هذه المدينة وللتذكير نشير إلى أن سرقوسة هي مدينة أسّسها الكورنثيون سنة 733 ق.م.

بالعودة الآن إلى المصادر الأثرية نلاحظ أن الفخار ذي الطلاء الأسود (La céramique à vernis noir) القادم من صقلية يبدأ في الظهور منذ أواسط القرن الرابع قبل الميلاد وكما بيّن الباحث ف.شلبي، يعسر على غير المختص في البداية التمييز بين الأواني المصنوعة في منطقة الأتيكا (L'Attique) والأواني المقلّدة المصنوعة في صقليّة والتي نجدها في القبور القرطاجية التي ترقى إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. ويبدو أن استيرادها قد بلغ أوج ذروته حوالي سنة 300 ق.م وتواصل بعد ذلك على امتداد الثلث الأوّل من القرن الثالث حتى تاريخ اندلاع الحرب البونية – الرومانية الأولى.

ب – مع سردينيا

لعبت الجزيرة دون شكّ دورا بارزا في دورة المبادلات المتوسطة. ولئن كان هذا الحكم العام يحظى بإجماع المهمتين بتاريخ النشاط التجاري الفينيقي والقرطاجي فإنّه يظل على الرغم من ذلك بحاجة إلى تسليط مزيد الأضواء عليه حتّى نفهم خصوصيات هذا الدور والتي ترتبط بدورها بموقع الجزيرة من جهة

وبما أملته الاستراتيجية الاقتصادية القرطاجية من إجراءات حيال سردينيا بالذات من جهة ثانية ونجد صدى لها في الإشارة الواردة لدى ارسطو المنحول (Le Pseudo - Aristote) وفي بنود المعاهدات المبرمة بين القرطاجيين والرومان والتي نعود إليها وبإسهاب لاحقا في سياق تحليلنا هذا.

كنّا أشرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب إلى جذور الحضور الفينيقي في سردينيا واستعرضنا في هذا الإطار مجموعة الدلائل التي تدعونا للإعتقاد بأنّ التوسّع الفينيقي بها يرقى إلى تاريخ متقدّم (نقيشة نورا). فعلى مستوى المبادلات، مثلت الجزيرة منذ البداية حلقة رئيسية في دورة المبادلات المتوسطية التي كان للفينيقيين فيها دور مركزي. وتعود أقدم اللقى الفخارية الإغريقية إلى أواخر القرن الثامن وقد عثر عليها في توفات سلكيس (Sulcis) ويتعلق الأمر بآنية صنعت على ما يبدو بإحدى ورشات بيتكزا (Pithécusses). ويجدر التذكير في هذا الإطار أن الحفريات الأخيرة أثبتت وجود مجموعة من العائلات الفينيقية استقرت في هذا الجزر قد تكون تولت عملية ترويج هذا الفخار. من جهة أخرى تقيم الحفريات الدليل على ان الفخار البروتوكورنثي (Protocorinthien) لم يبلغ سردينيا الا بصورة محدودة جدا وذلك على نقيض جزيرة صقلية المجاورة (خاصة موقع ميغارا). في المقابل قدّمت كلّ المواقع الفينيقية الموجودة بسردينيا شواهد فخارية من الانتاج الكورنثي والأيوني واللاكوني بالتّوازي مع الفخار الأترسكي (Bucchero étrusque)، يمكن في هذا الباب مراجعة الرسوم المصاحبه لعمل M. Gras, trafics tyrrhéniens archaïques وبالتحديد (ص. 166 و167) ونشير على سبيل المثال فقط إلى مواقع تارّوس (Tharros) وبيتيا (Bithia) وكراليس (Cagliari). وقد لعبت مدينتا فولتشي (Vulci) وشرفيتيري (Cerveteri) بالخصوص دورا بارزا في هذه المبادلات مع أسبقية زمنية لهذه الأخيرة التي يبرز دورها بأكثر وضوحا من خلال المبادلات مع بيتيا خاصة.

ومرّة أخرى تطرح على الدارس قضية تحديد هويّة المتحكمين في هذه المبادلات: هل كانوا من الأترسكيين أم من الإغريق المستقرّين بأترورريا أم من الفينيقيين؟

لا نستبعد أن يكون هؤلاء من الفينيقيين خاصة إذا ما راعينا مجموعة الاعتبارات التالية:

– بلغت المنتوجات الإغريقية والأترسكية كلّ المناطق الواقعة تحت سيطرة الفينيقيين أو الواقعة تحت دائرة تأثيرهم، وهو ما يحيلنا للقول بأن الحرفاء هم بالأساس إمّا من الفينيقيين أو المتأثرين بهم. لذلك من المرجّح أن تراعى المبادلات أذواق هؤلاء الحرفاء وطبيعي أن يكون الفينيقيون أكثر العناصر قدرة على مراعاة هذا الجانب.

– الحضور الأكثر انتظاما للفخار الاترسكي والضعف النسبي للواردات الإغريقية (مقارنة بصقلية مثلا) دفعا بالباحثين إلى ترجيح فكرة غياب مبادلات مباشرة بين بلاد الإغريق الشرقية وسردينيا. لذلك يبدو أن الأمر يتعلق بعملية إعادة توزيع انطلاقا من اترورريا وهو ما يجعلنا في الآن نفسه نميل إلى فكرة إقصاء العنصر اليوناني وبالتأمل في بدايات خضوع الجزيرة إلى السيطرة القرطاجية يمكن لنا القول أن العاصمة البونية سعت إلى تدعيم حضورها بسردينيا انطلاقا من المواقع الفينيقية الموروثة عن الفينيقيين والمتواجدة على الساحل الجنوبي الغربي ليمتد بعد ذلك إلى داخل الجزيرة لذلك بلغ المستعمرون والتجار القرطاجيون أتوكّا (Othoca) وآزلوس (Usellus) ومونتي سيراي (Monte Sirai) وغيرها من المواقع. وقد لعبت المدن الساحلية دور نقاط ربط على طول الخطوط البحرية أما المدن الداخلية فيبدو أن الحضور البوني بها جاء استجابة لمجموعة من الهواجس لعلّ أبرزها سعي القرطاجيين إلى إبعاد منافسيهم عن هذه المنطقة الحيوية (خاصة الإغريق) بالإضافة إلى حماية المدن الساحلية واستغلال الموارد الفلاحية والمنجمية المتوفرة. وما دمنا بصدد الحديث عن أبعاد سياسة قرطاج الاقتصادية بالجزيرة نرى لزاما علينا الوقوف مطولا عند هذه

المعلومة الواردة لدى أرسطو المنحول والتي تشير إلى أن القرطاجيين، بعد استيلائهم على الجزيرة، قاموا بقطع كلّ الأشجار المثمرة ومنعوا السكان المحليين من إعادة غراستها وهو ما يطرح علينا آليا السؤال التالي: لماذا سعت قرطاج إلى تغيير المشهد الزراعي في سردينيا والذي شهد نموا ملحوظا لغراسة أشجار الزيتون والعنب في المناطق الخصبة المحيطة بأبرز المواقع الفينيقية كسلكيس وكراليس؟

ساد الاعتقاد طويلا بعد س.قزال (S.Gsell) أن إجراء القرطاجيين مردّه سعي العاصمة البونية للقضاء على منافسة الجزيرة لإنتاج الزيوت والخمور القرطاجية. ولكن السنوات العشر الأخيرة طُبعت بالنسبة لهذه القضية بالذات بنوع من النزوع لرفض هذا الرأي وتفنيده. ويعتبر م.قرا (M.Gras) أفضل من يمثل هذا التيّار الثاني إذ يرى أن القبول بتفسير س.قزال يقودنا حتما للقبول في الآن نفسه بعكرة أن يكون إنتاج قرطاج (من هذه المواد) قد عرف نموا ملحوظا إلى درجة استوجبت التصدير وفي ذات الوقت أن يكون هذا الانتاج قد بلغ في سردينيا قبل ضمّها من قبل قرطاج مستوى عال من المردودية. والحال أننا نلاحظ العكس باعتبار أننا نميل إلى الاعتقاد أن الجزيرة كانت خلال النصف الأوّل من القرن السادس تستورد الخمور من اتروريا والأمر واضح خاصة بالنسبة لمدينة تارّوس. ولا يستبعد أن تكون الوضعية هي نفسها بالنسبة للمستوطنات الفينيقية الواقعة في جنوب الجزيرة.

انطلاقا من هذه الملاحظات يقترح م.قرا تنزيل إجراء قرطاج في إطار سعيها لتحقيق نوع من اقتسام المهام أو الأدوار بين جزيرتي سردينيا وصقلية. ولابد من التذكير بأن العاصمة البونية كانت تستورد الخمور من هذه الأخيرة كما بيّنّا ذلك في ما تقدّم من هذا الفصل ويستدلّ نفس الباحث لدعم رأيه بوفرة الجرار الفينيقية المعدّة لنقل الخمور في موقع موتيي بأقصى غرب صقليّة.

يبدو أن قرطاج وفّقت في ان تجعل من سردينيا منطقة ثرية تنتج كميات هامة من الحبوب. وتشدّد مختلف المصادر على خصوبة الجزيرة ودورها لا فقط على امتداد الفترة الفينيقية – البونية بل وكذلك على امتداد الفترات اللاحقة إلى درجة جعلت أ.موميليانو (A.Momigliano) يعتبر فكرة "خصوبة سردينيا" التي أصبحت ملازمة لكل الكتابات "تصورا إتنوغرافيا (Schéma éthnographique). ونجد صدى واضحا لنفس هذه الفكرة على النقود المكتشفة بالجزيرة والتي تنتمي لما يسمّى بالسلسلة قبل الأخيرة ضمن السلسلات التي تمّ سكّها في سردينيا وتؤرّخ عادة بالفترة القصيرة الممتدة بين 241 و238 ق.م ويتعلّق الأمر بقطع تحمل على إحدى الواجهتين صورة ثلاث سنابل وهي رمز للخصوبة وقد بين ل.الرحموني أن هذا المحور الفني يرتبط بجزيرة سردينيا بالذات دون غيرها.

ومهما يكن من أمر استخدمت قرطاج إنتاج سردينيا من الحبوب لخدمة مصالحها ولنا أن نستدلّ على ذلك ببعض الإشارات الواردة في مصادرنا الأدبية وإن كانت تعود إلى فترات متأخرة نسبيا وهي تذكر لجوء القرطاجيين إلى إنتاج سردينيا في ثلاث مناسبات على الأقل سنة 480 ق.م عندما أرسل عبد ملقرت قائد الحملة القرطاجية على صقلية جزءا من سفنه حتى تتزود بالحبوب من الجزيرة، ثم سنة 396 ق.م إبّان الحصار الذي كان يضربه الجيش القرطاجي بقيادة خيملك على مدينة سرقوسة وأخيرا إبان حكم أغاتوكلاس دون أن تكون لنا القدرة على الجزم إن كان الأمر يتعلّق بمبادلات منتظمة أم أن القرطاجيين كانوا يعمدون إلى عمليات مصادرة فقط عند مرورهم بفترات عصيبة.

كان إجراء المنع الذي عرضنا له موجّها أصلا ضد السكان الأصليين ذلك أنه من المستبعد أن تعمل قرطاج على القضاء على مصالح المعمّرين الساميين الموجودين في سردينيا. وبالتالي نميل إلى الاعتقاد مع م.قرا أن العاصمة البونية أرادت أن تخصّ بهذه النوعية من الإنتاج (الأشجار المثمرة) مستعمراتها الجديدة وهكذا يكتسي الإجراء المتخذ بعدين أساسين آخرين.

* بُعدٌ اجتماعي : يتجلّى من خلال ترجيحنا أن يكون إجــراء المنــع قــد رافقه تنصيب شريحة مترفة يطلق عليها الباحث الفرنسي تسمية "أرســتقراطية – تجارية" كانت بحاجة لمدا خيل عقارية. وللتذكير نشير إلى أن غراســة الأشــجار المثمرة هي أكثر الأنشطة مردودية بالنسبة لمن كان لا يمتلــك مســاحات ممتــدّة وبالتوازي مع ما ذكرنا يسمح إجراء المنع لقرطاج بتحقيق هدف آخر يتمثل فــي إعاقة السكان عن تحقيق ثروات توفر بدورها حالة من الاستقرار باعتماد غراســة الكروم خاصة وتساعد في نهاية التحليل على بروز مجموعة من الأرســتقراطيين المحليين. لذلك نخلص للقول أن مصالح قرطاج الاقتصادية والعسكرية قد أملــت عليها إنشاء منظومة تعتمد مبدأ الملكيات العقارية الشاسعة التي تســهل مراقبتــها وقد اعتمد الرومان لاحقا نفس التصور في تعاملهم مع جزيرة سردينيا.

* بُعدٌ اقتصادي: عملت قرطاج على إنشاء مراقبة تامــة علــى اقتصــاد الجزيرة وكنّا أشرنا في ما سبق إلى احتكار العاصمة البونية للتجارة مع ســردينيا كما تدلّ على ذلك المعاهدة الأولى المبرمة بينها وبين روما وقــد نصّــت علــى وجوب حضور ممثّل عن الإدارة القرطاجية عند إبرام الصفقات التجارية. غــير أننا نعتقد أن لا سبيل لفهم البعد الاقتصادي في سياسة قرطاج تجاه سردينيا ما لــم نلمّ بالظرفية الاقتصادية على مستوى البحر الأبيض المتوسط عامة والتي تمــيّزت مع أواخر القرن السادس قبل الميلاد ببلوغ الإنتاج الأتيكي من الخــزف ذروتــه. ويبدو ذلك جليّا من خلال عدد اللقى المكتشفة في كــلّ مــن أتروريــا ومسّــاليا (Massalia – مدينة مرسيليا اليوم) وقد اعتمدت المبــادلات مواد كثــيرة أهمــها الزيت والفخّار الرفيع غير أن سردينيا ظلّت على هامش دورة المبــادلات إذ لــم تمسسها الصادرات الأتيكية على ما يرجّح بصورة مباشرة ومــن هنــا نفــهم ان قرطاج عملت على إدماج الجزيرة داخل دورة المبادلات الاتيكية كما سعت فــي الآن نفسه إلى مواصلة المبادلات الاترورية – القرطاجية وكان تبــادل الخمــور أحد أهم المواد التى تتم المتاجرة بها.

باعتماد المصادر الأثرية نرجّح أن المبادلات مع سردينيا قد مكّنت بعــض المواقع القرطاجية في صقلية المجاورة من لعب دور الوسيط كما توحــي بذلــك عديد اللقى الفخارية (Les terres cuites) التي اكتشــفت فــي موقــع تــارّوس

(Tharros) وكذلك المباخر التي تتخذ شكل رؤوس نساء تتميز بوقوعها تحت تأثير الفن الإغريقي وهو إنتاج بلغ على ما نرجّح سردينيا عبر صقلية. وللتذكير نشير إلى أن هذه النوعية من اللقى عثر عليها بالخصوص في مدينة سيلينونت (Sélinonte) الواقعة على مقربة من دائرة النفوذ القرطاجي. وإجمالا لاحظ علماء الآثار تشابها واضحا بين اللقى الفخارية التي كشف عنها في كلّ من سردينيا وصقلية ومنطقة الوطن القبلي (كركوان) وهي ملاحظة تفودنا للقبول بأهمية الترابط بين مختلف هذه المناطق وبالتّالي تدعم ما ذكرناه في بداية هذا الفصل حول أهمية الجزيرتين بالنسبة للتجارة القرطاجية.

المبادلات القرطاجية مع بلاد الإغريق الشرقية

يعد الفخار الكورنثي والفخار الاتيكي أوسع أنواع الفخار الإغريقي الشرقي حضورا في المتوسط عامة. وقد ربطت العاصمة البونية علاقات تجارية وطيدة مع المدينتين المنتجتين لهذين الصنفين من الفخّار.

بالنسبة إلى الفخار الكورنثي يمكن التذكير بأنه يصنّف عادة إلى ثلاثة أصناف كبرى:

– البروتوكورنثي (Protocorinthien) الذي يبدأ في الظهور مع أواسط القرن الثامن ليتواصل حتى الربع الثالث من القرن السابع.

– فترة التحول وهي فترة نقلة تربط بين المرحلة السابقة والتي أشرنا إليها والمرحلة الموالية والتي نسمي عادة مرحلة الفخار الكورنثي.

– الكورنثي (Le corinthien) والذي يقسّم بدوره إلى ثلاثة أصناف الكورنثي العتيق (Ancien)، الكورنثي الأوسط (Moyen) والكورنثي الحديث (Récent).

وقد كشفت الحفريات عن حضور هذا الفخار بمختلف أصنافه على أرض العاصمة البونية مع كثافة واضحة للنوعية الأخيرة أي الفخار الكورنثي والتي تحملنا إلى منتصف القرن السادس.

بالنسبة إلى الفخار الأتيكي (انظر وثيقة: **نماذج من الفخّار الآتيكي ذي الطلاء الأسود الأكثر تداولا في قرطاج خلال القرن الرابع ق.م.**) كشفت الحفريات بدورها عن كميات هامة منه لا فقط في قرطاج (حضور مكثف يتواصل حتى الحرب البونية الأولى) بل وكذلك أيضا في كلّ من:

* صقلية وذلك بجزئيها الشرقي والغربي – موتيي (Motyé) وليليبي (Lilybée) وسجستا (Ségeste) وبالرمو (Palerme) وصولنت (Solonte). وترقى أغلبية اللقى إلى ما قبل القرن الثالث قبل الميلاد، لكن لابدّ من الإشارة إلى أن بعض مواقع الجزيرة عمدت إلى تقليد الإنتاج الأتيكي ونذكر منها مثلا بنورموس.

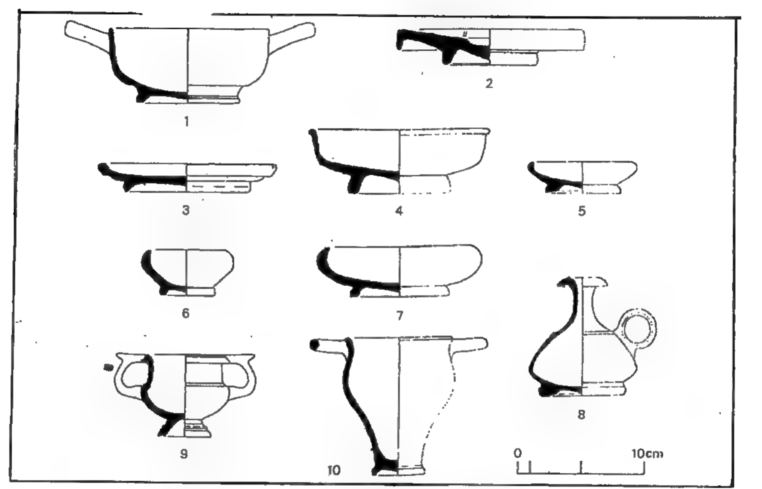
* جزيرة سردينيا (كميات هامة جدّا خاصة خلال القرنين الرابع والثالث)

* سواحل افريقيا الموجودة غرب سرت الكبرى

* إسبانيا المتوسطية جنوب نهر الإبروس (L'Ebre)

* جزر البالبار (Les îles Baléares) وخاصة إيبيزا (Ibiza).

يظل تحديد مسار هذا الخط التجاري أمرا غير هيّن. ويمكن أن نسحب نفس الملاحظة على مسألة المتحكمين في هذا الخط غير أن فشلبي يرجح باعتماد جملة من المعطيات أن يكون القرطاجيون هم الذين تولّوا السيطرة على هذه المبادلات أو أن يكونوا قد استأثروا على الأقل بنصيب مهمّ منها على حدّ تعبير ج.ب.مورال (J.P.Morel) من ذلك مثلا ما تمت ملاحظته من كثافة لهذه النوعية من اللقى على مستوى غرب صقلّية وهو الجزء الخاضع لقرطاج. ويضاف إلى ذلك ما أشرنا إليه آنفا من نجاح بنورموس بالخصوص في تقليد الفخار الاتيكي. أخيرا يذكّر نفس الباحث بما ورد على لسان سيلاكس المنحول الذي يعطي دعما لا يستهان به لهذه الفكرة إذ يشير إلى دور الوسيط الذي كان يلعبه تجار "فينيقيون" في ترويج الفخار الاتيكي حتى سرني (Cerné).



نماذج من الفخار الاتيكي ذي الطلاء الأسود الأكثر تداولا في قرطاج

خلال القرن الرابع قبل الميلاد

المصدر MOREL (J.P.), in, Actes du IIIème Congrès des Etudes Phéniciennes et Puniques. Tunis,(1995)p.272.

المبادلات القرطاجية مع مصر

لا تتعرض المصادر الأدبية البتّة إلى المبادلات بين قرطاج ومصر لذلك تعتمد المعلومات التي سنوردها على ما تقدّمه التنقيبات الأثرية من نتائج.

لاحظ ج.فركوتار (J.Vercoutter) غزارة اللقى المصرية أو المتأثرة بالفن المصري داخل الأثاث الجنائزي القرطاجي. ويتعلّق الأمر غالبا بلقى ذات أحجام صغيرة نذكر من بينها الجعلان والتمائم... من هنا سعى هذا الباحث للإجابة عن سؤال هام أوّل وهو كيف بلغ هذا الإنتاج أرض العاصمة البونية؟ مستعرضا للغرض كلّ الاحتمالات الممكنة وهي على التوالي: خط يمرّ عبر منطقة أتروريا (L'Etrurie)، خط برّي إفريقي، خط بحري إفريقي وأخيرا خط يمرّ عبر جزيرة صقلية.

استطاع ج.فركوتار إبراز الصعوبات التي تقف حائلة أمام إمكانية القبول بفرضية الخطين الإفريقيين (برّا وبحرا) مقصيا في الآن نفسه إمكانية العبور عبر منطقة اتروريا وهو ما ترك أمامه خيارا وحيدا يتمثل في هذا الخط الذي كان يمرّ بحرا عبر أقصى غرب جزيرة كريت (La Crète) ليبلغ بعد ذلك جزيرة صقلية ومنها قرطاج وهو خط تعوّد التجار الفينيقيون اتباعه. لذلك لم يستبعد هذا الباحث إمكانية أن يكون التجار القرطاجيون قد قاموا بالنسج على منوال هؤلاء متبعين في ذلك نفس العادات البحرية.

من جهة ثانية وفي محاولة تحديد هويّة المتحكّمين في هذه المبادلات دافع ج.فركوتار عن فكرة أن يكون هؤلاء من الإغريق.

لئن أثبتت الحفريات الأخيرة صحة الرؤية التي قدّمها هذا الباحث بالنسبة إلى الخط التجاري فإن الأبحاث تميل أكثر فأكثر إلى تفنيد ما ذهب إليه بالنسبة لهوية أصحاب هذه التجارة. ذلك أن ما وقع العثور عليه من وثائق أثرية في موتيي تثبت بطريقة جليّة ضعف التأثيرات الإغريقية على نقيض التأثيرات المصرية. ومن المفيد في هذا الإطار التذكير بالنصب المكتشفة في توفات هذا

الموقع وما تحمله من نحوت هي أكثر ارتباطا بالفن المصري وهو ما حمل س.موسكاتي (S.Moscati) مثلا على القول أن هذه التجارة كانت بيد القرطاجيين.

أخيرا يبدو أن المبادلات القرطاجية – المصرية التي كانت تمرّ عبر صقلية قد مست في الآن نفسه جزيرة سردينيا كما توحي بذلك التأثيرات الفنية المصرية الملحوظة على أنصاب سلكيس وعلى مذابح (Autels) تاروس.

المبادلات القرطاجية – الاترسكية

ربطت قرطاج علاقات تجارية مباشرة مع الأترسكيين (Les Etrusques) منذ القرن السابع قبل الميلاد كما تدل على ذلك اللقى الفخارية المعروفة باسم "البوكيرو الرفيع" (Bucchero fin).

وقد لفت ج.ب.مورال الانتباه إلى أن أواني الشراب لا تمثل سوى نسبة ضعيفة من هذا الخزف (أقل من 20%) مقارنة بمنطقة جاليا (La Gaule) حيث تصل هذه النسبة إلى 96 % وقد قادته هذه الملاحظة إلى القول بأن البونيين كانوا لا يستوردون الخمور الاترسكية على نقيض الزيوت المعطّرة التي يبدو أنها لم تكن تلاقي رواجا لدى سكان جاليّا.

حاول م.بالوتينو (M.Pallotino) من جهته تأريخ هذه المبادلات مستنتجا وجود مجموعة من المراحل أبرزها:

– من نهاية القرن السابع إلى منتصف القرن السادس استطاعت المراكز الأترسكية خلال هذه الفترة منافسة المراكز الفينيقية والإغريقية تجاريا. وللتدليل على رأيه يذكّر الباحث الإيطالي باتّساع مقبرة كايري (Caere) وكذلك بالعدد الوافر من النقائش المكتشفة في نفس المدينة. وقد تميزت المرحلة الأولى بانتشار واسع للفخار الاترسكي في صقلية وقرطاج وباقي المدن الفينيقية. وللتوضيح لابد من الإشارة إلى أن قرطاج لم تقم حتى هذا التاريخ بتزعم المدن الفينيقية في

غرب البحر الأبيض المتوسط لذلك يعتبر م.بالوتينو (M. Pallotino) أن حملات مالكوس (Malchus) على جزر صقلية وسردينيا تمثل فاتحة فترة جديدة.

– تمتد الفترة الثانية من أواسط القرن السادس إلى بداية القرن الخامس وتنتهي زمنيا بوقائع أكتيميزيو (Actemisio) وهيميراس (Himère) وكومي (Cûmes).

كيف بلغ هذا الإنتاج قرطاج؟ ما يلفت الانتباه هو تركّز اللقى الفخارية الاترسكية خاصة في جنوب شرق وغرب صقلية (سرقوسة وميغارا وسيلينونت) خلافا للساحل الجنوبي بين كامارين (Camarine) وأقريجنتا حتى موتيي وهي ملاحظة دفعت ببالّوتينو إلى الاعتقاد أن المبادلات بين أتروريا من جهة وقرطاج والمستوطنات الإغريقية وشرق المتوسّط من جهة ثانية مسّت السواحل الغربية لجزيرة صقلية تجنّبا للطريق الواقعة تحت مراقبة الكلكيديين (Les Chalcidiens). وبالتّالي فإن غياب الفخار الاترسكي على امتداد الساحل الرابط بين هيميراس وليونتنوا (Léontinoi) مردّه الخطر الذي كان يمثله القراصنة وهو خطر منع إقامة مبادلات تجارية سلمية في هذه المنطقة الخطرة.

يبدو أن الأترسكيين قد سعوا إلى ربط علاقات اقتصادية جيّدة مع قرطاج أولا. غير أن بعض المدن المتواجدة على طول هذا الخط تمكنت من الاستفادة من هذه المبادلات وهو ما يفسّر غزارة "البوكيرو الرفيع" في كلّ من بنورموس وهيمراس وسيلنونت. لكن ظل موقع موتيي استثناء محيّرا خاصة وأنه يوجد بدوره غرب جزيرة صقلية وهو معطى دفع بالباحث الإيطالي إلى القول بأن موتيي تميزت "بانغلاقها" وتمسكها بروابط وثيقة مع الساحل الفينيقي" وبالتالي اعتبرها أقل انفتاحا على الغرب. لكن رؤية بالوتينو هذه بحاجة من منظورنا إلى مراجعة تامة ويعزى ذلك إلى تضاعف عدد اللقى من نفس نوعية الفخار المذكور بفضل الحفريات التي أقيمت على أرض موتيي. وقد كُشف خلالها عن كميات هامة من "البوكيرو الرفيع" في معبد التوفات والأحياء السكنية ومقبرة بيرجي (Birgi في مواجهة جزيرة موتيي الصغيرة مباشرة).

ينتهي هذا التوازن الذي قمنا باستجلاء أبرز معالمه بظهور الصراع من أجل السيطرة على الخطوط التجارية خاصة مع بروز قرطاج كقوّة حامية لمصالح فينيقي الغرب وسعيها إلى إدخال جزء من صقلية وجزيرة سردينيا تحت دائرة نفوذها. فتطغى بداية من هذا التاريخ الهواجس العسكرية على المصالح الاقتصادية وأمام تزايد الخطر الإغريقي تتخذ العلاقات بين الاتروسكيين والقرطاجيين بعدا سياسيا ـه المعاهدات المبرمة بين الطرفين. لذلك يعتبر بعض الباحثين أن ـه بيرجي (Pyrgi) تحمل بعدا سياسيا نعرض له لاحقا في إطار حديثنا عن السياسة التجارية القرطاجية.

أخيرا تدفع الإشارات التي بحوزتنا –على ندرتها– إلى الاعتقاد بأن المبادلات بين الطرفين الاتروسكي والقرطاجي كانت بيد تجار بونيين ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتقاد كما لاحظ ذلك ج.هورقان (J.Heurgon) بأنه كان لورشات تاركينيا وكايري أعوان خاصّون يعملون في المنطقة الغربية من صقلية بمقتضى معاهدة شبيهة بتلك التي أبرمت بين روما وقرطاج. وقد تكون هذه المعاهدة نصت على أن يتمتع التجار الحلفاء بنفس حقوق التجار القرطاجيين عند تحولهم للجزء الواقع تحت السيطرة البونية.

ومن المفيد في هذا الإطار أن نذكّر بأن أرسطو أشاد في الكتاب الثاني من مؤلف السياسة بجودة العلاقات التي ربطت الجانبين وهي علاقات حكمتها معاهدات تنظّم المبادلات وتمنع اعتداء أحد الطرفين على الثاني.

المبادلات التجارية بين قرطاج وروما

يجب أن نشير منذ البداية إلى أن الأمر يتعلق بالأساس بدراسة واردات قرطاج من منطقة إيطاليا بعد نجاح روما في الظهور بمظهر القوة الكبيرة في هذه المنطقة ويميّز ج.ب.مورال في دراسته لتاريخ هذه المبادلات بين مرحلتين أساسيتين:

أ – قبل اندلاع الحرب البونية – الرومانية الأولى

لعلّ أكثر أنواع الخزف انتشارا خلال هذه الفترة يرتبط بمنتجات ورشات تطلق عليها الدراسات اصطلاحا تسمية "ورشات ذات الأختام الصغيرة (Ateliers à petites estampilles). وهي تسمية متداولة مردّها وجود نوع من الأختام على الأواني التي كشفت عنها الحفريات ويجمع المختصّون على القول بأن هذه الورشات كانت توجد في مدينة روما وضواحيها وقد بلغت هذه النوعية من الإنتاج جلّ المواقع البونية أو الواقعة تحت تأثير البونيين وهو ما حدا بموريل للقول أن قرطاج تبدو بمظهر أكبر شركاء روما التجاريين قبل اندلاع النزاع المسلح الأوّل بين الطرفين.

ب – بعد الحرب البونية الثانية

ظلّت واردات قرطاج من الفخار الروماني أهمّ الواردات على الإطلاق بعد الحرب البونية – الرومانية الثانية كما تدلّ على ذلك الكميات الهامة من الفخار الكمباني أ (.La campanienne A) التي تمّ الكشف عنها خاصة في قرطاج في إطار الحملة العالمية لإنقاذ هذا الموقع إلى درجة أن المختصّين يتحدّثون عن اجتياح مهول لهذه النوعية من الفخّار لأرض العاصمة البونية بداية من سنة 200 ق.م. ويعزى نجاح هذا الإنتاج إلى سعي منتجيه إلى أن يجعلوا منه منتوجا معدّا خصّيصا للتصدير نحو الأسواق بما في ذلك البعيدة منها (أسعار قادرة على المنافسة، إنتاج بكميات هامة، انخفاض كلفة التوزيع...)

باعتماد دراسة أشكال هذا الخزف نتبين أن أواني الشراب بالخصوص قد لاقت رواجا كبيرا داخل قرطاج. وهي ملاحظة يمكن سحبها على مجمل العالم البوني وذلك على نقيض إيطاليا اذ بيّن ج.ب موريل أن الأواني الفخارية لاقت منافسة الأواني المصنوعة من الفضة والبرنز.

يبقى لنا أن نضيف باعتماد نفس المرجع أن الفترة السابقة التي تمتدّ من تاريخ اندلاع الحرب الأولى (264 ق.م) إلى سنة 200 ق.م تاريخ اكتساح الفخار

الكمباني A لأسواق قرطاج قد طبعت على ما يرجّح بنوع من الانطـــواء عملـــت العاصمة البونية خلاله على تحقيق "اكتفاءها الذّاتي" ويجوز أن نفترض أن الفخــار "المحلّي" (céramique locale) المكتشف قد يعود إلى هذه الحقبة التـــي تغطـــي السنوات الأخيرة من القرن الثالث.

المبادلات مع إيبيزا وجنوب شبه الجزيرة الايبيرية

ارتبط النشاط التجاري الفينيقي – البونـــي، بشـــهادة مصادرنـــا الأدبيـــة، بالدرجة الأولى بالسعي لاستغلال الثروات المعدنية الهامة التي كانت تحويها هـــذه المنطقة وقد سبق لنا تناول جانب من هذه القضية عند الحديـــث عـــن التوســـعات الفينيقية نحو أقصى غرب المتوسط.

بالنسبة إلى الفترة البونية لا بد من التذكير بأن الكاتب ديودروس الصقلـــي يشير إلى أن بدايات سياسة قرطاج التوسّعية تتوافق وتأسيسها مســـتوطنة ايبـــيزا (Ibiza) سنة 654 ق.م. وقد أثار هذا التاريخ جدلا طويـــلا بيـــن المورخيـــن ولا مجال للخوض فيه في هذا الموضع من الدراسة بحكم أننـــا سنسـلّط علـــى هـــذه الإشكالية كلّ الأضواء في معرض حديثنا عن بروز قرطاج كقوة متوسطية فـــي بداية الجزء الثاني من هذا الكتاب. ولكن ما دفعنا لإثارة هـــذه النقطـــة الآن هـــو اعتزامنا الإلمام بأبرز سمات المبادلات التجارية القرطاجية مع هذه المنطقـــة مـــن المتوسط مع محاولة إبراز التطور الذي شهدته هذه المبادلات.

باعتماد المصادر الأثرية نرجّح أن تأسيس إيبيزا من قبل القرطاجيين جـــاء في الواقع كاستجابة لمصالح قرطاج بالتأكيد ولكن أيضا وفي الآن نفسه كاســـتجابة لمصالح المستوطنات الموجودة في جنوب شبه الجزيرة الإيبيريـــة والتـــي كـــانت تشهد على ما نرجّح مع أواسط القرن السابع قبل الميلاد انتعاشة ملحوظة مردّهـــا كما بيّن قومار بلارد (Gomez Bellard) تزايد طلب الأشوريين علـــى معـــادن الفضّة والقصدير والحديد. من هنا نشأت الحاجة إلى ضـــرورة إيجـــاد خطـــوط تجارية تتوجه نحو جنوب شرق إسبانيا ووسط فرنســـا وبذلـــك تمكّـــن التجـــار

الفينيقيون – البونيون من ربط صلات مع السكّان الأصليين لهذه المناطق وقد كانوا يبيعونهم كمّيات من القصدير جلبت عن طريق خط الأكيتان البرّي.

في هذا الإطار بالذات تتنزل بدايات الحضور الفينيقي – البوني في خليج ابيزا وساكاليتا (Sa Caleta) خاصة وأن موقع الجزيرة يستجيب تماما للهواجس التي قادت هؤلاء التجار بحكم قربها من الساحل إذ لا تفصلها عنه سوى مسيرة يوم واحد من جهة وبحكم غياب حضور بشري سابق من جهة ثانية وهو ما ترجّحه الأبحاث الأثرية نظرا لأنها لم تكشف عن بقايا حضارات أخرى على امتداد الفترة المتراوحة بين القرنين الثاني عشر والسابع قبل الميلاد.

قادت هذه الاعتبارات المختصّين إلى الاعتقاد أن الحضور السّامي بالجزيرة لم يكن وكما هو الحال عادة وليد رغبة في إنشاء روابط تجارية مع السكان الأصليين وإنما في إطار السعي إلى توفير بنية تدعم خطوط المبادلات البعيدة التي تحدثنا عنها منذ قليل وهو ما يفسّر من منظورهم بساطة المستوطنة الأولى التي تمّ إنشاءها.

لم تدم هذه الأوضاع طويلا بحكم تظافر مجموعة عوامل أبرزها:

– حالة عدم الاستقرار التي طغت على هذه المنطقة من المتوسّط بحكم الصراع مع سكان منطقة تارتسوس.

– سقوط صور سنة 573 ق.م.

– تراجع الطلب على المعادن وخاصة الفضّة.

– إدماج منطقة أوروبا الوسطى وسكّان المناطق الواقعة شمال الألب داخل دورة مبادلات العالم المتوسطي وهو ما سمح للأترسكيين والإغريق بالتزود بالمعادن مما أضرّ باحتكار الفينيقيين لهذه التجارة. ويعتبر تأسيس مسّاليا وأمبورياس (Ampurias) أفضل دليل على سعي الإغريق خاصة لوضع حدّ لسيطرة السّاميين على أهم الخطوط التجارية.

شكّلت سلسلة الأحداث هذه على ما يبدو منعرجا هاما في تاريخ المبادلات المتوسطية ذلك أن الحفريات تثبت اليوم أن هذه الفترة تتزامن مع بدايات ظهور الخزف الإغريقي والأترسكي في هذه المنطقة. لذلك ترجّح بعض الدراسات الحديثة أن تكون المستوطنات الفينيقية في شبه الجزيرة الايبيرية وجزر الباليار قد سعت لتوسيع دائرة علاقاتها التجارية مع جزر صقلية وسردينيا للخروج من أزمتها وخاصة مع مدن تاروس وموتيي وبيثيا (Bithia).

وضع تدخل قرطاج على المساحة المتوسطية كقوة حامية للفينيقي الغرب حدّا لهذه المرحلة. لذلك يمكن القول أن سيطرة البونيين على المسالك التجارية بأقصى غرب المتوسط ترتبط بشكل وثيق بسيطرتهم على جزيرتي صقلية وسردينيا. من هنا نفهم هذا التشابه الكبير الذي لاحظه ج.ب. مورال على مستوى اللقى الخزفية بين سلسلة من المواقع توجد ضمن دائرة تضم بالخصوص سردينيا والثلث الغربي من صقلية وشمال شرق البلاد التونسية اليوم (بما في ذلك قرطاج طبعا) وجزر الباليار وجنوب شبه الجزيرة الايبيرية وهو تشابه أمكن لج.ب مورال رصده انطلاقا من سلسلة ملاحظات يجمع بينها قاسم مشترك يتمثل في حضور واضح لأصناف معينة من الخزف:

* الفخار الأتيكي (تعود بدايته إلى القرن السادس قبل الميلاد) الذي عرف رواجا كبيرا خاصة في جنوب شرقي إسبانيا وهو إنتاج عملت بعض الورشات الموجودة أساسا في قرطاج وبالرمو على تقليده.

* الخزف ذو الطلاء الأسود (à vernis noir) يؤرّخه ج.ب.مورال بالقرن الذي يسبق تحطيم قرطاج. وبالنظر في توزعه الجغرافي يمكن القول أنه إنتاج بوني. وهو ينقسم بدوره باعتماد مقياس جودة الصنع إلى صنفين: صنف رديئ نجده مثلا في المنطقة الطرابلسية (La Tripolitaine) وصنف جيّد أثبتت الحفريات حضوره في كلّ من قرطاج وصقلية الغربية وخاصة إيبيريا التي يعتبرها نفس الباحث أهم قطب على الإطلاق. وتبرز الخريطة المصاحبة لمقالة الصادر بمجلة (Cahiers des Etudes Anciennes, XVIII 1986 p. 54) تركّزا

واضحا لهذه النوعية من اللقى على طول المنطقة الممتدة بين قرطاجنّة (Carthagène) وأمبوريلس (Ampurias) مرورا بأليكانت (Alicante) وفالنس (Valence) وهو ما يوافق إجمالا مجال اهتمام البرقيين وما جاوره حتى البيريني (Les Pyrenées). وبالنسبة للتأريخ تبدأ فترة انتشار هذا الصنف من الفخار في هذه المنطقة بالذات قبيل التوسّع البرقي لتتواصل حتى سقوط قرطاج.

* اهتمّ الخط التجاري الموالي بتسويق خزف يتمّ إنتاجه في منطقة إيطاليا الوسطى كنا تعرضنا إليه سابقا وتطلق عليه الدراسات إنتاج "الورشات ذات الأختام الصغيرة". وقد أمكن الكشف عن نماذج من هذا الانتاج على امتداد المنطقة الواقعة بين قادش حتى نهر الايبيروس (L'Ebre). وتميل أغلب الدراسات حاليا إلى القبول بفكرة أن تكون هذه الخطوط بأيدي التجار القرطاجيين خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما ورد في نص المعاهدة الثانية المبرمة بين قرطاج وروما وهي تضمن للبونيين هيمنة تامة لا فقط على المنطقة الواقعة "ما وراء الشناخ الجميل" بل وأيضا ما ستيا وتارسيون أي جنوب شبه الجزيرة الايبيرية. وقد أثبتت الحفريات أخيرا ندرة ما يسمى بالجرار القرطاجية في ما تمّ العثور عليه حتى الآن من أنماط خزفية وذلك في عديد المواقع الفينيقية – البونية الموجودة على مقربة من مضيق جبل طارق. وأفضل دليل على ذلك موقع توسكانوس وتدفعنا هذه الملاحظات للقول بأن قرطاج كانت لا تصدّر الا القليل من الموادّ التي تستعمل هذه النوعية من الخزف كالخمور والزيوت وغيرها.

في المقابل عرفت بعض الجرار المنتجة في جزيرة ايبيزا رواجا كبيرا (تطلق عليها الدراسات عادة تسمية الجرار البونية – الايبيزية PE 11) وقد انطلق صنعها على ما يُرجّح مع أواخر القرن السادس قبل الميلاد في ورشات نصّبت غير بعيد عن المقابر بمحاذاة الميناء ويبدو أن هذا الصنف من الفخار كان معدّا لنقل الزيوت وربّما أيضا الموالح ومنتجات الصيد. (**انظر وثيقة الأشكال الرئيسية للفخار البوني-الايبيزي**)

الأشكال الرئيسية للفخار البوني - الا يبيزي

المصدر: FERNANDEZ (M), COSTA (B), in, Actes du IIIème Congrès international des Etudes Phéniciennes et Puniques, Tunis 1995 - II.

علاوة على هذه الجرار أثبتت الحفريات وجود نوعية أخرى من الفخار (PE21) مصنوعة محليا ولكنّها في الواقع تقليد لأنماط إغريقية كانت متداولة في البحر التيريني ويبدو أنّها كانت معدّة لتصدير الخمور.

وللإيضاح نذكر بأن إنتاج ابيزا يرتبط بالأساس بفترة الانتعاش التي شهدتها المستوطنة عقب مرورها كغيرها من المستوطنات الفينيقية بالغرب تحت دائرة النفوذ القرطاجية. ولعل أبرز مظاهر هذه الانتعاشة تكثيف استغلال الفضاء الزراعي الذي توفره الجزيرة وهو ما سمح بتوفير فوائض فلاحية وُجّهت للتصدير. واعتبر ذلك سببا رئيسيا في ما حقّقته إيبيزا من ثراء على امتداد الفترة الموالية.

المبادلات البرية

لعب هذا النوع من المبادلات دون شك دورا لا يستهان به في تنشيط التجارة القرطاجية ولكننا لا نملك في شأنه معلومات غزيرة بحكم صمت مصادرنا عن هذا الجانب من الاقتصاد القرطاجي.

على المستوى الداخلي نميل إلى الاعتقاد أنّ جزءا من المبادلات القرطاجية مع المناطق التي خضعت لنفوذ العاصمة البونية مباشرة كان يتمّ عن طريق البرّ بدليل وجود خطوط ربطت بين قرطاج ونيابوليس وخطوط أخرى كانت تتجه إلى أوتيكا وبنزرت وحوض مجردة إضافة طبعا إلى تشييد البونيين لجسر على نهر مجردة لتسهيل عمليات التنقل.

على المستوى الخارجي ربطت قرطاج علاقات تجاريّة مع بلاد السودان وقد لعب الجرميون (Les Garamantes) دور الوسيط في هذه المبادلات. وشكل العاج وجلود الحيوانات المتوحّشة وريش النعام أهمّ المواد التي كانت قرطاج تجلبها من هذه المناطق. واعتمادا على مؤلّف المؤرّخ هيرودوت يبدو أنّ مستوطنات لبدة الكبرى وطرابلس وسبراطة قد ربطت علاقات تجاريّة مع سكان

بلاد جرمة منذ القرن الخامس قبل الميلاد وتستغرق الرحلة حسب نفس المصدر ثلاثين يوما. ويميل من.قزال إلى الاعتقاد أنّ هذا الخط كان ينطلق من طرابلس أو من لبدة منجها بعد ذلك نحو الشرق ثم يمرّ عبر بونجم. ولا يستبعد نفس الباحث وجود بعض الخطوط البريّة المنطلقة من لبدة وطرابلس وسبراطة وتاكبس (Tacape) قابس) في اتجاه الجنوب الغربي والجنوب حيث تلتقي على مستوى غدامس التي يبدو أنّها لعبت منذ تاريخ مبكّر دور نقطة تقاطع والتقاء بين كلّ هذه الخطوط.

يبقى أن نشير باعتماد نفس المرجع أنّه من العسير اليوم تحديد الخط التجاري الذي مكّن القرطاجيين من التزود بكميات من الذهب قادمة أصلا من أعماق إفريقيا.

تنظيم التجارة القرطاجية

1 – العملة

يعتبر تأخر قرطاج في ضرب العملة أمرا لافتا للانتباه خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار وفرة المعادن التي شكلت بالنسبة لبعض الخطوط التجارية على الأقل إحدى ركائزها ويضاف إلى ذلك –وهو أمر يكاد يكون بديهيا– اعتماد الاقتصاد القرطاجي بالدرجة الأولى على النشاط التجاري وهو ما يفترض أن تكون قرطاج قوة سبّاقة لاعتماد العملة.

لتفسير هذه الظاهرة الغريبة تمّ تقديم أسباب مختلفة منها:

– تعوّد القرطاجيين ارتياد مناطق لا تعتمد العملة ولا تعترف بها كأداة للتبادل وهو ما يؤدي للقول أنّ قرطاج كانت تمارس مع هذه المناطق على الأقل تجارة بدائية. ويمكن أن نذكر على سبيل المثال تجارة المعادن وهنا لابد من الإشارة إلى نص هيرودوت الشهير والذي اصطلح على تسميته بنص المقايضة الصامتة وكذلك الشأن على ما يبدو بالنسبة إلى تجارة العبيد.

- بالنسبة إلى المبادلات مع المناطق التي كانت تعتمد العملة يجب التذكير أنّ قرطاج كانت تلعب بالأساس دور الوسيط. ومن المفيد أن نشير أيضا إلى أنّها تعاملت مع منظومات ضرب مختلفة كالمنظومة المسمّاة الأوبية - الأتيكية والمنظومة الفينيقية والكدات (Kedet) المصرية يضاف إلى ذلك أنّ العاصمة البونية قد تبنّت نظام تبادل يتنزل في الواقع بين العملة والمقايضة ويعرف بنظام وزن المعدن الثمين (Le pesage du métal précieux).

بالرغم من تأخر قرطاج في عملية الضرب نلاحظ أنّ استعمال العملة لم يكن غريبا عنها تماما ذلك أنّ الحفريات أثبتت وجود عملات إغريقية في شمال إفريقيا تعود إلى القرن الخامس أي قبل بداية ظهور ما يسمى بالعملات الصقلية - البونية (Siculo-puniques) التي يعتبرها المختصون بمثابة البداية الحقيقية للعملات القرطاجية كما تحوي خزائن متحفي باردو وقرطاج قطعا تعود إلى نفس الفترة وتدعم الحكم الذي أطلقناه في مستهل هذه الفقرة.

يبقى أن نشير إلى أنّ المستوطنات البونية في غرب جزيرة صقلية قد قامت بضرب عملة خاصة بها قبل قرطاج نفسها. ونخصّ بالذكر في هذا السياق مستوطنتي موتيي وبالورموس. ويبدو أنّ المراكز القرطاجية في الجزيرة وجدت نفسها مجبرة على اعتماد العملة للاستجابة لمتطلّبات التعامل سواء داخل صقلية أو خارجها باعتبار أنّ نشاطها التجاري كان يتمّ بالدرجة الأولى مع مناطق اعتمدت هذه الوسيلة في التبادل منذ فترة طويلة. وطبيعي أن تتأثر النقود المضروبة بالأساس بالعملات الإغريقية وخاصة السرقوسية نظرا لإشعاع هذه المدينة الكبير داخل الجزيرة وخارجها.

2 - السياسة التجارية القرطاجية

تتميز المعلومات التي بحوزتنا حول هذا الجانب الهام من تاريخ قرطاج الاقتصادي بالندرة وللحصول على صورة تقريبية نجد أنفسنا ملزمين على توظيف واستقراء معلومات تقدّمها مصادرنا على اختلاف أنواعها ولو أنّها واردة

أصلا للحديث عن جوانب أخرى من حضارة قرطاج كالمعاهدات وتقرير رحلة حنّون ونقيشة بيرجي وغيرها.

يسود الاعتقاد أن مصالح قرطاج كدولة ارتبطت بمصالح بعض العائلات المتنفذة اقتصاديا. ولقد طبع هذا التماهي توجهات سياستها الخارجية مكيّفا بالتالي علاقاتها ببقية القوى المتوسطية وكما رجّحت الباحثة الألمانية ل.م. قونتار (L.M.Günter) اعتمدت الأرستقراطية القرطاجية على شبكة كثيفة من العلاقات الشخصية قامت بإنشائها مع بعض العائلات المتنفّذة في المناطق التي كانت تتاجر معها. وبالرغم من فقر مصادرنا نرجّح أن التجارة عبر المتوسط كانت بالأساس بيد الأثرياء القرطاجيين المنتمين بالضرورة إلى أوساط أرستقراطية قادرة على تجهيز السفن وتحمّل نفقات هذه النوعية من الأنشطة مع ما قد يترتب عن ذلك أحيانا من خسائر مكلّفة (غرق السفن، القرصنة...). وطبيعي أن تسعى مثل هذه الأوساط إلى احتلال مكانة سياسية تعادل وزنها الاقتصادي وأن توجّه كما لاحظنا ذلك منذ حين سياسة قرطاج الوجهة التي تخدم مصالحها. لذلك يمكن للمتأمل في سياسة العاصمة البونية الاقتصادية أن يخرج بسلسلة ملاحظات رئيسية هي التّالية:

* استخدام القوة عند الاقتضاء: وهي ظاهرة يمكن ملاحظتها دون صعوبة انطلاقا من كثافة تدخلات قرطاج العسكرية ضدّ كل خطر يتهدد مصالحها الاقتصادية. وتكفي الإشارة هنا إلى تدخلاتها المتعدّدة في جزيرة صقلية وكذلك منعها لدوريوس من تأسيس مستوطنة على الساحل الإفريقي. ويضاف إلى ذلك سعيها لتأمين جو من الاستقرار بمطاردتها للقراصنة ومعاقبتها لهم (على غرار تحالفها مع الأترسكيين في واقعة ألاليا الشهيرة على الساحل الشرقي لكورسيكا ضدّ الفوقيين سنة 535 ق.م). وقد تذهب قرطاج إلى حدّ استعمال القوة ضد حلفاءها إن لزم الأمر وهو ما نجد صدى له لدى ديودوروس الصقلي الذي يشير إلى تجرؤ الأترسكيين على دخول مناطق بحرية تابعة لقرطاج (جذبتهم جزيرة رائعة قد تكون مادار؟ Madère) لكن العاصمة البونية سارعت

بطردهم. ومادمنا بصدد الحديث عن طبيعة العلاقات بين القرطاجيين والأترسكيين يجدر بنا التوقّف عند هذه الإشكالية التي تطرحها نقيشة بيرجي (Pyrgi) الشهيرة وبالتحديد ما اصطلح على تسميته بالبعد السياسي لهذا النص. ولكن قبل ذلك نذكّر بأن الوثيقة تمّ الكشف عنها في بيرجي (= ميناء مدينة كايرى Caeré في أتروريا الجنوبية) وتؤرخ بسنة 500 ق.م. ويشير النص البوني إلى أن الملك تيبيري فاليناس (Thefarie Velianas) ملك سيسرا (أحد الأسماء القديمة لمدينة كايري) قام بإهداء الإلهة عشترت معبدا؟ أو تمثالا؟ (القضية موضع جدل كبير) ولابد من الاشارة أيضا أن نصا اترسكيا (على صفيحتين ذهبيتين) يقدّم تقريبا نفس الرواية فيما نقش النص البوني على صفيحة ذهبية ثالثة وينتهي بعبارة شكر موجهة للإلهة تظل بدورها موضع جدل بين المختصين في دراسة النقائش الساميّة.

لئن تعرضنا دونما إطالة إلى محتوى هذا النص فإن ذلك كان بهدف تنزيل التعليق الذي سيشفع ملاحظتنا هذه في إطاره الصحيح. ذلك أننا نسعى أولا للإجابة عن سؤال بسيط وهو لماذا عمد ملك كايري إلى تقديم هذا المعبد أو التمثال إلى إلهة قرطاجية تمت مماثلتها مع إلهة اترسكية كبيرة هي يوني (Uni)؟ تتضارب الآراء عند محاولة الإجابة عن هذا السؤال ويمكن ان نميّز إجمالا بين:

– تيار أوّل يمثله م.بالّوتينو يرى في تصرف ملك كايري انعكاسا لتدخل قرطاج العنيف في الشؤون الداخلية الاترسكية بحكم خشيتها من حصول تقارب أترسكي – إغريقي ويذهب الباحث الإيطالي إلى حدّ اعتبار تيبيري أداة ضغط قرطاجية نصّبتها العاصمة البونية لمواجهة تيار قريب من الإغريق. ويتنزل تصرّفها في إطار سعيها للاستفادة من خيرات المنطقة وبالتالي الدفاع عن مصالحها.

– تيار ثان معاكس تماما يرى أن لا شيء يدفعنا للقبول بفكرة موالاة تيبيري لقرطاج إذ يرى ج – هورقان (J.Heurgon) أن ما قام به ملك كايري

إنما يتنزل في الواقع في إطار السياسة البحرية التي كـــان يتبعـــها الاترســـكيون خاصة بحكم تكبّد أسطولهم لسلسلة هزائم على يد الليبـاريين (L es Liparéens). ومن هنا نشأت لديهم الحاجة إلى التحالف مع القرطاجيين ومن هذا المنطلق يعتــبر نفس الباحث أن تصرّف ملك كايري جاء كتعبير عن شـــكره لحلفائــه البونيــن لمساعدتهم له على تحقيق نصر على أعدائه ليخلص للقول في تقييم عـــام لطبيعـة العلاقات التي ربطت بين الطلبين إلى أنّ تحالفاتهم كـــانت بالأســـاس ظرفيـــة. ولدعم رأيه يسوق القرائن الآتية:

– التماثيل التي وضعها المسّاليون في معبد الإله أبولـــون بدلفـــي لتخليـد انتصاراتهم تكتفي بالإشارة إلى أن النصر تحقق على حساب القرطاجيين ولا نجـد ذكرا للاترسكيين.

– نفس الملاحظة يمكن أن نسحبها على الليباريين الذين يكتفون بـــالتذكير بانتصاراتهم على الأترسكيين ولا نجد ذكرا للقرطاجيين.

– ملازمة الأترسكيين الحياد في واقعة هيمراس وعدم نجدتـــهم لحلفائـــهم القرطاجيين.

– نفس الموقف اتبعته قرطاج تجاه الأترسكيين سنة 474 ق.م. فـــي كومي (Cûmes).

* إن استخدام القوة لم يمنع قرطاج من التعامل عنـد الاقتضـــاء بطريقــة مغايرة تماما مع بعض الأوضاع الخاصة فبالتأمل في محتوى المعـــاهدات التـي أبرمتها مع الرومان نلاحظ وجود مناطق عملت قرطاج على احتكار المبـــادلات التجارية معها. ولقد عثينا بالدرجة الأولى منطقة ما وراء الشناخ الجميل وجزيـرة سردينيا ثم لاحقا جنوب شبه الجزيرة الايبيرية. ولا نجانب الصواب عنـد القـول بأن موقع هذه المناطق وثرواتها كان وراء هـــذا الحظـر الـذي فُـرض علـى الرومان. وفي المقابل تبدو لنا صقلية البونية من خلال نفس المعـــاهدات بمظـــهر المنطقة المفتوحة على التجارة الحرة ويتمتع التجار الرومان بمقتضى الاتفـــاقيتين

بنفس حقوق التجار القرطاجيين. وهي حريّة يمكن ملاحظتها أيضا من خلال عملية ضرب العملة باعتبار المستوطنات الفينيقية – البونية شرعت في سك نقودها قبل قرطاج نفسها.

من جهة أخرى أثبتت الحفريات المنجزة في القبور التي ترقى إلى الربع الأخير من القرن الخامس تراجع واردات قرطاج نفسها من العالم اليوناني وهي ظاهرة لا نجد نظيرا لها في المقابر البونية الموجودة في الجزيرة والتي تعود إلى نفس الفترة وهو ما يدفعنا للقول بأن سياسة "التقشف" التي اتبعتها قرطاج خلال هذه الفترة لم تطبق على مستوى مستوطناتها الواقعة بالجزيرة.

لا يمكن أن نتصوّر – كما ذهب في اعتقاد البعض – أنّ هذه الحرية التي منحتها قرطاج طوعا إلى بعض المناطق التابعة لها (الأمر ثابت على الأقل بالنسبة لصقلية) تعكس إهمالا وغياب الاهتمام من قبل العاصمة البونية. ولتأكيد رأينا تكفي الإشارة إلى التدخلات القرطاجية المتعددة والمتكررة بالجزيرة للحفاظ على مصالحها. وإنما هي في الحقيقة انعكاس لنظرة مناقضة تماما ووجه ثان من وجوه سياسة قرطاج الاقتصادية ذلك أن البونيين باعتمادهم هذه الطريقة في التعامل مع بعض مستوطناتهم إنّما أرادوا في الحقيقة المحافظة على منفذ مفتوح تجاه التجار الأجانب (رومان، إغريق، أترسكيين) وبعبارة أوضح سعت قرطاج إلى أن تجعل من الجزء الواقع تحت سيطرتها فضاء للتبادل الحرّ يرتاده هؤلاء التجار لتسويق بضائعهم وهي بضائع يتزود بها القرطاجيون ليقوموا بترويجها في مناطق أخرى من البحر الأبيض المتوسط.

أخيرا لا يمكن أن نغفل الدافع الاستراتيجي الذي حدا بالقرطاجيين إلى معاملة مستوطناتهم في صقلية بالخصوص بلين لفت انتباه المصادر القديمة. ويتمثّل هذا الدافع في فهم قادة قرطاج لخصوصيات هذه الجزيرة إذ يجب أن لا ننسى أن صقلية منطقة يتعايش على أرضها العنصر البوني مع عنصر آخر هو العنصر الإغريقي. لذلك فهمت قرطاج أن ممارسة سلطة مطلقة قد يؤدي إلى وضعية عدم استقرار وهي نتيجة معاكسة تماما لما كانت قرطاج تود تحقيقه. من

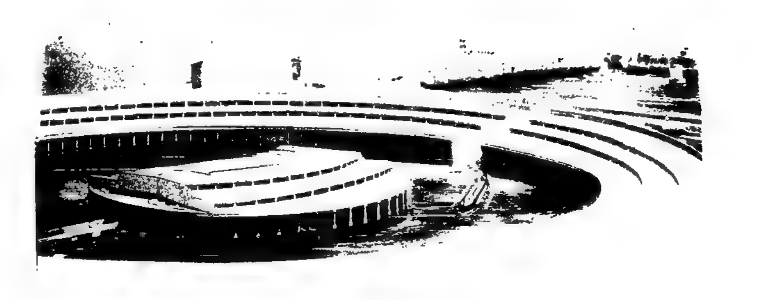
هنا نفهم أن الإغريق لم يعمدوا إلى طرد التجار القرطاجيين المتواجدين في مدنهم (باستثناء سنة 397/398 في سرقوسة) ويبدو أن الهيمنة المسلّطة عليهم بطريقة غير مباشرة لم تثر حقدهم وعداوتهم.

* تأسيس المستوطنات وتوفير البنية الأساسية لازدهار النشاط التجاري:
سعت قرطاج لا فقط للمحافظة على المجال الموروث عن صور بل وأيضا لتوسيعه ليشمل مناطق جديدة ويكفي التذكير هنا بالرحلتين الشهيرتين اللتين نظمتهما دولة قرطاج: الأولى تحت قيادة حنّون في اتجاه الساحل الأطلسي الإفريقي والثانية في اتجاه الشمال (نحو الجزر البريطانية) تحت إمرة خيملك وقد سعت قرطاج إلى احتكار هذه المناطق مخفية عن منافسيها أسرار رحلاتها. ولا أدلّ ذلك من هذه الصيغة الضبابية التعتيمية التي تطبع تقرير الرحلة الذي وصلنا في ترجمة يونانية والمسمى برحلة حنّون.

أخيرا اجتهدت قرطاج لتوفير البنية الأساسية الكفيلة بضمان تفوقها التجاري فبرع البونيون في صناعة السفن ولو أنّ المعلومات الواردة في المصادر الأدبية تتعلق بالدرجة الأولى بالسفن العسكرية. كما برعوا في إقامة الموانئ وخاصة منها المنحوتة في الصخر (انظر لوحة الموانئ القرطاجية) وقد سمحت الحفريات الأخيرة بتقديم الدلائل الحازمة على تفوقهم في هذا الميدان ولقد عثرنا بالخصوص موانئ العاصمة البونية نفسها ولو أنّها تتنزل زمنيا في إطار الفترة المتأخرة من هذه الحضارة (انظر فصل الإطار الحضري) ويمكن أن نضيف في هذا الإطار ميناء مونتيي وهو ميناء منقور في الصخر معدّ على ما يرجح لإصلاح السفن وميناء المهدية الذي تتوجه الأبحاث الحديثة إلى إثبات جذوره القرطاجية بعد طول جدل بين المختصين.

الموانى القرطاجية

نموذج مصغّر من اعداد فريق البحث البريطاني على ضوء الحفريات الأخيرة



الفلاحة القرطاجية

اقترن التوسّع القرطاجي في المجال الإفريقي باكتساب مناطق زراعية، وقد أبرزنا أهميّة امتدادها بالنسبة إلى الظهير الزّراعي المحدود للمدن – الدّول الفينيقية أو للعمق القاري لمختلف المدن البونية. وتتفق المصادر من خلال وصفها المجال الزراعي لقرطاج أو تثمين علم الزراعة بها على أهميّة التجربة الفلاحية القرطاجية. فقد احتفظت المصادر الإغريقية واللاتينية بعناصر المعرفة الزراعية للقرطاجيين من خلال كتاب الفلاحة لماجون الذي احتفظ به الرّومان سنة 146ق.م اثر تدمير قرطاج، ولعلّه كان من أهمّ غنائم الحرب. وقد أمر مجلس الشيوخ الروماني– فيما يذكر بلينيوس الأكبر– بترجمته وتولّت الأمر لجنة ترأسها سيلانوس (Decimus Silanus). وأنجزت ما كلفت به في السنة نفسها. ورغم اندثار نص الترجمة، فإنّنا نجد صداها لدى علماء الزراعة اللاّتينيين والإغريق عبر إحالات مباشرة لماجون ونصائحه والتي يمكن أن نعتبرها مقياسا لطبيعة النشاط الفلاحي لدى القرطاجيين في المجال الذي امتدت عليه ملكياتهم. وتذكره المصادر الاغريقية بصيغة (*La chôra*) وقد مدّنا كلّ من ديودروس الصقلي وبوليبيوس بوصف دقيق لمنطقة من أهمّ مناطقه وهي الوطن القبلي، وذلك على هامش الأحداث العسكرية لأواخر القرن الرابع ق.م وأواسط القرن الثالث ق.م.

1 – علم الزّراعة القرطاجي : كتاب الفلاحة لماجون

تطرح بشأن هذا الأثر جملة من التّساؤلات منها هويّة المؤلّف، فالاسم يوافق أسماء العديد من القادة العسكريين ابتداء من القرن السادس ق.م، ثمّ هل كان هذا المؤلّف استثناء في قرطاج، وإلى أي مدى يمكن دراسته في سياق تطوّر معرفة نظرية وتجربة عملية تعكس واقع الفلاحة القرطاجية؟

ورد كتاب الفلاحة لماجون في ثمانية وعشرين كتابا وقد تُرجم إلى اللاّتينية ثمّ إلى الإغريقية وصدر في ملخّصات ومع ذلك فإنّنا نحتفظ بأجزاء

محدودة من هذا الأثر وهي تقتصر على مقاطع وفقرات وإحالات وجيزة يبلغ عددها الجملي ستّة وستين إحالة. ومن النّقاد من يعتبرها دون ذلك أي حوالي أربعين – نظرا إلى صعوبة تبيّن الأصل القرطاجي من الإضافات التي تخلّلت الملخّصات الإغريقية.

ولا تسمح لنا الصيغ التي قدّم بها ماجون بتبين هويته وتأريخ كتابه رغم أن بلينيوس الأكبر يعتبره من قادة الجيش، وهو ما جعل الباحث الإيطالي سبرنزا (Speranza) يفترض أنّ عالم الزراعة المقصود هو ماجون ابن عبد ملقرت البرقي أي شقيق حنبعل، ويبرّر هذا التشخيص بالانفتاح على التأثيرات الإغريقية خلال مرحلة الحروب البونيّة ووجود تأثير لعلماء الزّراعة الإغريق في كتاب الفلاحة القرطاجي مثل القواسم المشتركة التي تبدو بين هذا الأثر وكتابات ثيوفراست (Théophraste) (حوالي 370–287 ق.م) الذي ألّف أبحاثا حول النّباتات. ويسمح لنا اعتماد ماجون لهذا الأثر بتبين حدّ أقصى للمرحلة التي عاش خلالها وهي النصف الثاني من القرن الرابع ق.م ومن المرجح أن الحقبة التي عاش خلالها توافق مرحلة القرنين الثالث أو الثاني ق.م. وهي حقبة اقترنت بالانفتاح على المؤثرات الإغريقية من جهة وتطوّر الفلاحة والمشهد الزراعي بالمجال القرطاجي وممّا يؤكّد وصف المصادر المذكورة في مقدمة هذا العنصر. ويمكن اعتبار كتاب ماجون أهمّ خلاصة لعلم الزراعة من بين مؤلفات قرطاجية أخرى كما يمكن مراجعة الأمر اعتمادا على كولوملاّ (M-Columelle) –وهو أصيل غادس بإسبانيا، أي من منطقة تميّزت بعمق التأثير الفينيقي البوني– وقد ألّف خلال القرن الأوّل ميلادي كتابين، الأوّل في الفلاحة والثاني خصّصه للأشجار أو الغراسات ويذكر من بين مصادره الكتب التي دوّنها بالبونيّة أفارقة منهم عبد ملقرت. وأمام صعوبة تأكيد اطلاع كولوملاّ على هذه المؤلفات يرجّح أن يكون ماجون نفسه ذكر علماء زراعة من بين مواطنيه.

واعتمادا على مبدأ الترتيب التّفاضلي لمجمل المصادر التي اعتمدها يفرد كولوملاّ لماجون مكانة خاصّة باعتباره "أب علم الزّراعة"

(*Rusticationis parentem*)، أمّا ماركوس ترنتيوس وارّو (M.T.Varron) (116–27 ق.م) – وهو روماني متعدد الاهتمامات المعرفية ومؤلف كتاب في الفلاحة فإنه يختصر قائمة مصادره من علماء الزراعة "بأشهر هؤلاء، ماجون القرطاجي الذي كتب بالبونيّة" ونلاحظ تأكيد قيقرو على هذا المصدر الذي يذكره في كتاب الخطابة (*De Oratore I,249*) وينصح "المالك بأن يشير على المشرف على ضيعته التمعّن في دراسة كتاب ماجون القرطاجي".

ويعتبر النّقد المعاصر أنّ وارّو وكولوملاّ وظّفا بصفة عميقة الترجمة والملخّصات اللاّتينيّة لكتاب ماجون. أما التّرجمة الإغريقية التي أنجزها سنة 88 ق.م. كاسيّوس ديونيزيوس (Cassius Dionysos d'Utique) المقيم بأوتيكا وكانت آنذاك عاصمة المقاطعة الإفريقية الرّومانية فقد كانت مزيجا من التّلخيص والاقتباس والتّصرّف والإضافات لعلماء الزراعة الإغريق. وتأكّد توجّه لاختصار هذا الأثر حيث أصدر ديوفانوس (Diophanos de Nicée) سنة 64 ق.م الكتاب في ستّة أجزاء تمّ اختزلها بوليّو (Pollion de Tralles) في جزئين وهو فيلسوف رواقي درّس في روما أواسط القرن الأوّل ق.م. أدّت ترجمة كاسيوس ديونيزيوس وإضافاته وما تبعها إلى صعوبة تمييز ما يعود لكتاب ماجون ممّا أضيف من الكتابات الإغريقية. لكن يتضح أنّ هذه الاختصارات كانت سهلة الاستعمال وهو ما يؤكّده على الأقل بلينيوس الأكبر (23–79م) في كتابه "التاريخ الطبيعي" حيث يذكر أهم مصادره: "ديونيزيوس مترجم ماجون وديوفانوس الذي لخّص ديونيزيوس". وهكذا فإنّ تبيّن صدى كتابات ماجون عند انعدام الإحالات المباشرة يعتمد على مقارنة المعروف منها لدى وارّو وكولوملاّ بما تذكره بقيّة المصادر ومنها بعض أناشيد ورجليوس في ديوانه "جيورجيكا" (Georgica) الذي يتغنّى فيه بالرّيف أو التّصورات الزراعية الذي جمّعها كاسّيوس باسّوس (Cassius Bassus) خلال القرن الرابع ق.م في كتاب "جيوبونيكا" (Geoponica) والتي اعتمد فيها على علماء الزّراعة "اللاّتينيين والأفارقة والسّوريين" وقد وصلنا هذا الأثر في نسخة بيزنطية من القرن العاشر م.

ومن مظاهر تواصل المعرفة بالكتابات المذكورة في القرون الوسطى، ما يذكره ابن العوام الإشبيلي في مقدمة كتاب الفلاحة وهو من أبرز المؤلفات الأندلسية في هذا الميدان: "ولمّا بعد فإني قرأت كتب فلاحة المسلمين الأندلسيين ومن كتب غيرهم من القدماء المتقدمين في صنعة فلاحة الأرضين المضمنة كيفيّة العمل في الزراعة والغراسة ولواحق ذلك وما يتعلّق به من كتبهم في فلاحة الحيوان، ما وصل إليّ منها وما نصوه فيها. نقلت من عيونها إلى هذا التأليف... واعتمدت على ما تضمنه كتاب الشيوخ أبو عمر بن حجّاج... وهو مبنيّ على آراء أجلّة الفلاّحين والمتكلّمين وعزاها إليهم يونيوس بارون..."

وحاول دون جوازف انطونيو (Don Joseph Antonio) وهو ممن حققوا نص ابن العوّام تشخيص مصادره القديمة فاعتبر أنّ يونيوس أقرب لكولومـلاّ إذا اعتبرنا عناصر اسمه كاملة لوكيوس يونيوس كولوملا (L. Junius Columella) وبارون مطابقا للنطق العربي لوارّو (Varro) كما انتبه إلى كسّيئوس الذي يذكره ابن العوام ويرجّح أن يكون كسّيوس ديونيزيوس صاحب أوّل ترجمة إغريقية لماجون. إنّ التأكيد على إمكانية تواصل المعرفة الزّراعيّة القرطاجية خلال المرحلة الوسيطة يبدو صعب الإثبات في هذه الحالة إلاّ إذا اعتمدنا استنتاج مؤلّفي موسوعة الآثار الإغريقية و اللاتينية دارمبار وساليو (Darember et Saglio) اللّذين يعتبران كتابات وارّو وكولوملاّ في علم الزّراعة مجرّد ملخّصات لكتاب ماجون (*Res rustica TIV 2, p. 900*).

وإجمالا فإنّ الاهتمام بكتاب ماجون يتضح من خلال ما أبرزه وارّو باعتباره جامعا لتجارب ومؤلفات إغريقية" ثم إنّه يلخّص تجربة القرطاجيين في مجالهم الذي أصبح مقاطعة رومانية وهو ما يدلّ على الجدوى العملية لترجمته رغم أنّ كاتو (Caton) قائد النّزعة المعادية لقرطاج في مجلس الشيوخ الرّوماني ألف كتابا في علم الزّراعة (*De Agricultura*) قبيل سقوط قرطاج.

أشار بعض علماء الزراعة اللاتينيين مثل تريمالّيوس سكروفا (T.Scrofa) إلى مطابقة نصائح ماجون لمعطيات طبيعية خاصّة بإفريقيا. ويمكن

القبول بهذا الرّأي بالنسبة إلى بعض الغراسات وهو ما يحيلنا على تحديد مجالات اهتمام ماجون فهي تشمل الأشجار والغراسات وخاصة منها أشجار الزيتون وغراسة العنب ثم تربية الماشية إضافة إلى محور تنظيم العمل الفلاحي وعمل العبيد ومقاييس اختيارهم وتوزيع المهام بينهم .

2 – الفلاحة وخصائص المجال الزّراعي القرطاجي

أشرنا في الفصل المخصّص للحضور القرطاجي في المجال الإفريقي إلى تطور المنطقة الزراعية لقرطاج من ظهير محدود حول المدينة إلى مجال زراعي مؤطر مباشرة. ويرجّح أنّه كان يشمل مناطق سادت بها ملكيات القرطاجيين مثل الوطن القبلي وسهول منخفض وادي مليان ومجردة الأسفل وهو المجال المموّن لقرطاج والذي ذكرته المصادر الإغريقية بصيغة (*chôra*) واعتبر بوليبيوس الذي عاين المنطقة سنة 146 ق.م. أنّ "المجال الزراعي لقرطاج يغطّي احتياجاتها اليومية لكن يضطرّها ضمان الاحتياطي الضروري من المؤن أو احتياجاتها أثناء الحروب إلى اعتماد موارد مناطق اللوبيين والنّوميديين". وقد أبرزنا قيمة هذا المجال المنتج للحبوب بالنسبة إلى قرطاج وتبعيته الضريبيّة لها. أمّا مجال ملكيات القرطاجيين فإنّه اعتمد على الغراسات وتربية الماشية أساسا وهي الصورة التي تقدمها المصادر لمنطقة الوطن القبلي التي اقتحمها جيش سرقوسة بقيادة حاكمها آغا توكلاس سنة 310 ق.م ويقدم ديودروس الصقلي المشهد التالي: "أرسى جيش آغا توكلاس قرب رأس أدّار وبعد إحراق أسطوله أمر جنوده بالزّحف على مدينة قرطاجية كبيرة (Mégalépolis) وقد تخلّلت المنطقة التي قطعها الجيش الحدائق والحقول وبها آبار عديدة مجهّزة بقنوات الرّي وعلى جوانب الطريق سكن ريفي متقن البناء يعكس ثراء شاملا وكانت المساكن مليئة بكلّ متطلبات العيش وملذّات الحياة وهو ما سمحت سلم طويلة بتركيمه. وكانت الأرض مغروسة كروما وزياتين وأنواعا عديدة من الأشجار المثمرة وتسود بالمراعي قطعان الأبقار والأغنام والخيول وهكذا تتضح في هذه الربوع أوجه ثراء أبرز المالكين القرطاجيين..."

ونجد لدى بوليبيوس عناصر نفس المشهد بما أنّه وصف نفس المنطقة – قبل ديودروس الصقلي–إثر حملة القنصل أتيليوس ريوغولوس (Atilius Regulus) سنة 256 ق.م أي في غضون الحرب الأولى بين قرطاج وروما على المجال القرطاجي. فإثر "الاستيلاء على أسبيس (Aspis / قليبية) ترك الرّومان حامية بالمدينة وأوفدوا مبعوثين إلى روما... ثم خرج الجيش وشرع في نهب الظهير الزراعي وتدمير مساكن رائعة البناء وتمكن في وقت وجيز من تجميع عدد كبير من المواشي وأكثر من عشرين ألفا من العبيد..."

إنّ الرّبط بين عناصر الوصف المقدم ونصائح ماجون يمكننا من البحث في طبيعة الاستغلال الزراعي وخصائص ملكيات الأرستقراطية القرطاجية ومكونات الإنتاج الفلاحي. ويتضح من نصي ديودوروس الصقلّيّ وبوليبيوس معطى الاستغلال المكثف وأهمية السكن الرّيفي الذي يسمح لنا بتقدير حجم الملكيات باعتبارها متوسطة الامتداد فنموذج الملكية الكبرى (Latifundia) والملكيات التغيبية تناولها ماجون بالدّرس إذ ينصح "من يبتغي اشتراء أرض أن يبيع مسكنه [الحضري] مخافة أن يفضل طيب المقام في المدينة على الرّيف..." وقد ورد وصف السكن الرّيفي في ضواحي قرطاج لدى أبيانوس الذي يذكر استيلاء جنود سقيبيو الايميلي على منزل ريفي حصين خارج أسوار قرطاج في ظروف حصارها أثناء الحرب. ومكّن البحث الأثري من التعرّف على نموذج هذا السكن في نفس المنطقة حيث اكتشف سنة 1979 مسكن ريفي في منطقة قمرت أي في الظهير الزّراعي لقرطاج "ميجارا (*Megara*) وبيّن م.ح.فنطر طابعه الثنائي فهو متركب من قسم معدّ للسكن يتضمّن بئرا وبيت استحمام وثلاث غرف أمّا القسم الثاني ففيه معصرة زيت وأحواض لتصفية الزّيت وجرّة كبيرة لخزن المؤن.

وهكذا فبناء على تفضيل السكن الرّيفي بالنسبة للمالك ووصف المصادر الأدبية لمساكن تختلف عن سكن المزارعين الذي تذكره المصادر اللاتينية بتسمية (*Mappalia*) والمعاينة الأثرية فإنّنا أقرب إلى التسليم بارتباط القرطاجيين بالأرض في إطار ملكيات قائمة على الاستغلال المكثّف للزياتين والكروم والأشجار المثمرة.

ولعلّ الإضافة القرطاجية في الميدان الفلاحي تكمن أساسا في تقنيات الإنتاج ودرجة التكثيف أكثر من إدخال نوعيات جديدة للمنطقة إلاّ إذا استثنينا فرضية إدخال أو إشاعة غراسة الرّمان والتي نصّ عليها بلينيوس الأكبر باعتبارها إضافة قرطاجية أو فينيقية في غرب المتوسّط ويذكر تسعة أنواع من "التّفاح البوني" (*mala punica / malum punicum*) وهي التسمية اللاّتينية الأكثر استعمالا بالمقارنة مع تسمية (*granata /granatum*). وقد خصّ ماجون هذا الصنف من الإنتاج بتوصية لتقنيات حفظ الثمار. كما يذكر مؤلّف التاريخ الطبيعي بلينيوس الأكبر تقنية تطعيم الزيتون البرّي باعتبارها اختصاصا إفريقيا. وتتضح في هذا الميدان أهمية الإضافات في المرحلة القرطاجية سواء من حيث امتداد الغراسات أو تقنياتها. فمقاييس ماجون لغراسة الزياتين قريبة من التصورات المعاصرة الأكثر علميّة: يجب أن تكون الأشجار متباعدة مسافة 75 قدما (22.2م) في جميع الاتجاهات على ألاّ تقل عن 45 قدما (13.3م) إذا كانت التربة ضعيفة ومعرضة للرياح[1].

ويذكر وارّو الرّزنامة الفلاحية لماجون الذي يضبط مراحل الغراسة والزّراعة وفقا للفصول وخصوصيات التربة سواء لغراسة الزّياتين أو الكروم. واحتفظ كولملاّ بطريقة استخلاص الخمر من الزّبيب وقد أوردها ماجون وهي نوع من الإنتاج معروف بالاسم اللاتيني (*passum*) ولعلّ للتسمية ترجّح اعتبارها بضاعة تصديرية أو على الأقل معروفة من طرف الرّومان تماما مثل

منتجات أخرى على غرار التين اللّوبي أو الإفريقي (*ficus libyca, ficus africana*) وإنتاج العسل الذي أشار هيرودوت إلى أهميّته في المجال الإفريقي ونجد لدى اللاّتينيين تسمية نوعية من الشمع البوني (*cera punica*) ذي الاستعمالات الطبية.

أمّا اليد العاملة الفلاحية فإنّنا نلاحظ تطابقا بين أهميّة العبيد في المجال الفلاحي لقرطاج من خلال النّصوص الأدبية وتنصيص ماجون على نصائح حول استعمال اليد العاملة العبودية. إذ ينصح باشتراء القادرين على تعاطي العمل الفلاحي وتفضيل عبيد الولادة الذين ينشؤون في الضيعة ويساعدون على ارتباط آبائهم بالأرض. كما ينصح ماجون باختيار الأكفاء من بين الأكبر سنا للإشراف على العمل. لكننا نستبعد اعتماد نظام عبودي على نطاق واسع، ذلك أنّنا نجد لدى ارسطو إشارة صريحة بتوجّه الاوليغروشية القرطاجية إلى تخفيف العبء الديمغرافي في قرطاج بإرسال مواطنين من العامة وتوطينهم بالمناطق التابعة لهم. ولعلنا نلمس من خلال هذه العملية إمكانية وجود حالات استغلال مباشرة للأرض فضلا عمّا ذكره أورليوس فيكتور (Aurelius Victor) (القرن الرابع م) من توجّه الجيش القرطاجي إلى توسيع غراسات الزيتون إثر الحرب الثانية ضدّ روما، أي بعد سقوط الإمبراطورية القرطاجية وانحصار المنطقة الترابية لقرطاج في حدود الشمال الشرقي والوسط الشرقي للبلاد التونسية وقد كانت هذه المنطقة تمثّل القاعدة الاقتصادية الرئيسية لقرطاج ومصدر مواردها والتي بها عاين الرّومان معالم استغلال زراعي مكثّف.

ملامح المجتمع القرطاجي

استعرضت المصادر الأدبية – وإن كان ذلك بصفة غير مباشرة – معلومات تهم فئات مختلفة من المجتمع القرطاجي سواء منها الفئات السّائدة أو العائلات التي طبعت التاريخ السّياسي والعسكري القرطاجي أو العبيد سواء المستخدمين في المجال الحضري بالعاصمة البونيّة أو المسخّرين في العمل الفلاحي بممتلكات القرطاجيين في الوطن القبلي. وتمدّنا نفس المصادر بإشارات أقلّ أهميّة حول الكهنة وموقعهم الاجتماعي. على أنّنا نمتلك بشأن هذه المسألة مصادر مباشرة قيّمة وتتمثّل في النقائش البونية وبدرجة أقل البونية–الحديثة، وهي تنص على الوظائف أو المهن، وتحيلنا إلى الانتماء الاجتماعي الذي نحاول أيضا تبيّنه اعتمادا على المصادر الأثرية وخاصّة المقابر التي يمكن تصنيفها حسب طبيعة الأثاث الجنائزي الذي تحتويه. وإن كانت مجمل المصادر المذكورة تلقي بعض الضوء على النّسيج الاجتماعي، فتطلّع الباحث لا يمكن أن يتجاوز محاولة رسم ملامح المجتمع القرطاجي، خاصّة إذا التزم الحذر في المقاربات المبنية على القياس المنطقي أو المقارنة بين مجتمعات قديمة أخرى ومجتمع قرطاج سواء من حيث تركيبته أو تطوره.

وتتضمّن رواية تأسيس قرطاج ما يساعدنا على البحث في الانتماء الأرستقراطي للمؤسّسين. فعليسة لها علاقة مباشرة في نفس الوقت بالقصر والمعبد أي السلطة السّياسية العليا في صور باعتبارها شقيقة بيقماليون والسلطة الدّينية إذ هي زوجة آكرباس. ويتضح تلازم السلطتين في وجود شيوخ وكهنة ضمن المؤسّسين. ولنا أن نتساءل عما إذا كانت تركيبة المؤسّسين هذه – بغضّ النّظر عن الحقيقة التاريخية للرّواية – تؤكّد اعتمادا على الأحداث اللاّحقة ما إذا كانت قرطاج منذ تأسيسها ذات وزن نوعي ومستقبلي يتجاوز الطابع العادي للمرافئ الفينيقية.

تتبنّى ل.م. قونتر (L.M Günter) هذا التصوّر معتبرة أنّ قرطاج تتفق من وجوه عديدة مع المدن – الدول الإغريقية الكبرى، لا خلال القرن الخامس ق.م. فحسب بل منذ القرنين السابع والسادس ق.م ويكمن التشابه في قيامها على أرستقراطية تجارية قويّة – ذات نخبة سياسية مسيّرة – دفعتها حركيتها الذاتية إلى التّجارة البحرية البعيدة المدى والانخراط في علاقات خارجية مبكرا للدفاع عن مصالحها أو لربط علاقات تحالف. ولفهم هذه الآليّة والانطباع السّائد حول دور الأرستقراطية التّجارية القرطاجية فإنّنا مدعوون إلى البحث في إمكانيات تدعم وزن المجموعة المؤسّسة خلال المرحلة العتيقة من تاريخ قرطاج، ذلك أنّنا أقرب إلى الاعتقاد بأنّها تدعّمت بقبول مجموعات جديدة من الفينيقيين، فالحملات الأشورية خلال القرن الثامن ق.م وخاصّة في فترة الملك الأشوري تقّلات فلاسار، (Tiglatphalasar) (744 – 727 ق.م) فرضت تضييقات على تجارة صور وصيدا وتحديدا مع مصر وفلسطين. وتضررت تجارة صور وملاحتها خاصة أثناء حكم الملك آشورحدون (Asarhaddon) (680–669 ق.م). أمّا الحملات البابليّة فقد اتخذت شكلا عسكريا مدمّرا لا سيما أثناء حصار صور في سنوات 586–574 ق.م. وفترة حكم الملك البابلي نبوخذنصر (Nabucodunosor). والملاحظ أنّ المصادر تذكر صراحة هجرة الصّوريين باتجاه قرطاج إثر حملة الإسكندر المقدوني. ورغم استبعادنا لانهيار البحريّة الفينيقية أو لمجابهتها لأزمات هيكلية، فإنّ هدفنا أساسه البحث في تدعم قرطاج بوافدين جدد خلال المرحلة العتيقة، خصوصا وأنّ البحث الأثري أكّد أهميّة امتداد المدينة من خلال القطاعات الأثرية العتيقة علاوة على النّقائش الجنائزيّة التي تذكر الانتماء لصيدا وأرواد ولصور بصفة أهم.

ولعلّنا بناء على هذه الملاحظات نتفهّم الرّيادة الاجتماعية والسّياسيّة للأرستقراطيّة القرطاجيّة، التي تبدو قاسما مشتركا لأهمّ المصادر الأدبيّة، حيث يتلازم الانتماء إلى هذه الفئة مع سلطة كبار أعوان الدولة الذين يشغلون وظائف سياسيّة مدنيّة وعسكريّة أو دينيّة وهو ما يتّضح من خلال النّقائش النذرية أو

الجنائزية التي تنطوي على سلسلة النّسب مبرزة لأسماء الأسلاف ووظائفهم. وعلى سبيل المثال ينصّ محتوى نقيشة جنائزية (CIS.5988) على ما يلي: "قبر بت بعل ربّ الكهنة بنت عبد ملقرت الرّب ابن ماجون ابن بدعشترت السبط ابن أدن بعل السبط ابن عزملك السبط".

تجسّد هذه النقيشة امتدادا لوظيفة سياسيّة عليا "سبط" وأخرى دينية "كبير الكهنة" في أجيال مختلفة داخل عائلتين. وهذا مؤشر يدعم الصورة السّائدة في المصادر الأدبيّة والتي تختزل التاريخ السّياسي القرطاجي في سلطة عائلات أرستقراطية. فإلى جانب الوظيفتين السياسية والدينية المذكورتين ورد في النقائش البونية بقرطاج خطّة أو لقب "ربّ". وحظيت المسألة بتفسيرات مختلفة منذ القرن التاسع عشر من ذلك مثلا أنها تعني ممثّل مؤسّسة سياسية عليا أو رئيس مجلس وافترض أيضا أنها مجرّد لقب شرفي ويميل س.قزال إلى التساؤل عن "النخبة التي يكفي لقب "ربّ" لتصنيفها فهل هي فئة الشيوخ؟".

ويرى آخرون أن صفة "ربّ" تضفي على قدماء الأسباط إلاّ أن م.صنيسار بنبّه إلى محدودية هذه الفرضية مبرزا فئتين من "ربّم" (جمع "ربّ"). فقد ذُكر هؤلاء في بعض النّقائش الرسميّة أو تعريفات الأضاحي بصيغة تأريخ الحدث إذ توجد إشارة إلى فترة "الربّم" بصفة موازية "لسنة السبطين" ومن جهة ثانية ورد في النقائش لقب "ربّ" مصاحبا لاسم علم ويعني في هذه الحالة قائد مجموعة أو مؤسّسة مدنيّة كانت أم عسكريّة. وإجمالا فإنّ البعد الاجتماعي للصيغة المذكورة بمختلف أبعادها والذي ورد أكثر من مائة مرّة في نقائش قرطاج يحيلنا بالضرورة إلى إحدى الشرائح العليا في المجتمع البوني. ومن المفيد التنبيه إلى النقائش التي أثرت دراسة المجتمع البوني. من ذلك أنّ إ.شيفمان (I. Schiffman) أبرز في دراسته لنقائش سردينيا المحتوى الاجتماعي لمن ينعتون بـ"الصّغار" فهم من الأحرار الذين لا يتمتّعون بالحقوق السياسية وامتيازات الأرستقراطية ذات الأصول الفينيقية وفي دراسته لنقيشة كالياري (Cagliari) انتبه نفس المؤلّف

إلى الصيغة البونية التي تذكر مبدئيا الطبقة العليا للمجتمع بعبارة "الكبار" (أ د ر ن م).

وكما أشرنا سابقا، فإن التاريخ الاجتماعي لقرطاج من خلال المصادر الأدبية يبدو تاريخ عائلات أرستقراطية تعاقبت على حكم قرطاج، أو عائلات متنافسة ومُمثّلة في الهياكل السياسية العليا للدولة. وقد ظهرت عائلة ماجون وفقا لرواية يوستينوس منذ أواسط القرن السادس فاحتكرت القيادة العسكريّة إلى بداية القرن الرابع ق.م ويُفترض تركيزها للسلطات السّياسيّة والعسكريّة والدّينيّة. فإنشاء محكمة المائة والأربعة كان للحدّ من الوزن الاجتماعي السّياسي لهذه العائلة وهو ما يعتبره ل.موران (L.Maurin) نتيجة لدِيناميكيّة اجتماعية وتغيير القاعدة الاقتصادية للدولة القرطاجية خلال القرن الخامس ق.م بعد اكتساب مجال زراعي واسع بالمقارنة مع الظهير المحدود للعاصمة البونية أي بعد ظهور أرستقراطيّة تجارية نوّعت مواردها اعتمادا على تجارة المواد الأوليّة والمنتجات الحرفيّة وعائدات المجال الزراعي. وولّد الهامش الاقتصادي الجديد قاعدة قاريّة آمنة بالمقارنة مع مخاطر الملاحة والظروف المضطربة للتجارة والأسواق البعيدة ويمكن أن نرجح دور الممتلكات الزراعيّة في تدعيم استقرار موارد قرطاج. فبعد الصعوبات التي شهدتها العاصمة البونية في صقلية يذكر توقيديداس على لسان سرقوسي أنّه في سنة 415 ق.م "يتوفّر لدى القرطاجيين من الذّهب والفضّة ما يكفي لخوض الحرب ولقضاء غير ذلك من المآرب".

كما يذكر بوليبيوس أنّ قرطاج "كانت قبل سقوطها من أغنى مدن العالم المعمور" وهكذا فإنّ أساس التصنيف الاجتماعي يتجاوز بنية المستوطنات القائمة على الحرف والمبادلات. فالعمق القاري لقرطاج يميّزها عن المدينة الأم صور في حدّ ذاتها حيث دعّم مواردها الاقتصادية وأثّر في بُنية مجتمعها، لكن هل ارتبط ذلك بآليّة اندماج اجتماعي – سياسي في العاصمة البونيّة؟

إنّنا نميل إلى الإجابة بالنفي فالمواطنة في تعبيرها الاجتماعي تبدو مقتصرة على الأحرار من القرطاجيين رغم أنّنا نفتقر لتحديد شروطها مثلما

أبرزنا في الفصل المخصص للمؤسسات السّياسيّة لكن من المرجح أنّها بقيت في حدود القرطاجيين ذوي الأصل الفينيقي. ولعلّنا لهذا السبب نكاد نقتصر في معرفتنا بالعائلات السائدة في قرطاج – وهي عائلات ذات دور سياسيّ من المرجّح أن يكون في علاقة بوزنها الاقتصادي والاجتماعي – على غرار العائلة الماجونية المذكورة آنفا وعائلة حنون وحلفائها المعروفة بنزعتها الاوليغرشية والمحافظة. أمّا العائلة البرقية التي برزت أثناء الحرب الأولى ضدّ روما ووجّهت بعدها سياسة قرطاج فقد عرفت باعتمادها سياسيا على الشّعب الذي يمثّل بعدا أساسيّا في المجتمع القرطاجي. ويشمل الشّعب فئة الأحرار التي نجدها مبدئيا ممثّلة ضمن التجار والحرفيين، لكن أيضا ضمن المالكين العقاريين في المجال الزّراعي، إذا رجّحنا البنية المتوسّطة للملكيات وتأكيد عالم الزّراعة القرطاجي ماجون على نظام الاستغلال أو الإشراف المباشر فإنّ ذلك يدفع إلى القول بوجود فئة من صغار ومتوسطي المالكين القرطاجيين ويد عاملة حرّة في الميدان الفلاحي يذكرها وارو (Varro) باسم (*operarii*). لكن يبقى التساؤل مطروحا بشأن المنزلة القانونية للّوبيين والنوميديين الأحرار والخاضعين لإدارة القرطاجيين والذين كانوا يوفّرون للعاصمة البونية إحتياجاتها الرئيسية من الحبوب. فمن غير المستبعد أن تكون قرطاج قد تصرّفت تجاههم من منطلق المتحكّم في "الملكية السّامية للأرض" (propriété éminente) وفي ذلك ضمان لتواصل الانتاج من جهة ولتغيّر مقدار الضرائب حسب احتياجات الدولة القرطاجية من جهة أخرى.

ويتمثّل منحى الدراسات المتعلّقة بالمجتمع القرطاجي في التأكيد على الوزن الاجتماعي والسياسي لطبقة الأحرار ثمّ البحث في أهمية فئة العبيد ودورهم الاقتصادي إضافة إلى فئة ثالثة يمكن تسميتها بـ"الأحرار الخاضعين للإدارة القرطاجية" ويُسمّون أيضا "أنصاف الأحرار أو شبه الأحرار" وهم ممثّلون بشكل واسع ضمن مختلف شعوب الإمبراطورية البونية. ولعلّ ديودوروس الصقلي (XX, 55, 44) حاول تجسيد وضع الأفارقة في ثورتهم ضدّ قرطاج في

بداية القرن الرابع ق.م حين أشار إلى أنّه كان "يحركهم حقد دفين تجاه القرطاجيين بسبب وطأة علاقات الهيمنة" المفروضة عليهم.

تمدّنا مصادر الحرب الثانية بتفسير مماثل لردّ فعل الأهالي الإيبيريين المناهض لقرطاج والداعم للرومان في إسبانيا. لكنّ هذه الأحكام لا يمكن أن تحجب عنا العلاقات الخاصة بين قرطاج ونخب الأهالي. وقد أشرنا إلى أمثلة تهمّ نخب الأفارقة في الفصل المخصّص للحضور القرطاجي في المجال الإفريقي. كما نلاحظ في سردينيا نوعا من الملاءمة بين نفوذ قرطاج ومصالح الأرستقراطية المحلية بالجزيرة. أمّا مثال إيبيريا فيفصح عن تحالفات عزربعل وحنبعل البرقي مع قادة وأرستقراطيات شعوبها التي تُوّجت بعلاقات مصاهرة ومكّنت من التحكّم في قاعدة قاريّة ساعدت قرطاج على تجاوز مصاعبها المالية بعد الحرب الأولى وحرب المرتزقة وفقدان كورسيكا وخاصة سردينيا، ثمّ إنّ الإيبيريين كانوا يمثّلون نواة رئيسية في حملة حنبعل على إيطاليا.

أمّا فيما يتعلّق بطبقة العبيد فإنّ ماجون يسهب في التركيز على أهمية اليد العاملة العبودية في المجال الفلاحي ومقاييس اقتناء العبيد وتنظيم عملهم. وتؤكّد الرّوايات التاريخيّة الأهمية العدديّة للعبيد في المجال الزّراعي القرطاجي في الوطن القبلي، سواء في أواخر القرن الرابع ق.م أو منتصف القرن الثالث ق.م. وتتضح نفس الأهميّة العدديّة في قرطاج منذ أواسط القرن الرابع ق.م على الأقلّ حيث يذكر يوستينوس أنّ حنون الأكبر قام بتجميع وتجنيد عشرين ألفا من العبيد في محاولة للاستيلاء على السلطة. ورغم التحفظ تجاه هذا التقدير العددي فإنّنا نعرف أهميّة سبل الاستعباد وهي متمثّلة في أسرى الحروب والقرصنة إضافة إلى سوق العبيد التي يرتادها القرطاجيّون في جزر الباليار حسب رواية تيماوس الطاورميني. وتذكر النقائش حالات عتق عبيد بقرار من لجنة في صلب مجلس الشعب لها صلوحية النظر في هذه المسائل.

ومن المرجح أيضا أن يشتري العبد حرّيته كما نجد نقائش نذرية لعبيد وتنصيصا على حق العبيد في الزّواج وهو ما يعتبره الكاتب المسرحي اللاتيني

ماركوس بلاوتوس (254 –184 ق.م) استثناء مثيرا للتعجب في كلّ من بلاد الإغريق وقرطاج وهو ما يؤكده عالم الزراعة ماجون الذي يفضّل عبيد الولادة.

دفعت هذه المؤشّرات للتساؤل عن الإطار القانوني لعلاقات الإنتاج العبوديّة في قرطاج، ويعتبر موزس فينلي (M.I.Finley) أنّ قرطاج أرست أسسا قانونيّة مختلفة للعلاقات العبوديّة" مقارنة بروما. ويمكن تبيّن أهميّة اليد العاملة العبودية في الوسط الحضري بقرطاج اعتمادا على رواية أبيانوس يذكر فيها لعتق الجماعي للعبيد وتجنيدهم للدّفاع عن المدينة عند بدء الحرب الثّالثة ضدّ روما. والملاحظ أنّ النقائش النذرية للعبيد تنصّ على اسم العبد وسيّده أو نسبته إلى سلف أو أسلاف من العبيد. أمّا النقائش التي تذكر "العبد" في علاقة بالمعبد فإنّها تدلّ على الأرجح على حالة التّفرّغ والالتزام بخدمة المعبد، وإذ اعتمد م.ح. فنطر هذا التفسير فإنّه يترك مجالا لإمكانية وجود عبيد على ذمّة المعبد أو كملكية له.

وخضعت صورة المجتمع القرطاجي لدى العديد من الباحثين إلى تبسيط مفرط يقوم على ثنائية الأرستقراطية والعامة من الأحرار من جهة ثمّ الأهالي الخاضعين للإدارة القرطاجية والعبيد والأجانب من جهة أخرى إذ يعتبر س.قزال مثلا أن الطبقة الحاكمة في قرطاج مفتوحة لمن يبلغون مستوى من الثّروة وإن بقي هذا الطموح محدود التّحقق. ولاحظ م.ح.فنطر مؤشّرا لهذه الديناميكية الاجتماعية من خلال النّقائش النّذرية أو الجنائزية التي تذكر سلسلة نسب يشغل فيها النّاذر أو المتوفى وظيفة سياسية أو دينية عليا لم يتولّها أسلافه. ونجد عكس هذه الظّاهرة تماما أي أن المعني بالأمر في نقائش أخرى لم يشغل وظيفة عليا، في حين نجدها مثبتة لدى والديه أو أجداده.

وتعتبر النقائش مصدرا مباشرا رئيسيا لضبط الفئات المهنية المُمثّلة في قرطاج وتصنيفها.

وبما أنّنا اعتمدنا نفس المصدر في إبراز الوظائف السياسية المدنية وتحديدا وظيفة الأسباط فالنقائش تذكر إلى جانب الأسباط وظائف الكهنة وكبار الكهنة وهي عدديا أهمّ من النّصوص النقائشية التي تذكر المهن والوظائف الاقتصادية حسب تصنيف أحمد الفرجاوي الذي أشار إلى توزع داخلي لها يتميز بأهمية النقائش التي تذكر التّجار بمفهوم التّجار الصّغار أو تجار التفصيل المحليين (م ك ر) مثل تجار المعادن و العطورات والذّهب والقماش أو بمفهوم التّجار الكبار أو الذين يتعاطون التصدير والتوريد (ش خ ر) وهي فئة هامّة في مدينة تستقطب حركة التّجارة المتوسّطية.

أمّا المهن المحدّدة لهذه الحركة التجاريّة فتعبر عنها النقائش بصيغة عامّة تتمثّل في عبارات "الحرفي" (خ ر ش) أو "القائم أو المشرف على الحرفيين" (ف ع ل . خ ر ش) كما نلاحظ تخصيصا واضحا على بعض الإختصاصات مثل مهنة السّباك – (ن س ك) وتحديدا لسادة السبك أو الصّهر: سبك الحديد (ن س ك. هـ د ر ز ل) أو البرنز (ن س ك. هـ ن خ ش ت) أو الذهب (ن س ك. هـ ن ر س) ويمكن ضبط صفة الحرفي أو الصانع (ف ع ل) لأنّ العبارة مصحوبة بنعت وظيفي: مثل الصّانع (ف ع ل. خ ر ش). ومن الحرف المذكورة نجد الحرف المرتبطة بالخشب وهي تحيلنا على قطاع رئيسي وهو صناعة السّفن لكنّها مذكورة في حدود وظيفية نجار (ن ج ر) أو صانع العربات وذُكرت أيضا مهن النّسيج والبناء بمدلول البناء والمهندس المعماري والمختص في الزينة وصنع الرّخام و القيس وتضمنت "النقيشة المعمارية" بقرطاج تعداد قائمة حرفيين وهم النقّالون والصّاغة والفخاريون والمشرفون على الأفران إلى جانب التجّار وقد ساهموا جميعا في أشغال تهيئة شارع جديد خلال القرن الثالث ق.م.

ومن الفئات المهنيّة أيضا الكتبة بصيغة (ش ف ر) التي تعني الكاتب أو النّاسخ ثم (ربّ ش ف ر م) أي رئيس الكتبة مما يفترض اعتبارهم فئة كتبة على ذمّة الدّولة أو الإدارة. وورد في نقائش سيرتا (Cirta) (قسنطينة) ذكر

(*م ش ط ر*) ويرى م.سنيسار أن جذر (*ش ط ر*) ذي الأصول الأكاديّة (*ش ط ر*) ومعناها كتب وهو نفس المدلول في العبرية التوراتية لذا فالأقرب للظن أن الصيغة المذكورة تدلّ على موظفٍ عسكري أو مدني كما أن الصيغة المركّبة (*ربّ م ش ط ر ت*) يعني وظيفة إدارية عسكرية. وفي نفس السياق يمكن الإشارة إلى النقيشة التي تذكر كاتبا سلفه معتوق. وترى بعض الدراسات أنّ المعابد والكهنة ساهموا في إشاعة الكتابة لكن الحركية الفكرية في قرطاج ومتطلّبات الإدارة القرطاجية ساهمت بدون شكّ في نشأة حركة تعليميّة تتجاوز المؤسّسة الدينية.

وقد أشرنا في بداية هذا الفصل إلى انفتاح قرطاج على هجرات الفينيقيين من القرن الثامن إلى حملة الاسكندر المقدوني على صور. وقد أدّت هذه الحملة إلى هجرة مثبتة في المصادر الأدبيّة. وبديهي أن تكون قرطاج العاصمة البونية المنفتحة على التجارة المتوسطية وعلى عمقها القاري الإفريقي جاذبة لعناصر أجنبية ومهيأة لإدماجها. وقد أشرنا إلى أنّ الأهالي الأفارقة أرسوا علاقات تبادل مبكرة مع القرطاجيين يؤكّدها الخزف المقولب المحلي الذي عثر عليه بكميّات هامّة في مستويات السكن العتيق المؤرّخ بالقرن الثامن ق.م. واحتوت بعض قبور القرن السابع ق.م على هياكل عظيمة مطلية بأحمر المغرة وهو تقليد جنائزي محلّي تماما. وقد تبنّى الأهالي التقاليد الجنائزية الفينيقية وهو ما يفسّر حضور الأسماء اللّوبيّة لبعض الحرفيين أو التجار في قرطاج. ولعلّ مجمل هذه المؤشرات تفسّر مشاركتهم المبكّرة في عمليات التوسع القرطاجي كعناصر فاعلة منذ القرن الخامس ق.م على الأقل. ولا يعني ذلك حصول عمليّة إدماج شاملة للأهالي فغرضنا مجرّد إثبات وجودهم في صلب النسيج الاجتماعي للعاصمة البونيّة.

ومن الأجانب الشرقيين في قرطاج تذكر النقائش أسماء مصرية على غرار "عبد رع" و"عبد *أوزريس*" أو اسم مصري ومصرية (*مصري ابن بعل ملك ابن بُدْ أشمون*). ورغم أهميّة التأثير المصري في الميدان الفني والحرفي فإنّ

الشواهد المذكورة لا تسمح لنا بمراجعة أصول هذه العائلات ونسبها خلافا لما هو الشأن بالنسبة إلى الإغريق. وقد أشرنا في الفصل المتعلّق بالمصادر الأدبية إلى أهميّة نشاطهم التعليمي بقرطاج. ومن أبرز الأمثلة على ذلك المعلّمون الإغريق الأربعة بالمدرسة الفيثاغورية الذين ذكرهم إمبيليخوس. وتدفعنا رواية يوستينوس إلى مزيد التساؤل حول درجة التأثير الإغريقي في قرطاج. ذكر المؤلّف عند استعراضه لأحداث سنة 368ق.م وعودة الحرب بين قرطاج وسرقوسة إسناد قيادة الجيش لحنّون الأوّل الأكبر، لمّا عمد خصمه أشمون يعطا (سنياتوس – Suniatus في المصدر اللاّتيني المذكور) إلى توجيه رسالة كتبت بالإغريقية لديونيزوس الأكبر يعلمه فيها بمخطط الحرب فوقعت الرسالة بأيدي السلطات القرطاجية التي أدانت الخائن وأصدرت "قانونا يمنع القرطاجيين من تعلّم اللّغة والآداب الإغريقية حتى لا يقدر أيّ كان على مخاطبة العدوّ أو مراسلته". وسواء سلمنا بصحّة الرّواية أو افترضنا افتعال حنّون الأكبر الأمر لإقصاء خصومه فإنّ هذه الرّواية تدعم فرضيّة الإلمام باللّغة الإغريقيّة في أوساط النّخبة السّياسيّة على الأقل. ويمكن تفسير هذه الظّاهرة بالعلاقات بين البونيين وإغريق صقلية دون أن نستبعد أهميّة الجالية الإغريقيّة في قرطاج. ونجد في مستوى ثان أبناء الزيجات المختلطة الإغريقية القرطاجية ويمكن معاينة الظاهرة في الاتجاهين منذ فترة مبكّرة فأمّ عبد ملقرت الماجوني قائد الجيش القرطاجي سنة 480 ق.م إغريقية من سرقوسة كما غادر نفس المدينة نحو قرطاج (بعد 289 ق.م) أحد خصوم أبناء آغاتوكلاس وتزوّج من قرطاجيّة وأصبح حفيداه هيبوقراطس (Hippocrate) وإيكودس (Epicyde) من أبرز مساعدي حنبعل البرقي الذي كلّفهما سنة 215 ق.م. بعقد التّحالف بين قرطاج وسرقوسة.

ويذكر ديودروس الصقلّي (77, XIV) تبنى عبادة الإلهة دمتير وابنتها كُوري (Demeter et Korè) في قرطاج سنة 396 ق.م وتكليف كهنة إغريق بالإشراف على الطقوس الدينية ورعاية المعبد.

وتدلّنا النّقائش على وجود حرفيين ذوي أصول إغريقية بقرطاج أبرزهـــم بويثوس القرطـــاجي (Boethos fils d'Apollodoros Carchedonios) الـــذي اختص في إنتاج التماثيل والتحف البرنزية.

وأبرز ج.ش.بيكار معالم العلاقات بين الأترسكيين وقرطاج اعتمـــادا على بعض النّقائش والمعطيات الأثرية، لا سيما وأنّ إطار الروابط التّحـــالف بين الطرفين منذ الثلث الأخير للقرن السادس ق.م يرجح الحضور المبكّـــر لممثّلي المدن الأترسكية بقرطاج. وقد امتدت هذه العلاقة إلى رومـــا وهـــي مثبتة في تنظيم حضور التّجار الرّومان في قرطاج والمناطق الخاضعة لـــها وفقا لمعاهدتي 509 و348 ق.م. وتبرز المصادر الأدبية تواصـــل نشـــاطهم التجاري في الموانئ البونية جنوب المتوسّط خلال أكثر الفترات اضطرابـــا مثل حرب المرتزقة أو قبيل الحرب الثالثة.

مصادر الفصل السابع ومراجعه

حول المبادلات يمكن العودة إلى :

- BISI (A.M), « Importazioni e imitazione greco-geometriche nella piu antica ceramica fenicia d'Occidente », in, *Atti del I Congresso di Studi Fenici e Punici.* Roma (1983), pp. 693-717.

- BONDI (S.F), «I Fenici in Occidente», in, *forme di contatto e processi di trasformazione nelle società antiche. Atti del Congresso di Cortona 1981.* Pisa - Roma (1983), pp. 379-407.

- BOUCHER – COLIZIER (E), «céramique d'importation au Musée Lavigerie de Carthage», in, *Cahiers de Byrsa, III,* (1953), pp. 11-38.

- «Les Etrusques à Carthage», in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, 65* (1953), pp. 63-98.

- CHELBI (F), «Les vases à vernis noir des nécropoles carthaginoises de la fin du Vème siècle à la fin de la deuxième guerre punique», in, *CEDAC, Dossier I. Actes du Colloque sur la céramique antique* (1982), pp. 23-41.

- CHELBI (F), *La céramique à vernis noir de Carthage.* Tunis, 1992.

- CARLOS GOMEZ BELLARD, «L'île d'Ibiza dans le commerce en Méditerranée occidentale à l'époque archaique: Quelques données nouvelles», in, *Studia Phonecia, IX,* (1992), pp. 299-311

- FERRON (J), «Les relations de Carthage avec l'Etrurie», in, *Latomus, 25,* (1966), pp. 689-709.

- GRAS (M), «Les importations du VIème siècle av.J.C à Tharros (Sardaigne)», in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, 86;* (1974), pp. 78-139.

- *Trafics Tyrrhéniens archaïques*, Rome, (1985).

- «La Méditerranée occidentale, milieu d'échanges: Un regard histiriographique», in, *Les Grecs et l'Occident Actes du Colloque de la Villa "Kerylos" 1991.* Paris, (1995), pp. 109-123.

- GSELL (S), *HAAN.* Tome IV pp. 1-169.

- LANCEL (S), «La céramique phénico-punique de la nécropole archaïque de Byrsa», in, *Actes du Colloque sur la céramique antique Carthage. CEDAC Dossier I,* (1982), pp. 1-7.

- MAC INTOSH TURFA (J), «evidence for Etruscan-Punic relation», in, *American Journal of Archaeology, 81,* (1977), pp 369-374.

- MOREL (J.P), «Notes sur la céramique étrusco-campanienne - Vases à vernis noir de Sardaigne et d'Arezzo», in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, LXXV,1* (1963) pp. 7-58.

- «La céramique à vernis noir et à figures rouges d'Afrique avant la deuxième guerre punique et le problème des importations de Grande - Grèce», in, *Antiquités Africaines, 15,* (1980), pp. 29-90.

- «La céramique à vernis noir de Carthage-Byrsa: nouvelles données et éléments de comparaison», in, *Actes du Colloque sur la céramique antique CEDAC, Dossier I* (1982), pp. 43-76.

- «Les importations de céramiques grecques et italiennes dans le monde punique (Vème - Ier siècle) », in, *Atti del'I Congresso internazionale di Studi Fenici e Punici, Vol III,* Rome (1983), pp. 731-740.

- «La céramique à vernis noir de Carthage, sa diffusion, son influence», in, *Cahiers des Etudes Anciennes, XVIII,* (1986), pp. 25-68.

- «Etudes de la céramique campanienne. L'atelier des petites estampilles», in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, 81,* (1969), pp. 59-117.

- «La Sicile dans les courants commerciaux de la Méditerranée sud-occidentale d'après la céramique à vernis noir», in, *Miscellanea in onore di Eugenio Manni. Rome* (1979), pp. 1563-1582.

- «Nouvelles données sur le commerce de Carthage punique entre le VIIeme siècle et le IIème siècle av.J.C », in, *Actes du IVeme colloque international sur l'Histoire et l'Archeologie de l'Afrique du Nord Strasbourg 1988,* Paris (1990), pp. 67-100.

- «Carthage, Marseille, Athènes, Alexandrie (note sur le commerce de Carthage avec quelques métropoles méditerranéennes», in, *Actes du IIIème Congrès international des Etudes Phéniciennes et Puniques* Tunis (1995), pp 264-281.

- MOSCATI (S), «Rapporti tra Greci, Fenici, Etruschi ed altre popolazioni italiche alle luce delle nuove scoperte», in, *Quaderni dell'Acc Nazionale dei lincei, 87,* (1966) pp.1-9.

- «La Sicilia fra l'Africa fenicio-punica e il Tirreno», in, *Kokalos, 26-27* (1980-1981), pp. 80-98.

- «Dall' Egitto alla Sardegna il personnagio con "ankh"», in, *Rendiconti dell' Accademia Nazionale dei Lincei, ser VIII, 36,* (1981), pp 193-196.

- «Dall'Egitto a Cartagine», in, *studi in onore di Edda Bresciani* (1985), pp. 355-361.

- PALLOTINO (M), «Les relations entre les Etrusques et Carthage du VIIè au IIè s.av.J C. Nouvelles données et essai de périodisation», in, *Cahiers de Tunisie, 11,* (1963), pp. 22-28.

- «La Sicilia e gli Etruschi», in, *Kokalos, 14-15* (1968-1969), pp. 339-343.

- «La Sicilia fra l'Africa e l'Etruria. Problemi storici e culturali», in, *Kokalos, 18-19* (1972-1973), pp. 48-70

- PICARD (C), «Notes de chronologie punique. Le problème du Vème siècle», in, *Karthago, XII,* (1963-1964), pp. 17-27.

(إستنتاجات هذا العمل تمّ تجاوزها)

- RAMON (J), *Ibiza y la cirulacion de anforas fenicias y punicas en el Mediterraneo occidental*

Trabajos Del Museo Ariqueologicos de Ibiza, 1981.

- TSIRKIN (B), «The economy of Carthage», in, *Studia Phoenicia VI,* (1987), pp. 125-135.

- TUSA-CUTRONI (A.), «La presenza del bucchero a Selmunte: suo significato», in, *Kokalos, XII,* (1966), pp 240-248.

- VERCOUTTER (J), *Les objets égyptiens et égyptisants du mobilier funéraire carthaginois* Paris, 1945.

حول العملة ننصح بالعودة إلى :

ACQUARO (E), «coins», in, *The Phonicians, (Milan)* (1988), pp. 464 et suiv.

- JENKINS (J.L), «Coins of Punic Sicily», in, *Revue Suisse de Numismatique*

+ Part I, vol. 50 (1971), pp. 25-78

+ Part II, vol 53 (1974), pp. 23-41

+ Part III, vol. 56 (1977), pp. 5-65

+ Part IV, vol. 57 (1978), pp 5-68.

- JENKINS (G L), LEWIS (R.B), *Carthaginian gold and electrum coins,* Londres, 1963.

- MANFREDI (L.I), «Monete puniche. Repertio epigrafico e numismatico delle leggende puniche», in, *Bollettino di Numismatica, Monografia 6 Rep.* 1995.

- «Ripostigli di monete puniche a Siracusa», in, *Bollettino di Numismatica. Monografia 6.1,* (1989), pp. 61-64.

- NICOLET (H), «Les monnaies puniques», in, *(exp. de Carthage à Kairouan)* pp. 87-95.

- RAHMOUNI (L), *Recherches sur le monneyage punique.. Essai de synthèse,* (Thèse dact) préparée sous la direction de M. LEGLAY Paris- Sorbonne, 1986.

- TUSA-CUTRONI (A), «monetazione e circolazione», in, *Nozia III Rapp preli della Miss della Sicilia Occi e dell' Uni di Roma).* (1967), pp. 97-121.

- VISONÀ (P), «Numismatique - Occident», in, *La civilisation phénicienne et punique - Manuel de recherche ouvrage collectif sous la direction de Krings (V), Leiden - New - York* 1995, pp. 166-181.

حول الفلاحة القرطاجية انظر مثلا :

- *Les Argonomes latins: Caton, Varron, Columelle, Palladius.* - Texte et traduction - S/D de DE M. NISARD. Paris· Firmin - Didot. s.d.

- CAMPS – FABRER (H), *l'oliver et l'huile dans l'Afrique romaine,* Alger, 1975.

- CECCHINI (S), *Problèmes et aspects de l'agriculture Carthaginoise, dans B.C.T.H,* 1985, pp. 107 -117.

- FANTAR (M.H), *Kerkouane: Cité punique du Cap Bon. T III,* Tunis, 1986.

- *Carthage: Approche d'une civilisation,* Tunis, 1993 T1 Chap VI.

- FEVRIER (J.G), *Remarques sur le grand tarif sacrificiel de Marseille. Dans Cahiers de Byrsa VIII,* (1958-1959), pp. 35-43

- GSELL (S), *H.A.A.N. T II.*

- GUYOT (L), *Histoire des plantes cultivées.* Paris, 1963.

- HEURGON (J), «L'agronome carthaginois Magon et ses traducteurs grecs et latins», in, *CRAI, 3e trim.* (1976), pp. 441-456.

- IBN AL AWWAM, *Le Livre de l'agriculture traduit de l'arabe par Clement MALLET,* Tunis, 1977.

ابن العوّام (أبو زكرياء يحي الاشبيلي) – كتاب الفلاحة (مع ترجمة إلى الإسبانية) – مدريد 1802.

- MARTIN (R), *Recherches sur les agronomes latins et leurs conceptions économiques et sociales,* Paris: Les Belles Lettres, 1971.

- PICARD (G-Ch) et (C), *la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal* IIIe S. av. J.C. Paris, 1982.

- SAVOY (E), *L'agriculture à travers les âges: Histoire des faits, des institutions, de la pensée et des doctrines économiques et sociales.* Paris, 1937, T. I et II.

- SPERENZA (F), *Scriptorum Romanorum de Fe Rustica reliquire Collegit recensuit,* Messina, 1977.

- SZNYCER (M), «Le problème de la Mégara de Carthage», in, *B.C T.H* (1985) pp. 123-135.

- TIXERONT (J), *Réflexions sur l'implantation ancienne de l'agriculture en Tunisie, Karthago - X,* (1959), pp. 39-58.

- XELLA (P), *Quelques aspects du rapport économie - religion d'après les tarifs sacrificiels puniques. Dans B.C.T.H. Fasc. 19 b,* (1983), p. 39-45.

حول المجتمع انظر مثلا :

- DUPONT-SOMMER (A), "Une nouvelle inscription punique de Carthage", in, *CRAI,* (1968), pp. 116-133

- FANTAR (M.H), *Carthage : Approche d'une civilisation (Chap. VI: La société carthaginoise),* Tunis. Alif, 1993

- FERJAOUI (A), "Apropos des inscriptions mentionnant les sufètes et les rabs dans la généalogie des dédicants à Carthage", in, *Actes du congrés des études pheniciennes et puniques, II,* Tunis, (1991). pp. 479-483

- "Fonctions et métiers de la Carthage punique à travers les inscriptions", in, *REPPAL, VI,* (1991), pp. 71-86.

- GSELL (S), *H.A.A.N* T II et IV.

- GUNTER (L.M), "L'aristocratie des grands négociants à Carthage et sa politique d'outre-mer aux VIè et V siècles avant J.C", in, *Actes du Congrés des études phéniciennes et puniques I.* Tunis, (1995), pp. 128-131.

- LANCEL (S), *Carthage*. Paris, Fayard, 1992.

- MAHJOUBI (A), FANTAR (M.H), "Une nouvelle inscription carthaginoise", in, *Rendiconti della Accademia Nazionale dei Lincei, 21, fasc 7-12,* (1966), pp. 201-210.

- MOSCATI (S), *I Fenici e Cartagine*. Turin, 1972.

- PICARD (G-Ch), et COLETTE. *La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal (IIIs avant J.C)* 2é éd. Paris, 1982.

- SZNYCER (M), *Les noms de métiers et de fonctions chez les phéniciens de Kition d'après les temoignages épigraphiques,* Chypre - La vie quotidienne de l'Antiquité à nos pours. Paris, 1985, p. 78-86.

الفصل الثامن

الديانة القرطاجية

استأثرت الديانة الفينيقية – البونية منذ أمد بعيد باهتمام الدارسين غير أن طبيعة المصادر المعتمدة لهذا الغرض وامتدادها على حيّز زمني وجغرافي متّسع عقّد تناول هذا الجانب من تاريخ هذه الحضارة. ونشير في ما يلي باقتضاب إلى أهم ما تطرحه هذه المصادر من إشكاليات.

المصادر النقائشية

تعتبر النصوص النقائشية مصدر معلومات لا يمكن للمهتم تجاهله بحكم طابعها المباشر وتشير النقائش البونية – بالرغم من طابعها الرتيب – إلى مجموعة هامة من أسماء الآلهة وقد توفّر أحيانا إضافات قيّمة تتعلّق بالحياة الدينية (نفقات المعابد، الخطط الدينية،...).

المصادر الأثرية

يجدر التأكيد في البداية على ندرة الرسوم التي يمكن نسبتها إلى آلهة قرطاج بصورة مؤكدة وذلك على نقيض الرسوم المجرّدة التي يواجه المختصّون حتى يومنا الحاضر صعوبات في فهم دلالاتها وهو ما يستوجب حذرا كبيرا في استعمالها بحكم غياب نصوص ميثولوجية قرطاجية من شأنها أن تساعد في هذا الاتجاه. ونذكر من بين الرسوم التي ذاع استعمالها على الأنصاب، الأقراص، الهلال، الدوائر، الرمز المنسوب اصطلاحا إلى الإلهة تانيت وغيرها.

المصادر الأجنبية

بسبب فقر المادة المصدرية المباشرة يلجأ المؤرخون غالبا إلى اعتماد مصادر أجنبية عن هذه الحضارة وبديهي أن تمتدّ هذه المصادر كما أشرنا إلى ذلك آنفا على حيّز زمني وجغرافي واسع جدّا.

لا يمكن للدارس إهمال وثائق تتعلّق أصلا بديانة فينيقي الشرق بحكم أننا نعلم أن لا مجال لفهم ديانة القرطاجيين دون العودة إلى المهد الشرقي الذي نشأت فيه.

في هذا الإطار يتنزل اعتماد الباحثين على:

– التوراة: تحوي التوراة مادة هامة تتعلّق بعبادة "الكنعانيين" نذكر من بينها على سبيل المثال الإشارات المتعلقة بالقرابين البشرية والبغاء المقدّس... غير أن استثمار هذه الإشارات ظلّ محدود النتائج بسبب طغيان النزعة الذاتية لدى معظم الباحثين باعتبار أنّهم تناولوها بالدرس من منظور الصراع القائم بين ديانة سماوية (ديانة بني إسرائيل) وطقوس "بربرية" "متوحشة" دأب الكنعانيون على اتباعها.

– النصوص الأكّادية والمصرية: سمحت هذه النصوص بدورها باستقراء بعض المعلومات المرتبطة بالجانب الديني في جبيل. وأبرز مثال على ذلك رواية "وان أمون" التي ترقى إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد ونص المعاهدة المبرمة بين اشرحدون وملك صور والتي يشير إلى أسماء الآلهة الآشورية والفينيقية التي تسهر على احترام الجانبين لما ورد في نص المعاهدة.

– النصوص – الإغريقية – الرومانية: يقدم الكتاب الإغريق والرومان معلومات هامة تتعلق بالآلهة والطقوس الفينيقية – البونية ونذكر من بين هؤلاء هيرودوت وديودروس الصقلي وبلوتارخوس وسترابو وبوليبيوس وفلافيوس جوزاف وتيتوس – ليويوس وبلينوس الأكبر ويوستينوس... ويتطلب استعمال ما ورد على ألسنة الكتاب الإغريق والرومان حذرا فائقا ذلك أننا نجد أنفسنا أمام إشكال دقيق بسبب لجوء هؤلاء إلى مماثلة (Identification) الآلهة الفينيقية – البونية بآلهة إغريقية ورومانية. وكما أحكم بيان ذلك م.ستيسر فانه بداية من تاريخ ما يختلف باختلاف المنطلق شرع الكتاب الكلاسيكيون في البحث عن أوجه التقارب والشبه بين الآلهة الفينيقية – البونية والآلهة الإغريقية الرومانية ثم

المماثلة بينها ممّا ولّد في مرحلة لاحقة خلطا كبيرا ولعلّه يجب أن يظل حــــاضرا في الأذهان أن هذا التوجه لم يكن موحدا وأنه كان في اتجاه واحد لذلــك تختلــف المماثلة حسب الزمان والمكان.

إجمالا وبالرغم من تنوعها يتطلّب استعمال المصادر التي بحوزة الـدارس حذرا معرفيا كبيرا يجنّب الإقدام على تقديم فرضيات مجازفة. وستقتصر جـهودنا على امتداد هذا الفصل على محاولة مدّ القارئ برؤية مبسّطة حـــول مـــا أمكــن التوصل إليه في دراسة هذا الجانب من حضارة قرطاج مركّزين بالدرجة الأولـــى على أشهر الآلهة.

بعل حمّون

يعتبر أحد أشهر آلهة قرطاج ولقد ورد ذكره فــي النصــوص النقائشــية المكتشفة سواء داخل العاصمة البونية أو خارجها آلاف المرات. وتنبغي الإشــارة إلى أن النصوص النذريّة القرطاجية العتيقة اقتصرت على ذكر اسـم هــذا الإلــه بمفرده ثم وانطلاقا من القرن الخامس، على الأرجح، ورد اســمه مســبوقا باسـم الإلهة تانيت.

تجمع كلّ الدراسات على القول أن بعل حمون احتل مكانة متميزة ضمــن آلهة قرطاج. ولقد تواصلت عبادة هذا الإله حتى تاريخ متأخر جدًا. وبالرّغم مــن سعة انتشاره تظل جوانب متعلقة ببعل حمون غامضـــة وموضـــوع جـدل بيــن المؤرخين حيث تتضارب الآراء حول جذور هــذا الإلــه وطبيعتــه. وللتبسـيط سنعرض على القارئ اشهر الفرضيات المقدّمة في إطار دراســة هــذه النقطــة. ولمزيد الإيضاح نشير إلى أن التباين بين أصحاب هذه الفرضيات مردّه اختلافــهم في فهم الجزء الثاني من اسم هذا الإله أي حمون.

* يعتقد البعض أن اله قرطاج بعل حمون يوافــق بعــل (ســيّد) جبــل الأمانوس. وهي فرضية قدّمها لأوّل مرّة ج.هــاليفي (J. Halevy) منــذ ســنة

1883 وقد أعطى اكتشاف نقيشة الملك كيلاموا (Kilamua) التـي تذكـر بعـل حمون في زينجرلي (توجد شرق جبل الامانوس جنوب شرق تركيا) دفعا كبـيرا لهذه الفرضية التي حـازت ثقـة عـدد مـن المختصيـن مثـل م.ج.لاغرانـج (M.Lagrange) و.م.ليدبرسكي (M.Lidzbarski). وإ.ليبنسكي. (E. Lipinski)

* خلافا لذلك يرى البعض الآخر أن بعل حمون يعني سيد مذبح البخور.

ذلك أن "حمن" تعني حسب هؤلاء المبخرة أو مذبح البخـور وقـد تعنـي أيضا الدّعامات المقدّسة التي اعتبروها إحدى السمات المميزة لعبادة بعل حمـون. وهي ترتبط بالجذور الكنعانية البعيدة. وللإيضاح نذكـر ان لفظـة "حمـن" (في الجمع) وردت في التوراة وترتبط بالجذر حمن (=الساخن – الحار) ويتبنّى هـذه النظرية اتباع كثّر مثل ف.ك. موفارز (F.Moovers) و.ر.ديسو (R.Dussaud) وأ.ديبـون – سـومار (A. Dupont-Sommer) وف.ألـبرايت (F.Albright) وغيرهم.

. * فرضية أخرى قارب صاحبها ف.لونورمان (F.Lenormant) بين بعل حمّون اله قرطاج وزوس – أمون إله طيبة (Thèbes) الذي كان يعبد في واحـة سيوا.

* فرضية رابعة قدمها الباحث م.ح.فنطر تعتمد الربط بيـن لفظـة حمـن والجذر حمى – يحمي وقد اعتمد الكاتب علـى نقيشـتين نحمـل الأولـى رقـم CIS,I,405 والثانية CIS,I,406 وتحوي النقيشتان عبارة لحمنن التي اقترح فهمـها في اتجاه لحامينا (النون هي لضمير المتكلم الجمع).

* خصص الباحث الإيطالي ب.كسلا (P.Xella) دراسة مستفيضة لبعـل حمون تناول فيها مختلف الفرضيات المقدمة غير انه فلم ينفيها جميعا مدافعا عـن فكرة أن تكون بعل حمون تعني اله المعبد وهي فرضية سبقه إليها آخرون.

يصعب تقديم أجوبة نهائية حول طبيعة هذه الإله القرطاجي. ولكن يمكـن وباعتماد مختلف المصادر الكلاسيكية أن نلاحظ أن الكتاب اللاتينيين ماثلوا بعـل

حمون بالإلهين كرونوس وساترنوس وتدعم اللقى النقائشية والأثرية هــذه الفكــرة وهو ما دفع بمعظم الدارسين إلى اعتباره اله للفلاحة والخصوبة والضامن لــثراء المدينة. وهي محاور تجد دعما لا يستهان به إذا قبلنا بمبدأ نسبة بعــض الرمــوز التي نجدها على العملات ولقد عثرنا أولا سنابل القمح التي نلاحظــها بيــد الإلــه المجسم على بعض المسكوكات المتأخّرة زمنيّا والمكتشفة في هدرمتوم خاصة.

وتمكّن لقى عديدة عثر عليها في كلّ مــن قرطــاج وهدرمتــوم ولوتيكــا وتينسّوت (قرب بئر بورقبة) وسيرتا بتحسّــس الصــورة التــي كــان يحملــها القرطاجيون عن هذا الإله. وقد مثّلت معظم هذه الوثائق بعل حمون علــى شــكل رجل كثّ اللحية جالس على العرش في وضع مهيب يرفع أحيانا يــده لمباركــة المتعبدين. (أنظر اللوحة رقم 1)

باعتماد الإسامة نلاحظ أن "حمّون" على نقيض "بعل" لا يدخل في تركيبــة أي اسم قرطاجي. لكن لا يمكن الجزم بأن مفردة "بعل" ترتبط بالتأكيد ببعل حمّــون ومن بين أكثر الأسماء تداولا يمكن أن نشير إلى بعل يتون، بعل ملك، بعل عــزر، بعل شلك، عبد بعل، عز بعل.

تــانيت

تعتبر الإلهة تانيت إحدى أكثر آلهة قرطاج شهرة. وكنا أشرنا إلى بروزهــا منذ القرن الخامس قبل الميلاد محتلة المرتبة الأولــى فــي النصــوص النذريــة البونية. وقد أثارت هذه الظاهرة جدلا بين المؤرخين لحسن أفرجاوي لختصــاره في مجموعة اتجاهات رئيسية أهمّها.

– اعتبر بعض الدّارسين ظهور تانيت انعكاسا لإصلاحات سياسية ودينيــة حصلت بقرطاج خلال القرن الخامس ودليلا على تراجع مكانة بعل حمّون والــذي يرتبط بدوره بتراجع العائلة الماغونية التي كان هذا الإله يسهر علــى رعايتــها. غير أنه لم يتمكّن من تجنيبها الهزائم التي تكبدتها وخاصة في واقعــة هيمــراس سنة 480 ق.م.



بعل حمون تينيسوت



بعل حمون (توفلت سوسة)

اللوحة 1

– افترض ج.قاربيني(G.Garbini) من جهته أن تكون تانيت إلهة أصيلة صيدا بلغت قرطاج إبان الغزو الفارسي في الوقت الذي كانت فيه هذه المدينة (=صيدا) تحتل المنزلة الأولى أمام بقية مدن الساحل الفينيقي. ومن هذا المنطلق يعتبر الباحث الإيطالي تبنّي القرطاجيين لعبادة تانيت انعكاسا العلاقات الوثيقة التي جمعت قرطاج بصيدا وتدليلا على حدوث إصلاح ديني يستمد جذوره من التحوّلات الاقتصادية والسياسية التي شهدتها العاصمة البونية إثر هزيمة هيمراس.

سعى أ.فرجاوي إلى تفنيد هذا الرأي مذكّرا بأن قرطاج اعتبرت دوما – بشهادة مصادرنا الاغريقية – الرومانية صور مدينتها الأم فحافظت بالتالي على صلات دينية متينة بها وقد بيّن نفس الباحث أن مكانة صور الاقتصادية والعسكرية لم تعرف تراجعا كما ذهب في اعتقاد ج.قاربيني.

بالإضافة إلى ذلك وفي إطار تناولنا لدلالات بروز تانيت ومكانتها مقارنة ببعل حمّون لابدّ من الاشارة إلى أن هذه الإلهة ظلت دائما وبالرغم من ورود اسمها في المرتبة الأولى تسمّى تانيت "وجه بعل" لذلك لا يُستبعد ان يكون الهدف من وراء إدخال عبادتها تعزيز عبادة الإله بعل حمون مهما كان التأويل المعتمد لتفسير هذه العبارة خاصة وان عبارة "وجه بعل" تدفعنا للقبول بوجود نوع من التبعية.

ينعدم الإجماع حول جذور تانيت غير أن معظم الدراسات تميل دون تشكيك بفكرة وجود عبادة هذه الإلهة في الشرق قبل قرطاج. وقد قدّمت النقيشة المكتشفة في ساريبتا (Sarepta) (15 كلم جنوب صيدا) سنة 1974 دليلا قويا على ذلك. وهي ترجع إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد يضاف إلى ذلك وجود مواقع كثيرة في لبنان تعكس على ما نرجّح وجودهذه العبادة كعين تانيت وكفرتانيت. ونذكّر أخيرا إلى الدعم الذي قدّمته النقيشة البونية التي تشير إلى تانيت بلبنان.

تبدو تانيت من خلال النصوص النذرية بمظهر الإلهة المرتبطة بإلهة أخرى هي عشترت كما هو الحال في ساربتا وكذلك في مالطة وفي قرطاج. وقد ماثلتها المصادر الكلاسيكية بالآلهة الإغريقية هيرا والإلهة الرومانية يونوكايلستيس. (Iuno Caelestis)

من جهة أخرى ارتبطت تانيت في أذهان المهتمين بالرمز المنسوب إليها اصطلاحا وهو عبارة عن مثلث (أحيانا شبه منحرف) تعلوه دائرة ويفصل بين الشكلين الهندسيين خط أفقي. ويعطي الرمز في جملته صورة امرأة ممثلة بطريقة مبسطة جدا. (انظر اللوحة رقم 2) غير انه من الصعب اليوم الجزم بوجود علاقة حقيقية بين الإلهة والرمز المشار إليه مما جعل عديد الباحثين يبدون تحفظات جدّية تجاه هذه المسألة خاصة وأن الحفريات أثبتت حضور الرمز على أنواع شتى من اللقى الأثرية كالتماثيل والتمائم وبعض المعالم الجنائزية واللوحات الفسيفسائية كما هو الحال في كركوان وبعض الدور المكتشفة على أكربوليس سيلينونت في صقلية.

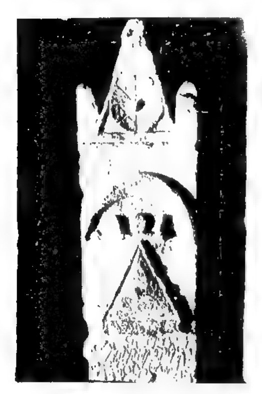
إجمالا تبدو تانيت بمظهر الإلهة الأم "والساهرة على تواصل النسل". غير أن عبادتها وعبادة بعل حمون كثيرا ما ارتبطت في الأذهان بما اصطلح على تسميته "بالقرابين البشرية" نظرا إلى أن النصوص النذرية المكتشفة في معبد "التوفات" حيث كانت تجرى هذه الطقوس؟ (القضية موقع جدل كبير اليوم) مهداة إلى هذين الإلهين وهو ما سنسعى إلى تسليط الأضواء عليه الآن.

مسألة تقديم القرابين البشرية

درج الدارسون ولفترة طويلة على اعتبار معبد التوفات فضاء مقدّسا حيث كان القرطاجيون يقدّمون قرابينهم البشرية من الأطفال إلى الإلهة تانيت والإله بعل حمون. وقبل الخوض في هذه الإشكالية على ضوء التطوّر الحاصل في مسار الدراسات البونية يستحسن التذكير بأن تسمية توفات مأخوذة أصلا من التوراة التي تتحدث عن مكان يحمل اسم "تفت" يوجد في وادي حنون قرب القدس حيث كان يتمّ تقديم الأطفال كقرابين إلى الإله "ملك".



الرّمز المنسوب، إلى تانيت



اللوحة 2

ويجب أن نعترف بعجزنا عن تحديد المعنى الأصلي للفظة وهو عجز قديم يرقى في الحقيقة إلى المترجمين الاغريق الأوائل للتوراة الذين قاموا بنسخ المفردة بأشكال مختلفة "تفجد "تافات" و"توفتا" بل ان الترجمات الاغريقية الأولى ذهبت إلى حدّ حذف جزء من بعض الأسفار حيث توجد هذه اللفظة بحكم عجز أصحابها عن فهم معناها والمعنى الإجمالي للمقطع. لذلك نخلص للقول بأننا نجهل التسمية التي كان يطلقها القرطاجيون على هذه النوعية من المعابد.

التوفات : وصف عام

يمكن للتمعن في خريطة توزع هذا النوع من الفضاءات المقدسة أن يلاحظ دون صعوبة غيابها عن عالم الفينيقيين الشرقي اذ تمّ الكشف عنها بالأساس في كلّ من قرطاج وهدرمتوم وصقلية (موتيي) وسردينيا (نورا، سلكيس تارّوس، مونتي سيراي، بيتيا، كالياري). ويتعلق الأمر بفضاءات مقدسة غير مسقوفة حيث يضع المتعبّدون النذور المقدمة للآلهة وفقا لمستويات متصاعدة إجمالا مع وجود تداخل وتموجات داخل نفس المستوى. وللتبسيط يمكن القول أن أقدم المستويات توجد في الأسفل فيما توجد أحدثها في الأعلى.

بالإضافة إلى ذلك نلاحظ أننا لا نجد إلا "توفاتا" واحدا في كلّ موقع من المواقع المذكورة. ولا تخضع أماكن تركيزها على ما يبدو لقاعدة مضبوطة وواضحة. فتوفات قرطاج مثلا يوجد جنوب المدينة على مسافة لا تتجاوز 50 مترا عن البحر أما في نورا فيوجد التوفات خارج أسوار المدينة. وفي سلكيس تمّ تركيز هذا الفضاء على مسافة 400 مترا شمال المدينة. وأخيرا في موتيي يوجد المعبد شمال الجزيرة قرب الأسوار...

من جهة أخرى يبدو أن الفينيقيين – البونيين كانوا لا يعارضون مبدأ تنصيب معابدهم هذه في مواضع عرفت حضورا بشريا سابقا وهي ملاحظة ثابتة على الأقل بالنسبة لمعبدي موتيي وتارّوس. وإجمالا، يبدو أن الفينيقيين – البونيين كانوا حريصين على حرمة هذه النوعية من الفضاءات المقدّسة وهو ما يمكن

استنتاجه من خلال تمسكهم بنفس الموضع وامتناعهم عن إقامة أي نوع من المعالم عليها بدليل ما نلاحظه في موتيي حيث غيّر القرطاجيون مسار الأسوار لتجنّب اختراق هذا الفضاء. وتغطي فترة استغلال فضاء التوفات قرونا طويلة غير أن هذه الفترة تختلف من معبد إلى آخر ويرتبط ذلك دون شك بتاريخ الموقع نفسه.

- في قرطاج تتضارب آراء الباحثين حول ما يسمى بستراتيغرافيا التوفات (La stratigraphic) بسبب ظروف إنجاز الحفريات الأولى (انظر S.Lancel, Carthage, p. 248 et suiv.) ففي حين يميّز ل.بوانسو (L.Poinssot) ور.لنتيي (R.Lantier) أربعة مستويات تمتد زمنيا بين 700 ق.م و146 ق.م فإن د.هاردن (D.Harden) وف.كلسلي (F.Kelsey) يشيران إلى وجود ثلاثة مستويات فقط وهي:

* تانيت I : من أواخر القرن الثامن إلى أواسط أو أواخر القرن السابع.

* تانيت II : من أواخر القرن السابع إلى حوالي سنة 300 ق.م

* تانيت III : من أواخر القرن الرابع إلى سنة 146 ق.م.

حافظت الحفريات الأمريكية المنجزة في إطار الحملة العالمية لمنظمة اليونسكو تحت إدارة ل.ستيجار (L Stager) على تقسيم د.هاردن مع محاولة ضبطه بصورة أكثر دقة واقترحت في هذا الاطار ما يلي:

* تانيت I : 730 ق.م – 600 ق.م.

* تانيت II. أ: 600ق.م – أواخر القرن الخامس (حوالي 400 ق.م)

* تانيت II . ب: القرن الرابع – القرن الثالث قبل الميلاد

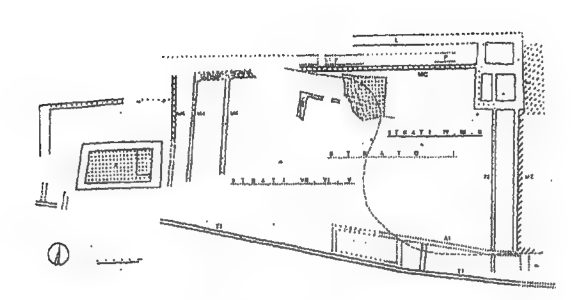
* تانيت III إلى سنة 146 ق.م.

في هدرمتوم (سوسة) يميز ب.سنتاس ستة مستويات تمتد زمنيا من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الأوّل بعد الميلاد. (انظر وثيقة توفات سوسة)

وفي مونتي سيراي يميز المختصون أربعة مستويات تغطي فترة تمتد من القرنين السابع والسادس قبل الميلاد إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد. تواصل استعمال فضاء التوفات في سلكيس طوال الفترة المتراوحة من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن الأوّل قبل الميلاد. أمّا في موتيي فتغطي مستويات للتوفات الحقبة الممتدة من القرن السابع إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. (انظر وثيقة توفات موتيي).

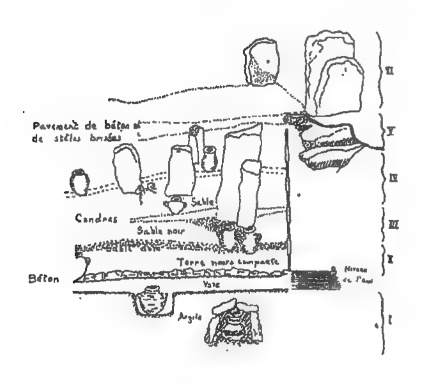
في ما يتعلّق بالنذور المقدمة أثبتت الحفريات وجود أوجه شبه كثيرة بين مختلف هذه الفضاءات المقدسة ويتعلق الأمر غالبا بمرمّدات لا تخضع طريقة وضعها على ما يبدو لأيّة قاعدة واضحة إذ تمّ الكشف عنها في وضع أفقي أو عمودي. ويمكن أن تطمر في الأرض أو توضع كما هو الحال في بعض الأحيان داخل مخابئ صغيرة شُكّلت بواسطة مجموعة من البلاطات المنحوتة. وقد عثر على هذه المخابئ في قرطاج وموتيي وسوسة... ويمكن للمخبأ الواحد أن يضم مجموعة جرار يبلغ عددها أحيانا الثلاث. (أنظر اللوحة رقم3)

غُطّيت هذه الأواني الفخارية بطرق متشابهة تمثل قواسم مشتركة بين هذه النوعية من الفضاءات المقدسة. ومن أكثرها رواجا الصحون التي تثبّت إلى فوهة الجرّة بواسطة طين صلصالي يميل لونه إلى الصفرة. غير ان القناديل والمباخر بالخصوص قد تعوّض في بعض الحالات القليلة نسبيا هذه الصحون (مثال في هدرمتوم عند المستويين 2 و3). وتمثل الأنصاب أيضا إحدى أكثر أنواع اللقى حضورا داخل التوفات ويبدأ ظهورها بقرطاج عند المستوى الأوّل على شكل أنصاب بسيطة (Cippe) يتواصل حضورها مع المستوى الثاني لكننا نلاحظ في الآن نفسه بداية ظهور نوعية أخرى تتخذ شكل مذابح (autels) تحمل زخارف فيما تظل الأنصاب التي تحمل نصوصا غائبة تماما ولا تبرز إلا في فترة لاحقة. وقد كشفت الحفريات إلى جانب الأنصاب والجرار عن لقى عديدة متنوعة أهمها حبّات القلادات والتمائم والأساور والأقنعة...



توفات موتيي

المصدر CIASCA (A), Kokalos, 18-19,(1972-1973)



توفات سوسة

المصدر CINTAS (P), In, Revue Africaine(1946) fig2.

التوفات وإشكالية تقديم القرابين البشرية

كنّا أشرنا في بداية تقديمنا إلى الرأي الذي ساد طويلا في الدراسات البونية والذي يعتبر التوفات فضاء مقدّسا كان القرطاجيون يقدّمون داخله القرابين البشرية (من الأطفال) إلى الإله بعل حمّون والإلهة تانيت. غير أن السنوات الأخيرة طبعت ببروز تيّار جديد يدعو إلى مراجعة هذا الرأي. ونتيجة لهذا التوجّه الحديث أُخضِعت روايات المصادر الأدبية لنقد متشدّد بلغ في نهاية المطاف حدّ التشكيك في ما تقدّمه روايات بعض الكتاب الكلاسيكيين حول "ممارسات القرطاجيين المتوحشة".

من جهة أخرى لابد من التذكير بأن التحاليل العلمية التي أجريت على بقايا محتويات المرمّدات عاجزة عن تحديد سبب الوفاة وحالة الجسد قبل تعرضه للحرق. ولذلك يمكن القول أن ما تمّ إثباته علميا يقتصر على تأكيد المختصين أن البقايا المشار إليها هي إما لأطفال صغار أو لمخاديج ومجاهيض.

بالعودة إلى مصادرنا الأثرية يجب ان نعترف أن ما تمّ العثور عليه (مرمّدات، أنصاب...) لا يسمح بإلقاء مزيد الأضواء على هذه القضية المعقدة وذلك باستثناء نصب شهير اُصطلح على تسميته بنصب الكاهن" الذي يحمل صورة كاهن يرتدي جلبابا طويلا وعلى رأسه طاقية الكهنة يرفع يده اليمنى في وضع تعبّدي فيما تحمل يده اليسرى المطوية طفلا ملفوفا سيُقدم على ما يرجّح كقربان (انظر اللوحة رقم 3). لكن وبالرغم من أهمية هذا النصب يبقى السّؤال الأهم اليوم مطروحا وهو هل كان القرطاجيّون يقدمون أطفالهم كقرابين لآلهتهم بالصورة الواردة في بعض مصادرنا الأدبية؟

لتقديم رؤية مبسطة حول هذه الإشكالية نرى لزاما علينا في البداية مدّ القارئ بما ورد في مصادرنا الأدبية مبتدئين بالتوراة.

* التوراة: تُدين التوراة في مواضع عديدة منها تقديم القرابين البشرية إلـى الآلهة وتنهى عنها ويمكن في هذا السياق الاستدلال بما ورد في:

– سفر الملوك الثاني XXIII,10: "ونجّس (الحديث عن يوسـيا Josias) توفة التي في وادي بني خنوم لكي لا يعبّر أحد ابنه أو ابنته في النار لمولك".

– سفر الملوك الثاني XVI-2-3 : "كان أحاز ابن عشرين سنة حين ملـك وملك سنّه ستة عشر سنة في أورشليم ولم يعمل المستقيم في عيني الـربّ إلهـه كداود أبيه بل سار في طريق ملوك إسرائيل حتى انه عبّر ابنه في النّـار حسـب أرجاس الأمم الذين طردهم الربّ من أمام بني إسرائيل".

– حزقيال XX-25-26 : "وأعطيتهم أيضا فرائض غير صالحة وأحكامـا لا يحيون بها ونجّستهم بعطاياهم إذ أجازوا في النّار كلّ فاتح رحم لأبيدهم وحتـى يعلموا أنّي أنا الربّ"...

تدفعنا هذه الإشارات للقول بأن "تقديم القرابيـن البشـرية" وخاصـة مـن الأطفال كانت ممارسة عرضية في فلسطين. وكنا أشرنا في ما سبق إلـى هـذه الشعوب التي طردها الربّ من أمام بني إسرائيل والتـي ترسّـخت لديـها هـذه "الأرجاس". لكن الاعتقاد السائد اليوم هو أن الشعوب المعنية لا تعنـي الفينيقييـن وإنما شعوب أخرى دخلت في مواجهات مع العبريين.



توفات قرطاج. حفرية 1979 المربع CT6

المصدر:

STAGER L.E., Le tophet et le port commercial, in, pour sauver Carthage. ENNABLI A., ed. UNESCO, INAA, 1992, p.72.



نصب الكاهن

(متحف باردو)

اللوحة ٦

النصوص الكلاسيكية : من أشهرها نذكر

- كليتركوس (Clitarque) (Schol. Plat. Rep 337 A): يشير كليتركوس إلى أن تقديم القرابين البشرية من الأطفال ممارسة منتشرة لدى الفينيقيين وبصفة خاصة لدى القرطاجيين الذين كلّ ما رغبوا في الحصول على شيء مهمّ نذروا أحد أبنائهم إلى الإله كرونوس. ويضيف أن الضحايا في قرطاج كانت توضع فوق ايدي تمثال الإله لتتدحرج بعد ذلك وسط حوض من النّار.

- فرفريوس (Porphyre) يؤكد هذا المصدر من جهته على أن الفينيقيين عند مرورهم بفترة شدائد (حروب، أوبئة، جفاف) يهبون للإله كرونوس قربانا بشريا يتم اختياره عن طريق الانتخاب (De abstinentia II, 56) ويضيف أن الأمثلة عن هذه الممارسات عديدة في مؤلف سنشونياتون الذي تناول تاريخ الفينيقيين والذي قام فيلينوس الجبيلي (Philon de Bybos) بترجمته إلى الاغريقية في ثمانية أجزاء. وقد عدّد الكاتب وجود هذا النوع من الطقوس في مدينة صور موطنة الأصلي فيما أكّد تواصلها في قرطاج ومشاركة الجميع فيها في نفس الفترة.

- كوينت كورسي: أشار في معرض حديثه عن حصار الاسكندر المقدوني لصور سنة 322 قبل الميلاد إلى اقتراح تقدم به بعض الصوريين وكان يدعو إلى تقديم طفل من الأحرار كقربان إلى الإله ساترنوس حتى تحظى المدينة بدعم الآلهة غير ان هذا الاقتراح جوبه بالرفض من قبل أعضاء مجلس القدامى.

- ترتليانوس يشير الكاتب بدوره إلى وجود طقوس تقام على شرف ساترنوس يتم خلالها تقديم أطفال كقرابين.

- ديودروس الصقلي (XX, 14, 4 - 6): تبقى شهادته أهم الوثائق المعتمدة من قبل المؤرخين المحدثين. ففي سياق حديثه عن حملة طاغية سرقوسة على قرطاج في أواخر القرن الرابع يشير الكاتب إلى ان القرطاجيين اعتبروا أن

ما حل بهم هو نتيجة غضب الآلهة عليهم وتعود أسباب هذا الغضب إلى لجوء القرطاجيين إلى الخداع تجنبا لتقديم أطفالهم كقرابين للآلهة ذلك انهم عمدوا على نقيض الفترات السابقة إلى شراء أطفال عبيد وتقديمهم بدلا عن أبنائهم. وقد كشف التحقيق الذي أجري هذا التلاعب فتقرر اختيار مائتي طفل ينتمون إلى أكبر الأوساط منزلة وتقديمهم كقرابين باسم الدولة. في نفس الوقت قرر بعض المتهمين أو المشكوك فيهم بمحض إرادتهم تقديم أنفسهم فارتفع العدد الجملي ليبلغ ثلاث مائة.

يقدّم ديودروس بعد ذلك وصفا لتمثال الإله كرونوس المصنوع من البرنز والمنتصب في قرطاج ويشير إلى ان ذراعي التمثال كانتا ممدودتين في اتجاه مائل نحو الأرض فيما كانت راحتاه موجهتين إلى الأعلى بطريقة تجعل القربان (الطفل) الموضوع على ذراعي التمثال يتدحرج ليسقط وسط هوة ممتلئة نارا.

– بلوتارخوس (Sera num. Vendict 6 = Morelia 552 a. Apoph) (req Gélon 1 = Morelia 175 a : يشير الكاتب إلى ان القرطاجيين كانوا يقدّمون أطفالهم قرابين إلى الآلهة ويضيف أن من لا أبناء لهم كان بإمكانهم اشتراء أطفال الفقراء كما تُشترَى الخرفان أو الطيور. ثم يتطرق بلوتارخوس بعد ذلك لوصف كيفية إجراء هذه النوعية من الطقوس مركزا على وضعية الأم التي يجب ان لا تذرف دمعا وأن لا تصدر أيّة أنّة في الوقت الذي تملأ أصوات الناي وقرع الطبول الفضاء المحيط بتمثال الإله فلا تُسمَع بالتالي الصيحات.

أخضعت شهادتا ديودروس الصقلّي وبلوتارخوس إلى نقد حادّ من قبل س.موسكاتي وس.ريبيكيني (S.Ribichini) بالخصوص. وقد ركّز المؤرخان الإيطاليان على ان الأمر يتعلق بشهادتين غير مباشرتين تتميزان بعدائهما للقرطاجيين. وفي هذا الإطار اُعتُبر نص بلوتارخوس أقرب منه إلى تمرين في البلاغة بسبب أسلوبه الخطابي المصطنع ويبدو أن كاتب السير الذاتية قد استقى المعلومات التي أوردها حول أمّهات الضحايا والآلات الموسيقية من مؤلف كليتركوس أو من مؤلف تيمايوس.

لم تسلم شهادة ديودروس من النقد المتشدد وقد أبرز الباحثـــان الإيطاليـــان بالخصوص ان الفقرة التي قمنا باختصارها في ما تقدم هي اقرب منها إلى مقطـــع محشور حشرا في غير موضعه المنطقي (حصار قرطاج من قبل اغـــاتوكلاس) ولم يستبعدا أن يكون هذا المصدر قد استلهم محتوى فقرته من مؤلف كليتركوس.

لكل هذه الاعتبارات لم يعد تعدّد الشهادات مدعـــاة لإثبـــات وجـــود هـــذه الممارسة لدى القرطاجيين بحكم أن معظمها يرقى إلى نفس مصدر وهو مؤلـــف كليتركوس وهو ما قاد أنصار هذا التيّار النقدي إلى مراجعة هذه القضية مشـــككين على ما تثيره شهادات الكتاب القدامى من تحفظات وشكوك.

المصادر النقائشية

بالإعتماد على مصادرنا النقائشية يمكن الخروج بسلسلة ملاحظات رئيسـية هي التالية:

– لم يشر أي نص نقائشي حتى اليوم إلى مفردة "توفات"

– عند الحديث عن النذور المقدّمة استعمل القرطاجيون مفردات متنوعـــة لا تدلّ، للأسف، على طبيعة النذر المقدّم ومن أكثرها ذيوعا نذكر نـــذر، نصـــب، متنت، ملك.

– تحوي النصوص النقائشية البونية عبارات لا تزال إلـــى الآن موضـــع جدل كبير بين المختصين من اشهرها:

* ملك أدم: تتضارب الآراء عند تفسير هذه العبارة وقد انحصـــر الجـــدل بين رأيين اثنين يرى الأوّل أنها تعني قربان رجل (أي أن الرجل قُـــدّم كقربـــان) بينما يرى الثاني أن العبارة تعني ان القربان قدّم من قبل رجـــل وتمثـــل العبـــارة أحيانا جزءا من عبارة أطول تظل بدورها محل جدل بين الباحثين ملك أدم بشـــرم بتم ونجدها خاصة في سيرتا (قسنطينة).

* ملك بعل: تمّ فهم هذه العبارة أيضا في ثلاث اتجاهات اتجاه أوّل يرى أنها تعني قربان على شرف بعل فيما يرى الثاني أنها تعني قربان مواطن بما ان لفظة "بعل" تعني أحيانا المواطن أما أصحاب الفرضية الثالثة فيرون أن العبارة تعني قربان عوضا عن رضيع.

* ملك أمُر: يكاد المختصّون يجمعون على أنها تعني قربان خروف ويحيلنا ذلك بالضرورة على قرابين الفداء كما نلاحظ ذلك على نقائش نقاوس (Ngaous) المتأخرة. ولعلّ أشهرها في الضمير الإسلامي قصة إسماعيل الذي افتدي بذبح عندما كان والده إبراهيم يستعدّ لذبحه امتثالا لأمر الله.

المصادر الأثرية

كنا أشرنا في ما سبق إلى "نصب الكاهن" ولن نعود إلى ذلك مجددا وإنّما سنركّز الآن على نتائج التحاليل الطبية التي أجريت على عيّنات من محتويات المرمّدات التي عثر عليها داخل معابد التوفات.

أدّت الجهود المخبرية المبذولة إلى نتائج متقاربة أثبتت جميعها ان الجرار تحوي بقايا مواليد صغار إلى جانب بقايا حيوانات خاصة من الخرفان والماعز... لكن المؤسف هو ان التحاليل عاجزة عن تحديد أسباب الوفاة لذلك يبقى السؤال الهام المطروح هل ان هؤلاء الأطفال لقوا حتفهم بسبب الحرق أم انهم كانوا من الأموات قبل تعريضهم للنّار.؟

ما هو ملفت للانتباه هو أن التحاليل المخبرية أدّت إلى تغيير التصور الذي ساد طويلا أوساط المهتمين بتاريخ ديانة قرطاج. ذلك ان المؤرخين اعتقدوا حتى تاريخ إعلان نتائج التحاليل العلمية أن البونيين تخلّوا تدريجيا عن عادة تقديم القرابين البشرية وعوضوها شيئا فشيئا بقرابين حيوانية مبتعدين بذلك عن "ممارسة فينيقية بدائية متوحشة" غير أن أعمال الفريق الأمريكي الذي اهتم بتحليل 130 عيّنة اكتشفت في قرطاج أثبتت العكس وهي ملاحظات جاءت لتدعم ما توصل إليه بالاري (Pallary) منذ سنة 1922.

أخيرا لا يمكن لمتناول هذه المسألة ان لا يلاحظ التفاوت الكبير داخل هذه النوعية من الفضاءات المقدسة بين عدد المرمّدات وعدد الأنصاب المكتشفة. وقد عمّقت هذه الملاحظة على بساطتها دراسة إشكالية القرابين البشرية اذ ترتب عن ذلك طرح سؤال هام جدّا هو التالي: ما هو دور التوفات؟ ويمكن ان نميز في إطار محاولات المختصين الإجابة عن هذا السؤال وفي علاقة مع ما سبق تيارين اثنين:

* تيار أوّل ظلّ على ثقته بما تقدمه روايات الكتاب الكلاسيكيين ويعتبر التوفات فضاء خصّصه البونيون لتقديم قرابينهم البشرية.

* تيار ثان يرفض هذه الفكرة ويعتمد حجة "صمت" أشهر المؤرخين عن هذه الظاهرة كهيرودوت (الذي زار صور مع أواسط القرن الخامس وتعرض لديانة الفينيقيين ولكنه لم يشر إلى هذه النوعية من الطقوس) وكذلك بولوبيوس وتيتوس ليفيوس... وهي ظاهرة لم يكن ليفوتهم التشديد عليها بحكم عدائهم لقرطاج وإمكانية استثمار ذلك للتحامل عليها.

من هذا المنطلق وفي سياق دراسته لتوفات ثاروس في سردينيا يرى س.موسكاتي أن دفن الأطفال الصغار كان يتم في التوفات إلى جانب "ضحايا القرابين". ويذكّر في هذا السياق بنسبة وفيات الأطفال المرتفعة في هذه الفترة ويعتبر أن إقامة الأنصاب كانت تتم فقط لتخليد ذكرى الأطفال المقدمين كقربان وهو ما يفسّر من منظوره دائما سرّ الاختلال الملحوظ بين عدد الأنصاب وعدد المرمّدات. وقد دافعت هـ.بينتشو – صفر عن هذه النظرية مؤكدة على الضعف الواضح لعدد قبور الأطفال في مقابر قرطاج. ومن هذا المنطلق افترضت الباحثة الفرنسية أن المتوفين من المواليد الجدد كانوا مقصيين من "مجتمع الأموات" وبالتالي من المقابر بحكم أنهم لم يخضعوا للطقوس التي تدمجهم في مجتمع الكهول ولذلك يتمّ دفنهم داخل المعابد باعتبارهم نذورا أو هدايا مقدمة للآلهة على أمل ان يشهدوا حياة أخرى أو تتمّ إعادة بعثهم. لكن هذه الفرضية تصطدم بصعوبة كبيرة. فإن قبلنا بذلك بالنسبة لمن لم يتجاوزوا الحول مثلا فإن الأمر

يعسر الاقتناع به بالنسبة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين "سنتين وأربع سنوات ويضاف إلى ذلك ان حجج" الداعين إلى مراجعة هذه القضية تسعى إلى أن تدفعنا في نهاية التحليل إلى القبول بفكرة ان تكون هذه النوعية من الفضاءات المقدسة مجرّد مقابر للأطفال تقريبا وهو ما يبدو مستبعدا. لذلك يستحسن من منظورنا حاليّا الإحجام عن تقديم الفرضيات جزافا على أمل ان تمكننا التحاليل المخبرية يوما ما من تحديد سبب الوفاة بدقة عندها يمكن القول أننا توصلنا إلى إجابة قاطعة لهذه الإشكالية.

ملقرت

تجمع كلّ الدلائل على القول إنه كان ابرز آلهة مدينة صور ويعني اسمه لغة "ملك المدينة" أو "سيد المدينة" وباعتماد الإسامة نميل إلى الاعتقاد انه كان أحد اكثر آلهة قرطاج شعبية كما سنبين ذلك لاحقا.

كانت عبادة ملقرت داخل العاصمة البونية تتم داخل معبد مخصص للغرض اذ تذكر نقيشتان معبد هذا الإله فيما قدم أحد الناذرين نفسه على انه خادم الإلهين صيد – ملقرت. وكنا أشرنا إلى سعة اعتماد ملقرت في تركيبة الأسماء القرطاجية إذ أحصى الباحثون ما لا يقل عن 1500 اسما من هذا الصنف. وكما بيّنت ذلك ك.بونّي (C.Bonnet) فإن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء (حوالي 900 اسما) تعكس ثقة البونيين في هذا الإله. ومن بين أوسع الأسماء انتشارا نجد "بد ملقرت" (بيد ملقرت) و"عبد ملقرت". ويمكن تفسير "شعبية" هذا الإله بالصورة التي كان القرطاجيون يحملونها عنه وهي صورة طبعتها بالأساس الجوانب الإيجابية لملقرت كالرعاية والحماية والسلام. وتتناقض هذه المعطيات مع فقر المادة المصدرية وخاصة منها النصوص النذرية المهداة إلى ملقرت وهو ما يمكن تفسيره من منظور نفس الباحثة بوجود إمكانية للتمييز بين "الديانة الرسمية" لدولة قرطاج والقائمة على الثنائية بعل حمّون – تانيت وديانة شعبية مسّت أعرض شرائح المجتمع وارتبطت أساسا بآلهة خيّرة توفّر الحماية والرعاية للمتعبّدين من بينها ملقرت.

باعتماد المصادر الأثرية نلاحظ أن الرسوم المجسدة لهذا الإله تتشابه غالبا مع الرسوم المجسّدة للإله الإغريقي هيركلاس خاصة منها تلك التي تعود إلى فترات متأخرة من تاريخ قرطاج. وهي ملاحظة تدعمها إشارات الكتاب الكلاسيكيين الذين ماثلوا الإلهين. من ذلك إجماع المؤرخين على القول بذلك بالنسبة إلى المعاهدة المبرمة بين حنبعل وفيليبوس الخامس. وفي هذا الشأن يمكن أن نشير إلى الرسوم الموجودة على الشفرات التي كُشف عنها في مقابر قرطاج وكذلك التمائم. ويبدو تأثير الفن الاغريقي واضحا دون ان يعني ذلك تغير جوهر عبادة ملقرت في قرطاج (انظر اللوحة رقم 4). وباعتماد مختلف مصادرنا يمكن القول إن عبادة هذا الإله رسخت في العاصمة البونية ترسخا كبيرا وقد تميّزت على ما ترجح ك. بونّي بخاصيّتين إثنتين:

* الخاصية الأولى مثّل الإله ملقرت الارتباط بجذور قرطاج الصورانية ويمكن في هذا الاطار التذكير بالصلات التي حافظت عليها العاصمة البونية مع المدينة الأم وقد كانت مبنية في جزء كبير منها على وفاء قرطاج لملقرت الإله الأكبر في صور لملقرت.

* الخاصية الثانية: يبدو ملقرت بمظهر الإله المحسن والحامي وهو ما يفسّر تعلّق عدد كبير من القرطاجيين به.

عشترت

شهد الشرق والغرب الفينيقيين على حدّ السواء عبادة هذه الإلهة. ومن بين أبرز الإشارات المتعلقة بها نشير إلى مجموعة النصوص النقائشية البونية التي تذكر معبد عشترت (CIS, I, 3779; 4482) وكاهن عشترت – أشمون وكنا أشرنا في ما تقدم إلى النص الذي يخلّد إهداء لعشترت ولتانيت بلبنان.

تتعدد الإشارات المتعلقة بالإلهة عشترت في باقي أرجاء الإمبراطورية القرطاجية وخاصة في مالطة وسردينيا وصقلية حيث يذكر نص نقائشي عشترت ايركس (CIS, I, 135). ولابد هنا من التذكير بان ديودروس الصقلي يشير إلى

طقوس ممارسة البغاء المقدّس في جبل ايركس وهو ما أدى إلى الربط بين الممارسة المذكورة والإلهة عشترت يضاف إلى ذلك ما ورد على لسان فاليريوس مكسيموس عند تعرضه لهذا النوع من الطقوس في سيكّا (الكاف) فيما يذكر صولنوس أن الإلهة فينوس التي ماثلها الكتاب الكلاسكيون بعشترت كانت مرتبطة بفينوس جبل ايركس. ويبدو أن الهدف من وراء هذه الممارسة كان يتمثل في تعزيز قوة الإلهة بحكم ان المواقعات التي كانت تتم في معبدها إنما ترمز في دلالاتها العميقة إلى تجدد النسل وبالتالي تواصل الخلق.

تعوزنا المادة المصدرية حول طبيعة عشترت غير أن م.ح.فنطر. استطاع ان يبرز في إحدى مقالاته بعض سمات هذه الإلهة مركزا بالأساس على طبيعتها العسكرية التي تستمد جذورها من الشرق بحكم ان نصوص أوجاريت الميثولوجية تظهرها للدارس بمظهر الإلهة المحبّة للحرب والصيد.

تجدر الإشارة إلى أن عديد الباحثين ربطوا باعتماد الوثائق الأثرية بين المرأة الممثلة على عديد الأنصاب المكتشفة في قرطاج وخصوصا في موتيي حيث تبدو ممسكة ثدييها في حركة ضغط وهي حركة ترمز من منظور هؤلاء إلى الخصوبة وبين الإلهة عشترت وذلك بحكم قدم هذه الأنصاب التي ترقى إلى فترة لم تبرز خلالها تانيت بعد (انظر اللوحة رقم 4). غير ان هذا التفسير يظل مجرّد فرضية ويمكن ان نسحب نفس الملاحظة على بعض الرسوم الموجودة على المسكوكات.



ملقرت ـ هركلاس على مجلد
(متحف قرطاج)



نصب عشترت ٢

المصدر :
MOSCATI S., UBERTI M.L., Scavi a Mozia, Le stele Rome 1981, stele n° 860.

اللوحة ٤

أشمون

كبقية الآلهة المذكورة كان لهذا الإله معبد في قرطاج كما تدل على ذلك مجموعة من النصوص النقائشية (CIS, I, 23, 62; 4834 - 4837) وكنا أشرنا فيما سبق إلى كاهن أشمون – عشترت بالإضافة إلى إشارة مصادرنا الأدبية إلى معبد اشمون في قرطاج باعتباره لكبر معابد المدينة.

ماثلت المصادر الكلاسيكية (سترابو وأبيانوس) (Appien, Lib 130;) (Strabon, XVII,3, 14. بين الإله اشمون والإله اسكولابيوس وهو ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد انه اعتبر من قبل القرطاجيين بمثابة الإله الشافي. وبالعودة إلى الإسامة نلاحظ مرة أخرى سعة انتشار اسم هذا الإله باعتباره يدخل في تركيبة عدد كبير جدّا من الأسماء وهو ما يجعل منه أحد الآلهة المقرّبة إلى القرطاجيين شأنه في ذلك شأن ملقرت.

اقتصرنا في هذه الصفحات على استعراض الملامح العامّة لأشهر آلهة قرطاج لكننا نلاحظ ان مصادرنا النقائشية تشير إلى عدد كبير منها يصعب تحديد سماتها ولو بصورة تقريبية ولدعم رأينا الاستشهاد بمجموعة الآلهة التالية كشدرف، حورون سكن وغيرها.

الآلهة الأجنبية

أ – الآلهة المصرية

تبقى الإسامة مصدر معلوماتنا الوحيد تقريبا إذ تدخل آلهة مصرية عديدة في تركيبة أسماء كثيرة في قرطاج وباعتماد الجرد الذي أعدّه أ. الفرجاوي يمكن ان نشير إلى الآلهة المصرية التالية والتي نرجّح وجود اتباع لها في العاصمة البونية كباستت واس واصر وحورس وابتاح.

ب – الآلهة الإغريقية : ديمتار وكوري

يمثل إدماج الإلهتين الإغريقيتين ضمن مجمع الآلهة القرطاجية قضية ينبغي الوقوف عندها بحكم أن مصادرنا لا تتعرض في ما عدا هذه الحالة إلى تبني القرطاجيين رسميا لعبادة آلهة أجنبية. ولهذا الغرض يجدر التذكير ولو بإيجاز بظروف اتخاذ هذا القرار.

يمثل ديودروس الصقلي مصدرنا الوحيد ففي معرض حديثه عن حصار جيش قرطاج لسرقوسة تحت قيادة خيملك يشير المؤرّخ إلى قيام الجنود بنهب معبد الإلهتين ديمتار وكوري (Démeter et Coré) وقد أغضب هذا التصرف الآلهة ففتك الوباء بالجيش البوني وتفاقم الخطب بحكم تظافر مجموعة عوامل أخرى أهمها تركّز أعداد هائلة من الجند في موضع غير صحّي إضافة إلى ارتفاع الحرارة.

ويضيف نفس الكاتب أن القرطاجيين كانوا لا يعبدون هاتين الإلهتين. وكردّ فعل لما حصل لجؤوا إلى اختيار مجموعة من بين أفضل المواطنين منزلة وعيّنوهم كهنة وأقاموا للإلهتين تماثيل وقدّموا لهما قرابين كما قاموا باختيار إغريق قاطنين بقرطاج وألحقوهم بعبادتهما. وقد أثارت المعلومات الواردة لدى ديودروس اهتمام الدارسين فرأى فيها البعض انعكاسا لتأثر قرطاج الكبير بالحضارة الإغريقية وهو رأي لا يحظى بالإجماع.

نعتقد أن لا مجال لفهم الدلالات العميقة لشهادة ديودروس دون العودة إلى النص نفسه وفيه ما يسمح بالتفطن إلى ان مصدرنا بتقديمه لهذه الرواية على الصورة التي قمنا باختزالها لم يشذّ في حقيقة الأمر عن الطريقة التي اعتمدها على امتداد مؤلفه إذ انه طوّع الأحداث بحسب ما كانت تمليه عليه قناعاته الأخلاقية الشخصية وهو ما سنسعى لتوضيحه في ما يلي

بالتمعن في مصدرنا نلاحظ أن "تدخل الآلهة في شؤون البشر" يمثل محورا يكاد يكون ثابتا في مؤلف ديودروس وإذا ما ركّزنا على أحداث سنة

396 ق.م التي تعلينا لا يمكن أن يفوتنا أن الكاتب وضع جنبا إلى جنب تفسيرين اثنين:

– تفسير "عقلاني" : ارتفاع عدد الجند، خاصيات الموضع، ارتفاع الحرارة.

– تفسير "ميتافيزيقي": غضب الإلهين بسبب الأرجاس التي قام بها القرطاجيون.

غير ان الكاتب سعى إلى الربط بين التفسيرين في نطاق ما أطلقنا عليه سابقا "قناعات ديودروس الأخلاقية الشخصية" ومن ابرز هذه القناعات تلك التي ترتبط بـ:

* صورة قرطاج وقادتها: يبدو قادة قرطاج من خلال مؤلف "المكتبة التاريخية" بمظهر القادة المنتهكين لحرمات الآلهة مثال ذلك القائد حنبعل الذي كان على رأس جيش قرطاج في صقلية قبل تولي خيملك نفسه هذه الخطة وهي صورة ذائعة لدى معظم الكتاب الكلاسيكيين.

وتبدو قرطاج من خلال نفس المؤلف بصورة المدينة "المتعالية"، "الظالمة"، "العنيفة" لذلك تتراءى نكبتها بمثابة النتيجة الطبيعية للأخطاء التي ارتكبتها وطبيعي في نهاية التحليل ان تبرز قرطاج بصورة المدينة "الآثمة". ويمكن العودة إلى الفقرات التي يبني فيها ديودروس مقارنة مقصودة بين سرقوسة المدينة "الدينة" وقرطاج المدينة "المنتهكة للمقدسات" (الكتاب XIV).

* تدخل الآلهة: ترتبط هذه القناعة لديه غالبا بمفهومي "الغضب الإلهي" و"العدل الإلهي" لذلك يشدد ديودروس عادة على ضعف البشر" ويبقى مصير الأمور لديه مرتبطا بما يسمّى لدى الإغريق بالتيكي (الحظ) الذي يمكن أن يغير موقعه في كلّ لحظة.

تتفاعل مختلف هذه القناعات وغيرها لتعطي طريقة معينة في رواية الأحداث تبدو واضحة من خلال طريقة سرد ديودروس لأطوار الوقائع العسكرية. وهي طريقة ثابتة على امتداد مؤلفه اذ تمرّ المواجهات بالنسبة إليه دائما تقريبا بمرحلتين اثنتين.

– المرحلة الأولى: يظل مصير المواجهات خلالها غير واضح ونلاحظ أحيانا ان المعارك تتطور لصالح الصف الذي سينهزم في آخر المطاف.

– المرحلة الثانية: تنقلب الوضعية فجأة إمّا بسبب وفاة قائد الجيش المنهزم أو على إثر تدخل قائد الجيش المنتصر في آخر المواجهة.

يخضع سرد وقائع أحداث سنة 396 وهزيمة خيملك لهذا التصور، فقرطاج تبدو منتصرة في البداية، وعلى نقيض ذلك كانت سرقوسة في وضع مأسوي. ثمّ تنقلب الأحداث فجأة فيصبح المنتصر منهزما والمنهزم منتصرا. غير ان وجه الاختلاف هذه المرة يكمن في ان انقلاب الأوضاع المفاجئ لم يكن وليد وفاة قائد جيش قرطاج خيملك أو تَدَخُّلٍ مُظفر لحاكم سرقوسة ديونيزوس ولنا ان نتساءل عن السبب الذي حدا بديودروس إلى تغيير طريقته في السرد هذه المرّة.

يرتبط ذلك في رأينا مجدّدا بقناعات الكاتب الشخصية ونعني بذلك كرهه لأنظمة الطغاة عامّة ولديونيزوس خاصة لذلك عمل على ان لا يضفي على طاغية سرقوسة مجدا هو غير جدير به. ولذلك اختار ديودروس ان يكون الانتصار وليد تدخل الآلهة الاغريقية التي تمكنت من الانتصار على آلهة قرطاج في علاقة ما أطلق عليه ل.موران (L.Maurin) تسمية "صراع الآلهة"ومن هذا المنطلق يصبح تبني قرطاج لعبادة الإلهتين اعترافا ضمنيا بقوّة آلهة الإغريق.

من جهة أخرى ينبغي الإشارة إلى وجوه الشبه التي نلاحظها بين إدماج قاريكا ساكرا سيراريس في روما خلال النصف الثاني من القرن الثالث وإدماج ديمتار وكوري في قرطاج في بداية القرن الرابع حسب رواية ديودروس. وتشترك الظاهرتان في قاسمين على الأقل: الأوّل هو مرور كلّ من قرطاج

وروما بفترة عصيبة وإن كان المؤرخون لا يتفقون بالنسبة إلى هذه الأخيرة على تحديدها بدقة (هل هي هزائم روما أمام قرطاج في إطار الحرب البونية – الرومانية الثانية وخاصة سنة 217 ق.م.؟ أم أن الأمر يتعلّق بخطر السلتيين (Les Celtes) حسب ما يرجح هـلوبونياك؟ (H Le Bonniec). أمّا القاسم الثاني فيتمثل في تكليف إغريق بالإشراف على إحياء طقوس الإلهتين المدمجتين حديثا.

يحملنا هذا التشابه على التساؤل حول إمكانية أن يكون ديودروس قد تأثر بالنموذج الروماني عند حديثه عن قرطاج فسعى إلى إسقاطه على واقع الحضارة البونية عند تعرضه لإدماج عبادة ديمتار وكوري داخل مجمع آلهة قرطاج بالرغم من أنّ هذا الإدماج يرقى إلى تاريخ أقدم.

عند الخوض في دلالات قرار القرطاجيين تستوقفنا أحكام بعض المؤرخين المعاصرين المتعصّبة وأشهرها موقف ج.ش.بيكار الذي كتب محللا هذا الحدث

"هذا التقبل لا يمكن تفسيره إلاّ بمركّب النقص الذي كان يشعر به البونيون أمام ديانتهم التقليدية وبحاجتهم الماسّة لتغييرها حتى يسمحوا لها بالاستجابة للتطلّعات الفردية والهواجس الميتافيزيقية التي بلغتهم عدواها على إثر ابتلاع مدينتهم دينيّا من قبل العالم الهيلينستي" (Le s religions de l'Afrique antique, p.98)

وللأمانة نذكّر بأنّ نفس الباحث عدّل لاحقا من رأيه إذا يشير إلى أن إدماج عبادة ديمتار وكوري لا يجب اعتباره بمثابة ضياع (a liénation) جوهري للديانة الفينيقية بإفريقيا ويضيف أن العكس هو الصحيح باعتبار أن الإلهتين هما اللتين تكيّفتا وحاجيات المتعبّدين الجدد

(La religion punique, in, dossiers de l'archéologie, déc. 1982, jan. (1983), p. 45-46)

وباعتماد ما تقدّم نميل إلى الاعتقاد أن سنة 396 ق.م. إنما تمثـل تـاريخ التبنّي الرسمي لعبادة ديمتار وكوري وهي عبادة ترقى على الأرجح إلـى تـاريخ اقدم خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود جالية إغريقية في قرطـاج قبـل هـذا التاريخ بكثير. ويضاف إلى ذلك ما يمكن ان نستنتجه من مؤلف ديودروس نفسـه حيث يشير إلى وجود إغريق داخل المسـتوطنات القرطاجيـة بصقليـة كـانوا يتمتعون بحرية إقامة شعائرهم الدينية. وهذه إشارات تدفعنا للقبول بفكـرة وجـود تلاقح بين الحضارتين مسّ ميادين كثيرة. ولم يكن الجانب الديني ليشذ عـن هـذا التلاقح.

كلّ الإشارات المصدرية التي بحوزتنا، وبقطع النظـر عـن الصعوبـات المنهجية التي يطرحها استعمالها، تدفع إلى الاعتقاد بأن ديانة قرطاج ظلـت فـي جوهرها ديانة شرقية تعكس تمسّك البونيين بطقـوس ورثوهـا عـن أجدادهـم وتناقلوها عبر الزمن وقاموا بترسيخها في محيطهم الجديد. ويكفي التذكير في هـذا الاطار بأن كلّ الآلهة القرطاجية تقريبا تجد امتدادا لها في الشـرق عامـة وفـي الساحل الفينيقي خاصة (بعل حمون، تانيت، عشترت، أشمون، ملقرت...).

من جهة أخرى تشدد مصادرنا علـى اختـلاف أنواعـها علـى تديّـن القرطاجيين وخشيتهم لآلهتهم وسعيهم للتقرّب منها واسترضاءها من ذلـك مثـلا حرصهم على إقامة معابد لها وتعيينهم لمن يقوم على خدمتها وتقديمـهم للقرابيـن إضافة إلى حضورها الرسمي في جلّ المعاهدات المبرمة بينهم وبين بقية أطـراف الساحة المتوسطية باعتبارها قوى ضامنة لاحترام ما يتم الاتفاق عليه.

غير أن تمسك القرطاجيين بعباداتهم لم يمنعهم أحيانا مـن الانفتـاح علـى ديانات أخرى مجاورة كما يوحي بذلك تبنّيهم لعبادة الإلهتين الإغريقيتيـن ديمتـار وكوري وهو ما يعطي لقرطاج هذه الهوية المتفردة والتي وفقت في ان تجمع بيـن الموروث الشرقي من جهة والمكتسب نتيجة التلاقح مـع حضـارات المتوسـط الغربي المجاورة من جهة أخرى.

مراجع الفصل الثامن

مراجع عامة اهتمت بديانة قرطاج

خصّصت كلّ الدراسات العامة فصولا تتناول بالدرس ديانة قرطاج ويمكن للقارئ العودة إلى قائمات المراجع المثبتة في هذا الكتاب ليجد عناوين هذه الدراسات (س.لنسال، م.ح.فنطر س.موسكاتي...) لكن يبقى عمل س.قزال (HAAN.T.IV) مرجعا أساسيا خاصة بالنسبة إلى تحليل ما ورد على لسان الكتاب الكلاسيكيين.

ننصح في هذا الإطار بالعودة إلى :

- FERJAOUI (A), *Recherches sur les relations entre l'Orient phénicien et Carthage* Tunis, 1992, Surtout le dernier chapitre p 335 et suiv.

(توجد ترجمة عربية لهذا المؤلف بنفس العنوان صدرت سنة 1993)

- LIPINSKI (E), « Les racines syro-phéniciennes de la religion carthaginoise », in, *CEDAC*, 8, (1987) pp. 28-45.

- *Dieux et déesses de l'univers phénicien et punique*, *Studia Phoenicia, XIV*, (1995).

مع ضرورة الحذر عند الاعتماد على هذين المرجعين الأخيرين

- PICARD (G.C), *Les religions de l'Afrique antique*, Paris, 1954.

مع ضرورة الحذر عند الاعتماد على هذا المرجع أيضا.

- RIBICHINI (S), *Poenus advena. Gli dei Fenici e l'interpretazione classica*. Rome, 1985.

- SZNYCER (S), «Les religions des Sémites occidentaux», in, *Dictionnaire des mythologies (tiré a part)*, pp. 1-75.

حول بعل حمّون انظر :

- DUNAND (M), DURU (R), OUMM El 'Amed, *Une ville de l'époque héllénistique aux Echelles* de Tyr Paris, 1962 surtout p. 187 et suiv

- FANTAR (M.H), « Baal Hammon », in, *REPPAL, V*, (1990), pp. 67-105.

- FEVRIER (J), « A propos du serment d'Hannibal », in, *Cahiers de Byrsa, 6*, (1956), pp. 13-22.

- HALEVY (J), *Mélanges de critique et d'histoire relatifs aux peuples sémitiques*. Paris, 1883.

- LE GLAY (M), *Saturne africain, Monuments I – II*, Paris, 1961-1966.

- *Saturne africain, Histoire*, Paris, 1966.

- LENORMANT (F), « quelques observations sur les symboles religieux des steles puniques », in, *Gazette Archéologique, 2*, (1876) pp. 146-147.

- LIPINSKI (E), « Zeus, Ammon et Baal –Hammon », in, *Studia Phoenicia, II*, (1984), pp. 307.333.

- XELLA (P), *Baal Hammon, Recherches sur l'identité de l'histoire d'un dieux phénico-punique*. Rome, 1991 (مع بيبلوغرافيا مفصّلة)

حول تانيت انظر مثلا :

- BORDREUIL (P), « Tanit au Liban », in, *Studia Phoenicia, V*, (1987), pp. 79-86.

- HVIDBERG – HANSEN (F.O), *La déesse TNT, une étude sur la religion canaanéo - punique*, 2 vol, Copenhague, 1978.

(ضرورة الحذر عند اعتماد هذا المرجع خاصة في شأن الفرضية المتعلقة بجذور تانيت وقد تمّ تجاوزها نهائيا).

- MOSCATI (S), « Tanit in Fenicia », in, *Rivista di Studi Fenici*, VII, (1979), pp. 143-144.

- PRITCHARD (J.B), *Recovring Sarepta, a Phoencian city*, Princeton, 1978, pp. 131-148

« The Tanit Inscription from Sarepta », in, *Phonızıer im Westen.* Mainz (1982), pp. 83-92.

- RONZEVALLE (S), « Traces du culte de Tanit en Phénicie », in, *Mélanges de l'Université Saint Joseph, 5,* (1952), pp. 75-83.

حول الرمز المنسوب اصطلاحا لتانيت تتميز البيبلوغرافيا بضخامتها وننصح بالعودة مثلا إلى العناوين التالية (مرتبة حسب تواريخ صدورها).

- HOURS-MIEDAN (M), « Les représentations figurées sur les stêles de Carthage », in, *Cahiers de Byrsa, I,* (1951), pp. 15-161.

- PICARD (C), *Catalogue du musée Alaoui, nouvelle serie, collections puniques, tome I,* Paris, 1955.

- FANTAR (M.H), « pavimenta punica et signe dit de Tanit dans les habitations de Kerkouane », in, *Studi Magrebini, I,* (1966), pp. 57-65.

- MOSCATI (S), « l'origine del segno di Tanit », in, *Rendiconti dell Accademia Nazıonale di Lincei, Ser VIII, 27,* (1972), pp. 371-374

- BENIGNI (G), « Il "segno di Tanit " in Oriente », in, *Rivista di Studi Fenici, 3,* (1975), pp. 17-18.

- MOSCATI (S), « Un "segno dı Tanit" presso Olbia », in, *Rivista di Studi Fenici, 7* (1979), pp. 41-43.

- GARBINI (G), « reflessioni sul "segno di Tanit" », ın, *Miscelanea di Studi classici ın onore di E. Manni, I,* Roma, (1980), pp. 1033-1049.

- BISI (A.M), "Ancora sull'origine del segno di Tanit", in, *Miscelanea* ..(ذكر سابقا) pp. 211-220.

حول إشكالية القرابين البشرية انظر :

- BENICHOU - SAFAR (H), A propos des ossements humains du "tophet" de Carthage, in, *Rivista di Studi Fenici, IX,* (1981) pp. 5-9.

- Sur l'incinération des enfants aux "tophets" de Carthage et de Sousse, in, *Revmue de l'Histoire des Religions, Janv- Mars* (1988) pp 57-67

- BONDI (S.F), "Per una riconsiderazione del tofet", in, *Egitto e Vicino Oriente*, *2*, (1979) pp. 139-150.

- CHARLIER (R), "La nouvelle série de stèles puniques de Constantine et la question des sacrifices dit "molchomor" en relation avec l'expression "BSRM BTM"", in, *Karthago*, *4*, (1953) pp. 1-48

- DE VAUX (R), *Les sacrifices de l'Ancient Testament*, Paris 1964.

- DUSSAUD (R), *Les origines cananéennes du sacrifice israélite* Paris 1941.

"Précision épigraphiques touchant les sacrifices d'enfants", in, *CRAI*, (1946) pp. 371-387.

FEVRIER (J.G), "Molchomor", in, *Revue de l'Histoire des Religions*, *143* (1953), pp. 8-18.

- "Le vocabulaire sacrificiel punique", in, *journal Asiatique*, 243, (1955) pp. 49-63.

- " Essai de reconstitution du sacrifice molek", in, *Journal Asiatique*, (1960), pp. 167-187.

- " Les rites de sacrifices chez les Hebreux et à Carthage", in, *Revue des Etudes Juives*, IVème ser, 3, (1964) pp. 7-18

- MARTELLI (F), "Aspetti di cultura religiosa punica (il molk) negli autori cristiani", in, *Atti del I congresso di Studi Fenici e Punici*, Tome II, Roma (1983), 425-437.

- MOSCATI (S), "Il sacrificio dei fanciulli", in, *Rendiconti della Pontifica Accademia Romana di Archeologia*, *38*; (1965-1966) pp 61-68.

- Il "tofet", in, *Studi sull'Oriente e la Bibbia* (1967) pp. 71-75.

- "Il sacrificio dei fanciulli. realtà o invenzione?", in, *Rendiconti all'Accademia Nazionale dei Lincei*, *261*, (1987) pp. 1-15

- PALLARY (P), "Note sur les urnes funeraires trouvées a Salambô près de Carthage", in, *Revue Tunisienne* (1922) pp. 206-211.

RICHARD (J), *Etude médico-légale des urnes sacrificielles puniques et de leur contenu* (Thèse) (1961).

- SIMONETTI (A), "Sacrifice umane e uccisioni rituali nel mondo fenicio-punico- Il contributo delle fonte litterarie classiche", in, *Rivista di Studi Fenici*, *11*, (1983) pp. 91-111.

حول ملقرت انظر :

- BONNET (C), "Le dieu Melqart en Phénicie et dans le bassin méditerranéen: Culte national et officiel", *Studia Phoenicia, I.II*, Leuven (1983).

"Le culte de Melqart à Carthage· un cas de conservatisme religieux", in, *Studia Phoenicia, IV*, (1986) pp. 209-223.

- "L'onomostique de Melqart. En appendice: L'inscription punique CIS, I, 4612", in, Rivista di *Studi Fenici, XVII*, 1, (1989) pp. 31-40.

- CULICAN (W), "Melqart. Representations of phoenician seals", in, *Abr - Nahrain, 2*, (1960- 1961) pp. 41-54.

- DUSSAUD (R), -" Melqart", in, *Syria, XXV*, (1948), pp. 205-230

- "Melqart d'après de récents travaux", in, *Revue de l'Histoire des Religions, 151*, (1957), pp. 1-21.

- LIPINSKI (E), "La fête de l'ensevelissement et la resurrection de Melqart", in, *Actes de la XVIIème recnontre assyriologique internationale*. Ham - Sur- Heure (1970), pp 30-58.

- PICARD (C) et G.Ch., "Hercule et Melquart". *Hommages à J.Bayet*, in, *Latomus, 70*, (1964) pp. 569-578.

حول عشترت انظر :

- BONNET (C), - *Astarté. Dossier documentaire et perspectives historiques*. Rome 1996.

يحوي هذا العمل إحالات ضافية إلى كلّ الأعمال التي تتـــناولت بـــالدّرس الالهة عشترت.

- DELCOR (M), "Les trônes d'Astarté", in, *Atti del I Congresso di Studi Fenici e Punici, III*, Rome (1983) pp. 777-789

- FANTAR (M.H), "A propos d'Astarté en Méditerranée", in, *Rivista di Studi Fenici, 1*, (1973), pp. 19-29.

- LECLANT (J), "Astarté à cheval d'après les représentations égyptiennes", in, *Syria, XXVIII*, (1960) pp. 1-67.

- MOSCATI (S), "Astarte in Italia", in, *Rivista di Cultura Classica e Medievale* (1965) pp 756-760.

- "Sulla diffusione del culto di Astarte Ericiana", in, *Oriens Antiqvvs*, 7, (1968) pp. 91-94.

حول إدخال عبادة ديمتار وكوري إلى قرطاج يمكن العودة إلى :

- LE BONNIEC (H), *Le culte de Cérès à Rome, des origines à la fin de la République*, Paris, 1958.

- MAURIN (L), "Himilcon le Magonide, crises et mutations à Carthage au début du IVème siècle au J.C"., in, *Semitica, XII*, (1962) pp. 5-43.

- PICARD (G.Ch.), *Les religions de l'Afrique antique*, Paris, 1954.

- "La religion punique", in, *Dossiers de l'Archéologie*, Dec. (1982), Janv.(1983), pp. 45 et suiv.

- XELLA (P), "Sull' introduzione del culto di Demeter e Kore a Cartagine", in, *Studi e Marteriali di Storia delle religione, XL*, (1969), pp. 215-218.

خاتمة عامة

ارتأينا في هذا الجزء الأوّل من مقاربتنا لتاريخ قرطاج البونية الملاءمة بين مقتضيات التسلسل التاريخي من جهة والمحاور الرئيسيّة للحضارة البونية التي تمتدّ على مختلف أطوار تاريخ قرطاج من جهة ثانية وقد اقتضى منّا ذلك محاولة الإلمام بحيثيات التوسّع الفينيقي في غرب المتوسط الذي يوفّر عناصر الإطار العام لنشأة قرطاج. ومما أكدنا عليه توجه الفينيقيين نحو الارتباط الدائم بغرب المتوسّط حيث تجذرت معالم حضارة ذات أصول شرقيّة أكسبها تفاعلها مع محيطها الجديد هوية متفرّدة عبرت عنها قرطاج التي اختزلت إلى حدّ كبير التاريخ البوني بحكم دورها الريادي. لذلك أفردنا لتأسيس قرطاج فصلا مطوّلا سعينا من خلاله الخروج بهذا الموضوع من دائرة الأسطورة وإبراز أهم روايات التأسيس وحيثياتها ومحدّداتها الإغريقية واللاتينية. وقد حاولنا الاستفادة من خلاصة البحث الاثري سواء لمراجعة تاريخ التأسيس أو لاستجلاء معالم الاطار الحضري أي القطاعات البونية التي أمكن إنقاذها وسمحت بتبين ملامح هيكلة حضرية كثيفة مميزة لحاضرة لعبت دورا استثنائيا في تاريخ المتوسط القديم. ولنا صدى لهذه المنزلة لا فقط في مستوى دور قرطاج السياسي والعسكري بل أيضا من خلال إقرار أرسطو بالطابع المحكم لدستورها ومؤسساتها السياسية وتصنيفها ضمن المدن – الدّول التي يمكن المقارنة بينها وبين نظيراتها الاغريقية.

اتخذ تأثير قرطاج بعدا متوسطيا تزامن مع التطور التدريجي لحضورها الإفريقي الذي اختصرته المصادر الكلاسيكية في علاقات تنافس عسكري وسياسي عملنا على مراجعته برصد خصائص هذه العلاقة مبرزين مدى التفاعل بين القرطاجيين والأهالي الأفارقة ومشددين على دراسة طبيعة إدارة العاصمة البونية لمجال قاري مثّل إلى حد ما قاعدة اقتصادية ثابتة من أبرز شواهدها إجماع مصادرنا على نجاح القرطاجيين في إحراز تجربة تكثيف زراعي في ما عرف بالمجال الزراعي لقرطاج. غير أن هذا البعد الاقتصادي لا يقلّ في شيء

من أولويّة النشاط التجاري الذي مثّل دعامة قوة قرطاج وكيّف بشكل لافت للنّظر سياستها تجاه إمبراطوريتها من جهة وتجاه قوى المتوسّط من جهة ثانية. وقد لعبت الارستقراطية المتنفذة سياسيا واجتماعيا دورا محوريا في توجيه تاريخ قرطاج وهو ما تدفع مختلف إشارات مصادرنا على الأخذ به إلاّ أننا حاولنا توظيف المادة المصدرية، على ندرتها، لتبيّن مكانة بقية الفئات الاجتماعية سواء من بين القرطاجيين أو الأهالي الأفارقة أو أيضا الأجانب المقيمين في العاصمة البونية.

خصصنا الفصل الأخير من هذا الجزء للجانب الدّيني وذلك سعيا لاستكمال دراسة مختلف أوجه الحضارة البونية فأبرزنا أهم مكوّنات مجمع الآلهة القرطاجي في أصوله الفينيقية وتطوره الذاتي وتأثره بديانات الحضارات المجاورة.

نأمل في خاتمة هذا الجزء الأوّل أن تكون مختلف فصوله كفيلة بإبراز الأصول التاريخيّة لقرطاج ورسم أهم ملامح حضارتها. ونود لفت نظر القارئ إلى أنّ الفصول المدروسة بقدر ما تبدو مستقلة بذاتها فهي تيسر الإلمام بحيثيات التاريخ السّياسي والعسكري لقرطاج في محيطها المتوسطي الذي أفردنا له الجزء الثاني وأعلنا عناصره في المقدمة.

وإجمالا فإننا أكدنا على تطوّر البحث التاريخي في قراءة مختلف المصادر الأدبيّة والنّقائشيّة والأثرية مقدرين خطورة ترجيح ما أو افتراض أي استنتاج فسعينا إلى أن تجمع النتائج التي توصلنا اليها بين الابتعاد عن المجازفة الوثوقية من جهة والإيمان بالتطوّر الدائم للمعرفة من جهة ثانية.

الفهــــرس

تم طبع هذا الكتاب في شهر جوان 1999
بشركة «أوريس للطباعة» - قصر سعيد
الهاتف : 701 547 - الفاكس : 235 546

دفعنا لتأليف هذا الكتاب إيمان راسخ بأهمية تأثير حضارة قرطاج لا فقط في تاريخ البلاد التونسية بل وفي تاريخ البحر الأبيض المتوسط ولقد أنسنا عند المهتمين بهذه الفترة رغبة في أن يوضع على ذمتهم مؤلف يسد فراغا في المكتبة العربية بحكم افتقارها حتى اليوم إلى مرجع باللسان العربي إذا ما استثنينا بعض المحاولات القليلة الجادة.

ولمّا كان الاتجاه اليوم ينحو إلى تدريس تاريخ هذه الحضارة باللغة العربية فقد سعينا إلى أن تكون عبارة الكتاب على سهولتها تجربة لتطويع لغتنا للتعبير التاريخي الدقيق... ولم يشكّل ذلك في الحقيقة الواعز الوحيد الذي حثّنا على صياغة هذا الكتاب بل أن يقيننا عميقا بأهمية ما حقّقه البحث التاريخي على امتداد الفترة الأخيرة من تقدّم قد رسّخ في أذهاننا مشروعية العمل الذي نعرض ثماره على قرائنا فقد شملت جهود البحث كامل أرجاء الإمبراطورية القرطاجية تقريبا... وهو ما وفّر للمختصين فرصة لتنزيل تاريخ هذه القوة في إطاره المتوسطي ولكن بكل أبعاده العسكرية والإقتصادية والثقافية وطبيعي أن تتراءى لنا اليوم صورة قرطاج بمظهر يختلف عما تعوّدت تقديمه الأبحاث الأولى وأمكن لنا استجلاء أوجه التأثير الذي مارسته على الحضارات المجاورة ومدى تأثير هذه الحضارات بدورها على الحضارة القرطاجية وهو ما أكسب قرطاج هوية متفردة ذلك أنها جمعت بين التأثيرات الموروثة عن البلاد الفينيقية بحكم شرقية المهد الذي انحدرت منه والتأثيرات التي اكتسبتها من الثقافات المجاورة لينصهر كلّ ذلك في ثقافة أثّرت في تاريخ المتوسط وأثرته.

الشاذلي بورونية

قسم التّاريخ

كليـــــة الآداب بمنّوبـــــة



محمد طا

قسم التّاريخ

كليّة العلوم الإنسانية والإج

مركز النشر الجامعي 1999.

ت د م ك : 9973.937.75.9

الثمن : 10 دنانير